توما بوا



الكُرد

ترجمة
صلاح عرفان

كوردۆلۆجی



منتدى إقراء الثقافي
www.iqra.ahlamontada.com
للكتب (كوردى , عربي , فارسي)

الكُرد

للمستشرق الفرنسي
توما بوا

ترجمة
صلاح عرفان

مركز الدراسات الكردية (كوردولوجي)

إقليم كوردستان
رئاسة مجلس الوزراء
مركز الدراسات الكوردية (كوردۆلۆجى)

الكُرد

- المؤلف: تومابوا
- ترجمه: صلاح عرفان
- الطبع الكومبيوتري: ابراهيم احمد حسين
- مصمم و مشرف الطبع: بريار فرج كاكي
- تصميم الغلاف: كمال علي
- رقم الإيداع : ١١٤٦ لسنة ٢٠١٠ / المديرية العامة للمكتبات العامة
- منشورات مركز الدراسات الكوردية (كوردولوجى)
- عدد النسخ: ٧٥٠ عدد
- السعر: ٢٠٠٠ دينار
- التسلسل (٥١).

مركز الدراسات الكوردية (كوردولوجى)
العنوان: السليمانية- كانى ئاسكان - شارع: ٣، رقم الدار: ٢، رقم البريد: ٩٥
هاتف: ٣١٢٣٠٩٣
Kurdology2006@yahoo.com

المحتويات

توما بوا



ولد الأب توما بوا في دنكرك عام ١٩٠٠ وإعتنق المذهب الدمنيكاني عام ١٩١٩ وأرسل في عام ١٩٢٧ إلى منطقة الشرق الأوسط ليبقى هناك حتى وفاته في عام ١٩٧٥ يدرس اللغات العربية و السريانية و الكُردية. إهتم منذ بدايات دراساته بالشعب الكُردي المعروف عنه قليلاً لدى العالم، فأخذ يدرس لغتهم مع آدابهم و تأريخهم و عاداتهم و دياناتهم، و ينشر المقالات في المطبوعات المختصة بالدراسات الشرقية مثل ليكاي ديليست و المشرق البيروتي و الشروش أوريانت كريتيان في القدس البيليوتيكا أورينتاليست في ليدن و لافريك لاسيا أونيت في باريس. و يشكل الكُرد لب مكونات أبحاثه و كتاباته. و برز فيما بعد كمستشرق متضلع في الدراسات الكُردية بحيث عهد إليه المشرفون على(دائرة المعارف الإسلامية) بكتابة الموضوع الخاص بالكُرد و كُردستان للطبعة الجديدة، مضيفاً بذلك عملاً جليلاً إلى أعماله العلمية الكثيرة عن تأريخ الشعب الكُردي و لغته و معتقداته.

حول كتاب الكُرد و كُردستان

يؤلف الكُرد أحد الشعوب القلائل في الشرق الأوسط، من الذين إحتفظوا بالتقاليد الرفيعة المتأصلة و المتوارثة منذ أقدم الأزمان، لذلك تأتي أبحاث الأب توما بوا في وقت مناسب جداً لتوسيع أبعاد معلوماتنا عن هذا الشعب المعروف لدينا قليلاً، و الذي يساء فهم أحواله أحياناً. فبعد أن يوجز المؤلف المصادر عن أصل هذا القوم الساكن في الشرق الأوسط و بعد أن يسرد تأريخه يقوم بإبراز واقعه بحيوية فياضة، وسط العائلة و الحياة الإجتماعية و أثناء الأعمال اليومية، بذلك يتيح لنا مشاركة أفراد هذا الشعب أفراحهم و اتراحهم، ذلك لأن الأب بوا باحث إجتماعي قدير مختص في العلوم الإنسانية، يغمره الإحساس العميق تجاه الكُرد و يكن لهم مشاعر المحبة و المودة. فثمة فقرات في كتابه يكشف فيها عن أصدق العواطف و الأحاسيس تجاه هذا الشعب الذي عاش بين ظهرانيهم، ليثير في القارئ مشاعر الحب و الأشجان. و مما هو جدير بالذكر سرده للوقائع الخرافية المقترنة بالمعتقدات المسيحية الآرثودكسية أحياناً. وما يعرضه عن الأب الكُردي المدون و الآداب المروية مبحث للبهجة و الشوق ليبعث الفضول في نفس القارئ. و هنالك أحداث في الفصل الأخير من الكتاب ينجلي عنها الغموض و الإبهام بعد تسليط الأنوار عليها من قِبل الباحث.

مقدمة المترجم

ترجم هذا الكتاب ليتسنى للقارئ العربي الإطلاع على شؤون الكُرد من خلال ما يكتبه عنهم الباحثون الأجانب و بالأخص الكُتاب العرب ذلك لكي لايساوره الشك فيما لو تطرق إلى البحث كاتب كُردي فيتولد لديه الظن و الإرتياب في إحتمال تشويهه للحقائق، أو عرض وجهات نظر تحتمل التآويل أو تحمل في طياتها المشاعر العاطفية و المبالغة في الأحكام. لذا يمكن إعتبار ما قام به(توما بوا) محاولة ناجحة و مفيدة للقارئ بغية تقديم صور قريبة عن الواقع في كُردستان و عن الصفات المختلفة البارزة للشعب الكُردي الذي يعيش الآن في بلاده المقسمة بين الدول المتعددة في الشرق الأوسط. فالبحث لايقتصر على إقليم واحد لكُردستان، أو على الكُرد في قطر معين، بل إنما يتسع ليغطي البلاد الشاسعة بأسرها، و أهلها الساكنين الآن في كُردستان تركيا و إيران و العراق و سوريا و الإتحاد السوفييتي سابقاً.

يتناول الكاتب كُردستان جغرافياً مع مصادرها الإقتصادية و مدنها و تأريخ شعبها من خلال دراسة الأساطير و التنقيبات الأثرية، وما كتبه المؤرخون عنها. فيذكر حياة الكُرد المستوطنين و القبائل المرتحلة، و يقدم دراسات وافية عن العشائر الكُردية و العائلة الكُردية و نظم حياتها، وأساليب معيشتها.

و من المواضيع الشيقة في البحث سرد الكتاب لمختلف النظريات عن أصل الكُرد، وإستعانته بالأساطير و الحكايات و التأويلات المختلفة لمعنى لفظة(الكُرد). ثم لجوئه إلى الدراسات الأكاديمية و العلمية التي أعقبت إكمال التنقيبات الأثرية التي أجريت في كُردستان و العثور على الآثار التي تشهد على وجود الحضارات عند الكُرد منذ أقدم الأزمان.

و يتناول الكتاب أيضاً الديانة في العهود الوثنية، و يذكر أصل المعتقدات الخرافية و الأدعية و التعاويذ و الطقوس السحرية مع وجود ترسبات لتلك المعتقدات القديمة في

المجتمع الكُردي الحديث رغم إعتناقه الديانة الإسلامية. و نظراً لنشر الكتاب باللغة الفرنسية يشرح الباحث لقرائه أركان الدين الإسلامي و أنظمتها، ثم يعرض بإسلوب شيق(التصوف) الراسخ منذ القدم في كُردستان و أهم أسباب ظهورد في تلك البقعة من دون البلاد الإسلامية المترامية الأطراف.

و الجدير بالذكر دراسته الشيقة عن الموسيقى الكُردية و القدماء من الموسيقيين الكُرد و المغنيين و القصاصين المتجولين، و الأدب الشعبي الكُردي و ما يحويه من المثل و الحِكَم و القصص الواقعية القصيرة، والقصص المطعمة بالأساطير، ثم الملاحم التأريخية وما فيها من المفاخر و التضحيات و البطولات و تأكيده القوي على وجود المشاعر القومية المتأصلة في عروق الشعب الكُردي. و يقدم الباحث صورة جديرة بالإهتمام عن تأريخ الأدب الكُردي المتضمن للكتابات النثرية و الشِعرية، و يترجم نماذج الشِعر الغنائي الغزلي و الوطني.

و في الفصل الختامي للكتاب يتطرق إلى المسألة القومية و الحركات الكُردية بشكل مقتضب، و بصورة تعتبر نموذجاً لما يحمله من المشاعر الإنسانية النبيلة الخالية من الإنحياد و التطرف و الإنحياز، بل إنما بإسلوبه العلمي المعتاد في تعامله مع الأمور الأخرى الكثيرة الواردة في الكتاب، فيؤيد الشعب الكُردي المظلوم في حقوقه القومية المشروعة، و في وجوب إتاحة الفرصة له ليعيش حراً في بلاد كُردستان موطن أجداده و آبائه من الأقدمين.

ولقد حاولنا جهد المستطاع تقديم ترجمة واقعية أقرب ما تكون للأصل بعرض ما كتبه الباحث أصلاً دون المساس بمحتواه، و تدوين الكلمات الكُردية المذكورة في البحث باللهجة التي أوردها، رغم تغيير المصطلحات تبعاً للمناطق و الأقاليم بالنسبة لما يتعلق بالعادات و المعطيات و المسميات المطابقة.

و نظراً لأن الباحث يعرض سرداً تأريخياً لعادات الشعب و معتقداته، فثمة ذكر لبعض الشؤون و المعتقدات الخرافية أو ممارسات قد تظهر غريبة حتى عند القارئ الكُردي، ذلك لشمول البحث أقاليم شاسعة من كُردستان و عهود كثيرة تمتد عبر الأزمان. و بالرغم من شدة إمعان الكاتب و تمحيصه العميقين، قد تطرأ أمور تؤخذ أحياناً محمل الجد ولكن القارئ الحصيف يسهل عليه الإدراك بأنهما مجرد بقايا للأساطير أو مقولات كانت الغاية منها المزاح و الدعابة، لذلك حاولنا كتابة شرح لمثل هذه النقاط أينما وردت و توضيحها

في الهوامش المدرجة في آخر الكتاب، بالإضافة إلى تقديم التوضيحات لأي كلمة أو مصطلح آخر يحتاج إلى مثل هذا التوضيح.

و من الأمور الأخرى الجديرة بالملاحظة ذكر الباحث للكُتاب و الشعراء و الروائيين الفرنسيين عند ورود أسماء أقرانهم من الكُرد، ذلك لتوضيح أنماط الحياة و الطبائع الموجودة لدى الكُتاب و الشعراء الكُرد للقراء الفرنسيين، بالمقارنة مع ما يوجد في الأدب الفرنسي من التشابه. لذلك قدمت في الهوامش نبذة قليلة عن حياة كل من ورد إسمه من الأُدباء الفرنسيين، بغية تسهيل إستيعاب القارئ لأوجه التشابه، و المقارنة بين الطرفين.

و في الختام آمل أن أكون قد أديت القسط الضئيل مما كنت أطمح فيه من خدمة القراء، بالتعريف عن كُردستان و أبناء وطني من الكُرد.

صلاح عرفان

١٨/نيسان/١٩٩٤

الفصل الأول

كُــــردســــتــــان

كُردستان

أرض بلا حدود، تلك هي كُردستان التي لاريب في أننا لانحتاج إلى القول بأنها بلد الكُرد و موطن سكانهم. فكلمة كُردستان أطلقت في مسار القرون على المناطق التي توسعت و إنحسرت أحياناً خلال العهود الغابرة. و لا تظهر اليوم على الخرائط المطبوعة في تركيا بالرغم من وجودها في تلك التي نشرت إبان عهد الإمبراطورية العثمانية. وأما الخرائط الإيرانية، من ناحية أخرى، فهي تؤشر إلى منطقة في الغرب، أبعد ماتكون شاملة لتحوي جميع كُرد إيران، ناهيك عن الشعب الكُردي بأسره(١).

تؤلف كُردستان العمود الفقري للشرق الأوسط، لأنها تقع في قلب آسيا الوسطى، و تشكل القسم الأكبر من المنطقة الجبلية الممتدة بين البحر الأسود و سهوب ما بين النهرين. ولإقليمها الشبيهة بالمنجل أو الهلال، حسبما يرتئيه الذوق، أرض واسعة تقارب مساحة فرنسا، و تستقطع مناطق كبيرة من تركيا و إيران و العراق. و رغم ذلك فسكانها يملكون خصائص عرقية و لغوية و تأريخية جد بارزة، تختلف بوضوح عمن يجاورهم من العرب و الأتراك و الإيرانيين.

جغرافية كُردستان

تشكل سلاسل جبال طوروس و زاغروس العمود الفقري لهذه البلاد التي تعلو إرتفاعاً كبيراً عما يجاورها من المناطق، فتسمو بعض القمم في جبال شاهقة لتشرف على ما يحيط بها من الأقاليم. فقمة آرارات المهيبة، التي يعتقد بأن سفينة نوح قد رست عليها، ترتفع إلى أكثر من ١٦,٢٠٠ قدم، و كذلك جبل جودي الذي ربما كان له مثل هذا الشرف أيضاً، يصل إلى إرتفاع أكثر من ٦,٥٠٠ قدم. و يبلغ إرتفاع نمرود داغ ١٠,٤٠٠ قدم. و جبل سيثان الذي يرد ذكره في الأغاني كثيراً، يرتفع إلى علو ١١,٣٣٠ قدماً. و يبلغ إرتفاع پيرمگرون في العراق ٩,٢٠٠ قدم. و تكسو هذه القمم الثلوج خلال معظم أيام السنة. و تفيض في قلب كُردستان منابع نهرين ذكر إسماهما في التوراة، و هما

دجلة و الفرات، مع روافدهما، مراد صو و الخاشور و الزابين و ديالى، ليعرج مسار مياهها بين الجبال، فتنحدر على الصخور بين الممرات لتضفي فتنة على جمال تلك البقاع. و تضيف روعة و بهاء إلى مناظرها. و تروي كذلك مياه الأنهار ودياناً خصبة ذات بركات لا متناهية. و تكثر خصوبة الأرض في منعطفات الفرات غالباً، كما نشاهد في سهول أورفة و تايكر و مناطق الديار و الجزيرة و وادي موش ذات الغلة الفياضة، و في الوديان الواقعة على أطراف الزابين حول أربيل و كركوك.

لذلك لا يخلو هذا القطر من جمال الطبيعة. و الواقع أن لجماله روعة يلمسها حتى الأطفال، فتظهر في أغانيهم الشعبية. و مفاتن الحبيب يسهل تشبيهها أو مقارنتها بما يحيط بالإنسان من الروعة و الجمال، كلطافة زهور أشمخان و بدائع التفاح في ملاطيا أو أعناب سنجار. و تنشد الأغاني زهو الغابات و سمو جمالها و سحر المنحدرات المكسوة بالصخور في ربوع جبال سيثان و كلات، فتصف الأشعار تألق الينابيع الرقراقة في أعالي بنكول حينما تتدفق مياهه نحو حدائق الورود و بساتين الفواكه في مريوان. فالنهر الذي يتعرج خلال بيوت القرية، و الفواكه النامية في كل الأرجاء و القمم المكسوة بالثلوج كرأس جبل قنديل، تصلح جميعها لتورد كأمثلة و تشابيه، تتعدد أنواعها و تختلف من موطن لآخر. و هنا يحتار من يصغي إلى مغني، و في نفسه سؤال، يا ترى بم قد سحر الولهان، أبحسن حبيبته، أم بجمال الطبيعة فيما حوله و هو يشدو بألحانه حينما يقول:

ياحبيبتي في عينك النور، يشع كينابيع أخماخان
ليلهب أحشائي
فأفرحي بين الأزهار كالظباء
استريني، يا زهرة الجبال، يا أريج الورود
بين جدائل شعرك، الخمرية
و بين ضفائرك حينما تميل مع النسيم،
نسمات جبال أخماخان.

ولكن الحياة ليست كلها شعراً، لأن المناخ قاس. فالثلوج تتوج الجبال لتجلب البرد القارص. و أما الحر في الجنوب فيكون شديداً لافحاً. و تستمر الأمطار من شهر تشرين

الأول إلى نيسان. و يفعل مبدأ البقاء للأصلح فعله في السكان، فيصبح الكُردي الساكن في أعالي الجبال أنشط و أقوى من غيره بين الكُرد.

مصادر كُردستان الإقتصادية

لاتزال بعض القبائل تعيش في الخيام. و الكُرد يغادرون السهول خلال موسم الصيف، لأنها تأخذ بالجفاف. فيقودون قطعانهم إلى(زوزان) المراعي الجبلية، حيث تحصل الحيوانات على العشب الوفير و الهواء البارد المنعش. و في تلك الربوع تنمو الأغنام جيداً فتعلو قامات بعضها إلى إرتفاع ٣٢ إنجاً، أي بنسبة ٦ إنجات عن إرتفاع أحسن الأغنام المتربية في كثير من البلدان المنتجة لمثل هذه الحيوانات. و هكذا يمارس أكثرية الكُرد تجارة تربيةالأغنام، و يعتبرون ذلك عملاً محترماً، تصاحبه الحياة الحرة تحت أشعة الشمس.

و ثمة أمثال كثيرة تحوي الحكم و الكلمات اللاذعة، تزيد في نكهة الحديث لتصبح شواهداً على شدة إهتمام الرعاة بقطعانهم، فتنعكس في أنماط الحياة و أساليب معيشتهم:

١ـ تظهر جودة الكبش من عتبة باب الحضيرة.

٢ـ يسقط حق الكبش الضعيف أمام قرني الأقوى منه.

٣ـ يتبوأ الجدي سيادة القطيع عندما يهوم الماعز.

٤ـ الماعر الأجرب يقفز فوق الينابيع مراراً.

٥ـ تحت ظل شجرة واحدة يرقد مائة خروف.

٦ـ النعجة تتعرض للأخطار حين خروجها عن القطيع.

إن الكُردي صياد ماهر، و يقوم بإصطياد كل ما تصبو إليه نفسه، لاسيما و إن الجبال مليئة بالدبب و الذئاب و الخنازير البرية، ناهيك عن الوعل و الحيوانات الأخرى الصغيرة من كل نوع، و من ذوي الفراء و الطيور كالحجول و البط البري بكثرة.

و لانجد في هذه الأيام عدداً كبيراً من القبائل الرحل الكُرد يرعون الأغنام، لأن الغالبية تسكن في قرى صغيرة. و يستقبل الكُردي فيها الغريب غالباً بترحاب عظيم، و لا توجد شوارع في مثل هذه القرى، بل تندمج البيوت مع بعضها البعض لترتفع على ضفاف الجداول التي تظللها أشجار الحور الباسقات و أشجار الجوز الجميلة. و يستطيع المرء أن يصطاد السمك بصنارته ، حينما يتدفق كالسهم البارق من الترعة. و يمرح الأطفال في

مياهها ساجين. و تغسل النساء خرقاً بالية من ثيابهن و هن يكتسين الحلل الزاهية. و ترى الحقول المترامية الأطراف حول القرى محروثة بشكل متقن، لأن الكُرد يكنون الحب للأرض الصالحة للزراعة. و حينما تصبح مثل هذه الأرض نادرة، يقومون عوضاً عنها ببناء الدكانك بمهارة، على شكل مصطبات ليزرعوا فيها الذرة و القنب و الدخن. و يشكل الرز محصولاً وفيراً، و يعتبر التبغ جزءاً مهماً من ثروة البلاد. و تنتج أشجار الكروم عدداً كبيراً من أنواع الأعناب. و بجانب تلك الروائع يمكن مشاهدة معالم لخرائب قلاع عظيمة في جميع الأرجاء تقريباً، و قد شيدت على مدار العصور من قِبل الآغوات الذين كانوا يتمتعون بالحرية و الإستقلال. و لعبت بعض هذه القصور المشيدة أدوارها في تأريخ البلاد، حيث يختلط واقعها بالأساطير. و يؤدي سرد الحكايات إلى نسج تلك الملاحم لينشدها المغنون بحلول الظلام. و المثال على ذلك الملحمة المشهورة عن قلعة دمدم. فالبلاد ذات سحر خلاب للغاية، ولكن: هل تتسم بالإزدهار كمثل سحر جمالها؟ إذ أن كُردستان كما أسلفنا، أرض جبلية. و قلما تكون مواطن الجبال ذات ثراء فاحش. ولكن بالرغم من ذلك، لا يستهان بمحاصيلها من القمح و الرز و الشعير و أشجار الفواكه من التفاح و الكمثري و الخوخ و المشمش، ناهيك عن كثرة الكروم و غزارتها. و يعتبر الصوف و الحليب و الزبدة و الجبن منتوجات لحصيلة رعي الأغنام، المصدر الرئيس لإقتصاديات كُردستان. و تكتسي الجبال بأشجار البلوط الوارفة الخضراء، حيث تستعمل ثمارها في صناعة الألوان و الدباغة. و توجد فضلاً عن ذلك تقريباً في كل مكان ترسبات فحمية لم يجر عليها التعدين. ولكن النحاس يستخرج في أركني. و يمكن ملاحظة وجوده في بالو أيضاً مع مقاطعتي وان و أركا. و ثمة خامات الحديد في أرجاء مجاورة لماردين و قضائي كيجي و كيشين و نواح أخرى من العمادية. و هنالك الرصاص المحمل بالفضة قرب ماردين في مقاطعتي وان و كيماه. و ثمة معلومات عن وجود الذهب و الفضة في موضع قريب من دياربكر. ولكن أكبر مصدر للثروة في كُردستان يكمن في وجود ترسبات هائلة لمعدن الكروم. و فوق كل ذلك البترول الموجود في ولاية الموصل الشهيرة، الذي يستخرج الآن من آبار كركوك الواقعة في قلب كُردستان. و يدرك الكُرد تلكم الحقائق إدراكاً جيداً و يستوعبونها. و تعتبر كذلك منشآت نفط كارزان في باطوم التركية و آبار رامانداغ في ناحية سيرت من الممتلكات الكُردية ايضاً.

المُدن الكُردية

هناك مُدن قليلة في كُردستان أو بالأحرى الواسعة منها(٢)، ولكن لمعظمها مواقع رائعة. فتوجد مدينة أرضروم في تركيا و التي تمثل قلعة الأناضول الشرقية بسكانها البالغ تعدادهم تسعين ألف نسمة من الناس المحافظين على التقاليد و المبادئ الدينية العريقة مع العادات الموروثة من الأزمنة الغابرة. و تعتبر مدينة بتليس المشيدة على الصخور البركانية على إرتفاع خمسة آلاف قدم، بمثابة عاصمة كُردستان من الناحية التأريخية، لأنها شاهدت حشود زينوفون المؤلفة من عشرة آلاف مقاتل و هم يعبرون خلال ممراتها. و ثمة مراكز أخرى للسكان على ضفاف دجلة مثل دياربكر، و فيها المتاريس و الإستحكامات الرومانية القديمة، و مدينة وان الواقعة في بلاد سميراميس التي تشرف على ضفاف بحيرة وان الشبيهة بالبحر الميت في ملوحتها. و توجد أيضاً ايلزيك و ملاطيا و ماردين و الجزيرة. و أما في إيران فهناك مدينة ساوجيبولاغ المسماة بمهاباد من قِبل الكُرد، أي مدينة القمر. و توجد فيها أيضاً مدن ميد زوخوي و ماكو و سِنة و كرمانشاه بصورة خاصة. و توجد في العراق مدينة السليمانية بسكانها البالغ تعدادهم خمسين ألف نسمة(٣)و التي تشكل أهم مركز صناعي وثقافي، و كذلك أربيل التي هزم على مشارفها الإسكندر الكبير جيوش دارايوس، و تأتي بعد السليمانية في أهميتها، و توجد فيها قلعتها المشهورة التي تربض في موقع غريب مثير للإعجاب كمدينتي العمادية و العقرة اللتين تعلوان عن الأرض كالقلاع المشيدة. و تعتبر رواندوز أقل أهمية من الناحية السكانية، و لكنها تمتاز بجمالها الخلاب عن جميع تلك المدن، لوجود مضايقها العميقة التي تعتبر من أروع ما يمكن للمرء تخيله من مباهج سحر الطبيعة. و أما كركوك فهي مدينة النفط التي يستوطن فيها مختلف الجنسيات. و تقع زاخو و دهوك وسط بساتين الفاكهة، و كلتاهما شاهدتان على ما يتسم به سكانهما من الروح العالية في الجد و النشاط و الكفاح في سبيل إنجاز الأعمال المثمرة. و أما سرسنگ و صلاح الدين فهما مَصيفان يضاهي جمالهما أبدع ما في لبنان من سحر الطبيعة. و يقتات كل شخص هنالك من مورد مهنة صغيرة أو عمل يدوي، كنسج السجاد أو صنع اللباد. مع ذلك حصل كُرد كثيرون على وظائف لهم في سد دوكان أو في حقول نفط كركوك(٤).

و ثمة سؤال يراود الذهن و هو، هل أن عدد السكان الكُرد كثير؟. ذلك من الصعب بمكان الإجابة عليه بالتحديد، لأسباب واضحة، وهي أن الحكومات المعنية تجاهد في إنكار الإختلافات العرقية بين السكان ضمن هذه الدول. فثمة مصادر غربية معروفة تبنت أرقاماً مقتبسة لا تصلح إلا لخمسين سنة خلت، أو أبعد من ذلك. و تقدر هذه الإحصاءات عدد الكُرد بمليونين أو ثلاثة. و هي تقديرات جد مبالغة في التخفيض. و أما بالنسبة لعدد الإثني عشر مليوناً الذي يؤكد عليه وطنيون من الكُرد فهو أيضاً يحتاج إلى الإسناد بالبراهين. و لكن يمكن القول بدون مواربة بأن عدد السكان الكُرد يقارب التسعة ملايين على أقل تقدير، منهم ستة ملايين يعيشون في تركيا. و في الإستطاعة دراسة الإحصاء العام المرقم ٤٤٤ لسنة ١٩٦٠ الذي يؤكد هذا الرقم تماماً و لكن يعتبر عند البعض مغالياً فيه. و إذا رغبنا في الإختصار يمكن القول بأن عدد السكان الكُرد يبلغ ما في العراق و لبنان و الأردن و الكويت من السكان بصورة إجمالية.

لقد دوننا ما يتلو من الصفحات لأجل التعريف بشعب لا يعرف العالم عنه الكثير و يسكن بلداً عظيماً غاية في الروعة. و في نيتنا إيضاح الصفات المتميزة الخاصة بالكُرد، كما نراها و نلمسها في سيرة أعمالهم اليومية و في أنشطتهم المختلفة داخل البيوت، و كذلك ضمن المناحي الفنية و الحرفية و مضمون حياتهم الإقتصادية و الإجتماعية و الدينية. و سوف نختم بحثنا هذا بنظرة عابرة على الحركة المتمثلة في الوعي القومي الكُردي.

الفصل الثاني

البحث عن الشعب الكُردي

البحث عن الشعب الكُردي

تشكل معرفة الشعب الكُردي مشكلة عويصة شغلت بال المؤرخين خلال نصف قرن. فطرحت بشأنها النظريات الكثيرة، و إعتبرت القضية معقدة للغاية. إذ حاول الكُتاب الروس، و منهم مينورسكي و نيكيتين و بالأخص فيلجينسكي إلقاء الأضواء عليها. و سنحاول من خلال المناقشات التأريخية و بمساعدة الباحثين المتضلعين في العلم و الأبحاث الأركيولوجية و اللغوية و علم الأجناس إيجاد مخرج لهذه المعضلة. و لا نحجم عن التأكيد ختاماً لبحثنا بأن نقول بحسم أن الكُرد المعاصرين قد إنحدروا من أصول شتى نتيجة إختلاطهم بصنو الأجناس على مر العصور. و قد تمكنت التفاعلات التأريخية و النظم الإجتماعية من صنع مجموعة عرقية ذات معالم متباينة واضحة لهذا الشعب.

من الأساطير إلى التأريخ

لقد إعتاد سكان دماوند في بداية القرن التاسع عشر على الإحتفال، و لاشك بأنهم لايزالون يحتفلون، بما يسمونه عيد الكُرد كما يرويه موليير، و ذلك في ذكرى إنتصار فريدون على الطاغية زاهلاك أو أزدهاك(٢)، و تعني الكلمة(الرجل ذا الأثام العشرة). لقد حارب زاهلاك هذا، و القادم من أرض سوريا، الملك الإيراني الأسطوري جمشيد، أي (المدافع المنور البهي) و تبوأ مكانه العرش. ولكن زاهلاك نال العقاب من جراء شروره، فأبتلى بنمو نتوئين على كتفيه في شكل ثعبانين. فضحى لإنقاذ هذا الرجل المنكود أمهر الأطباء و أقلقوا راحتهم و بذلوا قصارى جهدهم، و لكن دون جدوى. فتدخل عندئذ الشيطان في المسألة بنفسه، و أمر بإطعام الثعبانين من مخ أُناس في ريعان شبابهم كل يوم. و تلبية لهذه النصيحة قُدمت للثعبانين أرواحاً بريئة كثيرة، إلى أن شعر أحد الأيام الطباخان كرمائيل و أرمائيل اللذان كان واجبهما إرضاء نهم الوحشين، بوجوب حماية الأرواح البريئة. فقررا تبديل الطعام المهيأ من دماغ البشر بمخ الخرفان. و هكذا تم إنقاذ

الكثيرين من الفتيات و الفتيان الذين إلتجأوا إلى الجبال خوفاً ليختفوا هناك. و بمرور الزمان تزاوجوا فيما بينهم، ليصبحوا أسلافاً للكُرد الحاليين الساكنين في الجبال و الفلاحين الذين يكرسون حياتهم للزراعة و تربية قطيع الحيوانات. و هؤلاء أُناس لا يعرفون الإستقرار و لايملكون موطناً ثابتاً. و تتألف بيوتهم من الخيام. و ليس في قلوبهم خوف من الله! و لكن فريدون إستطاع بعد ذلك أن يهزم زاهلاك. فكبله بالحديد. مثلما حدث في قصة بروميثيوس(٣) ثم شده إلى جبال دماوند. إلى أن مات ميتة بطيئة. هذه هي الأسطورة كما يرويها الفردوسي في الشاهنامه، كتاب تأريخ الملوك الفُرس. و لكن مثل هذه الأساطير لا تقنع من يعتبرها محض خرافة، ناهيك عما تتسم به من اللامبالاة و الفتور حول تفسير أصل قوم مثل الكُرد، الذين ذاع صيتهم بالشجاعة و رباطة الجأش. و الأنكى من ذلك، ذهب بعض الكُتاب و منهم العرب، إلى أن الكُرد سليل الجن. و يؤكدون بأن ذلك شئ معلوم، لأن النبي سليمان الحكيم الوارد ذكره في كثير من الحكايات المنغرسة في أعماق الآداب الشعبية لبلاد الشرق، قد ترك آثاراً كثيرة في الأزمنة التي كان يحكم فيها كُردستان، حيث قرر ذات يوم إضافة عدد آخر إلى حريمه. لذلك أرسل إلى الجهة الشرقية من مملكته طالباً تزويده بأربعمائة من أجمل الفتيات الحسناوات المتوفرات في تلكم البلاد. و لكنهن للأسف الشديد لاقين، و هن في الطريق، شرذمة من أشرار الجن، و على رأسهم كبيرهم العفريت(ياشد). فأمر هذا اللعين أفراده بهتك أعراض البنات. فعلم سليمان بهذه الفعلة الشائنة و شعر بمس في كرامته. لذلك أبعد المحضيات الربعمائة اللواتي أصبحن غير جديرات بمقامه. و أما الفتيات فكن قد حبلن بنتيجة إتصالهن بالجن فأنجبن أطفالاً مدهشين عجاب، هؤلاء هم الكُرد الذين نشاهدهم في وقتنا الحاضر.

و إذ أمعنا النظر في تعليل كلمة(الكُرد) و في جذورها نرى بأن ذهب بعضهم إلى إستنباط نتائج جد غريبة خيالية. فقالوا بأن الكُرد ينتمون إلى سلالة من الأبطال، تفسيراً لكلمة(كورد) الفارسية التي تعني(البطل)، أو(الذئب) الذي يسمى ب(كورد) في اللغة نفسها. تلك تخيلات لا قصد للتجريح من ورائها، و لا تؤذي أي كائن. و أما الأكاديمي السوفيتي(مار) فقد أرخى هو الآخر أيضاً العنان للخيال، فربط لفظة(الكُرد) بالكلمة الأرمنية(كورت) التي فيها دلالة(الخصي). و يجتهد من هذا المنطق ساعيا إلى تقديم نظرية(الماترياركية)(٤) التي تتمثل في نظام المؤسسات الإجتماعية، الذي من المحتمل أنه كان معروفاً لدى الكُرد في الأزمان الغابرة. و لكن مار، على كل حال، مبالغ

في نظرته، لأن الكُرد يتفاخرون بصورة عامة، بأنهم في نظر العالم ذئاب في الشدائد فقط، كما يصفهم الشاعر جگر خوين. و أنهم لا ريب لن يسمحوا لكائن من كان أن ينظر إليهم و كأن في رجولتهم عيب ـ ذلك النقص الذي لم يكن له عند الكُرد من وجود، قديماً، و لا وجود له الآن. ولكن، إن كان للأساطير الشعبية و تفسير الكلمات بصورة صبيانية قدرة في تفسير بعض خصائص الكُرد، فلن تكون وافية لحل مشكلة الأصل العِرقي للكُرد بصورة كاملة.

التأريخ و الآثار القديمة

من المؤكد بأن المناطق التي يعيش فيها الكُرد حالياً و التي سنطلق عليها إسم كُردستان باقتضاب، كانت مسكونة منذ أقدم العصور. و تشهد على ذلك التنقيبات الأثرية التي أجرتها فرقة آثار جامعة شيكاغو التي أكملت تنقيباتها في عام ١٩٦٠. و تدل التنقيبات في(برده بالكه) و كهف(هزارميرد) القريب من السليمانية، و الذي يعود إلى العهد الماوستيوي(٥)، و كهف(شانيدر) بقرب رواندوز، حيث إكتشفت فيها أول جمجمة من عهد الثاليوليثك في العراق، تدل على أن البلاد كانت مسكونة منذ آلاف السنين. إذ وجدت في هزارميرد بقايا لوجبات طعام إقتات عليها السكان القدماء، مؤلفة من عظام الأرانب و الغزلان و الماعز و الحمام و الدراج. و عثرت كذلك على كميات كبيرة من الأصداف و القواقع جمعت لأجل الطعام اليومي. و يوجد في وادي جمچمال آثار(چرمو) التي تعتبر أقدم قرية أثرية في الشرق الأوسط. و ربما كانت أحد المراكز التي زرع فيها الإنسان أنواعاً من القمح و الشعير و البازلاء و العدس و البقية. و أما زراعة الكتان فكانت شائعة منذ ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد. و سبق ذلك جني الفواكه و البندق و الزيتون و اللوز و الفستق. و سبق جني الأعناب و التين حتى الزراعة نفسها. و عرفت الحيوانات أيضاً، ولكن ظهر بأن تربية الأبقار و الخنازير لم تكن معروفة إلا بعد عام ٣٥٠٠ق.م. و ربيت الأغنام لأجل لحومها و أصوافها. و إما الماعز فكان معروفاً أربعة آلاف سنة قبل ذلك. و ظهرت آثار الكلاب، و لم تستعمل لأجل لحومها. و يظهر بأن الذئاب و الثعالب و جميع الحيوانات الأخرى من هذه الفصيلة لم تنجو من القدر المحتوم، فكانت تؤكل من قِبل هؤلاء الناس.

و توجد بقرب أكري(العقرة) في قرية طوندوك العراقية مغارة سميت من قِبل المسيحيين المحليين بكهف سانت جون(طوشاد مارجونا)، إكتشف فيها تمثال حفرت نقوشه على الصخور، ربما في عهد لم يكن المستوطنون على علم بالزراعة، و الحيونات الأليفة كانت نادرة أيضاً. و يمكن ملاحظة منظر للصيد فيه دلالات سحرية. و يذكر توفيق وهبي بصدد الصور المحفورة عليها بأنها تشبه النقوش التي تعود إلى ما قبل التأريخ و التي إكتشفت في كهوف فرنسا. و فضلاً عن ذلك فعبر مناطق كُردستان الممتدة من منطقة(آرمار) إلى حافات جبل جودي(حيث يعتقد بأن سفينة نوح قد رست عليه) يمكن مشاهدة نُصب تذكارية من النوع السايكلوثي(٦) الذي يعزى غالباً إلى أعمال العمالقة و الجن. و هنالك خرائب للقلاع المنصوبة فوق منحدرات تلك الصخور، تشهد على قدم عهد تلك المستوطنات. و ثمة معالم للآثار الأكدية في كركوك و في يوغان ياشي(نازو) و على جبل نيسر الذي يحتمل بأن يكون جبل پيرمگرون(٧) الحالي و الذي من المعتقد بأن سفينة كلكاميش قد رست عليه. و يوجد نصب تذكاري لأحد الملوك الأكديين، على لوحة ترجع إلى العام ألفين قبل الميلاد، صنع رمزاً لإنتصاره على ملك لولو في دربنديخان.

و(اللولو أو لولوبي) كانوا من سكنة جبال زاغروس، و يعتبرون من الأجداد القدماء للكُرد، مثل الكوتيين الذين سكنوا الجبال في شرق الزاب الأسفل قرب نهر ديالى. و كان سرجون الأكدي يعمل في ذلك الوقت جاهداً للدفاع عن نفسه و حماية مملكته من خطر تدخل هؤلاء الأقوام المنهمكين في قيادة أعمال النهب و السلب ضده، و ذلك بحشودهم الغفيرة التي كانت النساء تقودها أحياناً. و إستطاع النفوذ إلى داخل مملكة بابل الكاسيون الذين قاموا بمنافسة أبناء حامورابي بأساليب سلمية بعد إنتصار الأخير عليهم. فأخذوا يعملون كسائي خيول هناك. و في القرن السابع قبل الميلاد، بعد أن وصلت فِرَق من قواتهم إستطاعوا إحتلال المنطقة التي تسمى اليوم بلورستان. كان هؤلاء الغزاة رجالاً أقوياء يتسمون بشجاعة نادرة، و إتخذوا من الحصان الذي جلبوه معهم رمزاً مقدساً. كانوا يدعون كبير آلهتهم بسورياش أي الشمس. و كان زعماؤهم ينتمون إلى الميتانيين الذين زوجوا بناتهم للفراعنة حوالي عام ١٤٥٠ق.م. و في لورستان هذه، تم العثور في داخل قبور برنزية على أوان ثلاثية القاعدة، من المعتقد أنها جلبت إلى هناك من قِبل الكاسيتيين. و قد يكون هؤلاء الكاسيتيين، الذين قضى عليهم ملوك إيلام و أفناهم نهائياً في القرن السابع قبل الميلاد، قد لعبوا دوراً في تكوين أصل الشعب

الكُردي. ذلك لأن الإعتقاد السائد أنهم كانوا ينتمون إلى القبائل الميدية. و بعد ذلك ظهر على مسرح الأحداث الآشوريون الذين إستمروا في تصادم دائم مع الميديين.

تعزى أسباب وجود الميديين، حسب ما يقول الكاتب الأرمني آرشاك سافرستيان في كتابه(الكُرد و كُردستان١٩٤٨) إلى خطأ إقترفه هيرودوتس، عندما ظهر إسمهم لأول مرة في التأريخ على مدونة منقوشة لتخليد ذكرى إنتصار سالما نزار الأول على تابعه الثائر يانكو، الأمير الكاسيتي في(حمرى) أي كُردستان الحالية. حارب تكلات فالازار الأول الميديين قبل الميلاد بحوالي مائة عام، و أجبرهم شمس أدد بعد ذلك على دفع الجزية، بينما شن أرد ـ هيواني الثالث، زوج سميراميس الأسطورية عدة حملات عليهم، بعد إنتهازه فرصة وجود الخلافات بين القبائل الميدية العديدة. فأسر منهم ستين ألفاً، سلبهم من المواشي و القطعان الكثيرة، لأنه إستطاع قيادة حملته الإحتلالية إلى قلب البلاد حيث الجبال النائية و الوديان السحيقة. و أجبر الأسرى على الإشتغال في المشاريع العمرانية السلمية لصالح الآشوريين. و بعد ذلك بخمسة عشر عاماً قام ساركون الثاني، الذي بنى خورساباد، بالإستيلاء على السامرة، و أسر قومها و جلبهم إلى ضفاف نهر خابور، أحد روافد الفرات، و كذلك إلى بلاد ميديا كما يذكر التوراة. و الجدير بالإهتمام هنا وجود القرى اليهودية الكثيرة في كُردستان. و إستطاع أسرحدون إخضاع ملوك ميديا الصغار الذين كانوا يتواردون إلى نينوى لغرض عرض بضائعهم من الأحجار الكريمة و من الخيول.

و ترك الآشوريون، خلال فترة نفوذهم إلى داخل كُردستان، معالماً لآثار عديدة، تشهد على تأثيرهم الشديد و مدى قوتهم. و يتبين ذلك من النقوش المحفورة على الصخور في(مالتاي) القريبة من دهوك و باتاس الواقعة بين مدينتي شقلاوة و رواندوز، و كذلك من آثار(دربندى رامكه) على نهر الزاب، المسلك الطبيعي للطريق بين نينوى و بلاد الفرس. و عدا ذلك، توجد آثار أخرى بأعداد كثيرة.

و لكن الميديين كانوا نشيطين في إلقاء النير الفارسي من على كواهلم. إذ بينما كان سنحاريب منشغلاً بتنظيم المقاطعات البابلية الخاضعة لأمرة أحد الرؤساء الصغار المدعو مانائين يكوكس، إستطاع الميديون، الذين كانوا لايزالون قبائل رحل تعيش في قرى بائسة، التكاتف و تنظيم صفوفهم. و تبعاً لما يرويه هيرودوتس، قرر أحد الرؤساء، و قد ذاع صيته بعدالته في حكم البلاد، أن يكف عن متابعة أمور أتباعه من بين الشعوب

على حساب شؤونه الخاصة، فظهرت آثار تلك السياسة السيئة بسرعة، فعمت حوادث النهب و السلب و السطو و المشاحنات، حتى آلت إلى فوضى دفع بالميديين إلى إنتخاب(ديكوس) رئيساً عوضاً عنه. فبدأ الرئيس الجديد يحيط نفسه بحراس أمناء و نقل عاصمته إلى همدان. فحكم على هذا المنوال زهاء ثلاثة و خمسين عاماً، إلى أن خلفه إبنه(فراوتس). فإنهمك الأخير في ضم الممالك الصغيرة المجاورة، و تم له الإنتصار حتى على تيسشس ملك(أنشان) أي بلاد الفرس. و لكن الآشوريون تحت قيادة اشوربانيبال إستطاعوا إيقافه عند حده، و يوجد قبره الآن في مغارة(أشكوتي كور و كج)، أي كهف الفتى و الفتاة، بجوار قرية جوارناغ. و ظهر إبنه كيراخارس من بعده كاحد الرجال البارزين في التأريخ و كقائد حربي ممتاز و إداري ماهر في أيام السلم حين قرر عوضاً عن تجنيد أفراد القبائل الذين كانوا يخوضون الحرب حسب أهوائهم و تكوين جيش منظم على غرار النظم و الأساليب الآشورية. فجهز كل فرد من جنوده بقوس و سيف و رمح أو رمحين، وأولى فرسانه عناية خاصة،ودربهم على رمي النبال. فكانوا يتظاهرون بالهرب من سوح القتال، ثم يعرجون فجأة للإنكباب على العدو، فيطلقون عليهم سهامهم بكثافة، بذلك ينشرون الرعب و الفزع بهجومهم الجارف كالسيل. فتنتشر الفوضى بين صفوفهم، و يدب الذعر بفعل(النار الميدية) التي عرفت بعد ذلك(بالنار الإغريقية). إذ كان الميديون يدهنون سهامهم بمزيج من الزيت و النفثا(النفط). فكان السهم المهيئ بهذا الشكل يشعل النار في الهدف الذي يصيبه، شريطة أن لا ينطلق بسرعة من القوس، لأن السرعة تطفئ نار السهم فتضعف فعاليته. و لم يكن الماء يجدي نفعاً في إطفاء نيرانه، لأن ذلك يشبه إلقاء الزيت على نار ليزيدها إشتعالاً. هكذا كان بترول كُردستان يخدم و يلعب دوره في الحروب أثناء العهود الغابرة.

إنتظمت بلاد الميديين في ثلاث مقاطعات واسعة وهي: ميديا الكبرى المسماة بالعراق العجمي حالياً، وميديا الأرتوباتيني، آذربيجان الحديثة، و ميديا راهجس، و هي النواحي المحيطة بطهران التي إستقرت فيها مستوطنات يهودية و يقودها الملك رفائيل طوبيا في عهد شبابه.

حاول كيراخاريس الإستيلاء على نينوى. و كان(النبي لاحوم) الذي يقع مزاره الآن على بعد ٣٢ ميلاً من قرية القوش، و الذي لايزال مقدساً عند أهالي المنطقة، شاهد عيان في تلك المعركة، عندما جرت على سفوح جبال كُردستان. فيصفها هذا النبي

بسحاب من الجراد المتكون من الكتل البشرية، و أتون من النار المشتعلة. و يقول حدث فجأةً أن جماعة من السيثانيين المغيرين قاموا بحركة إلتفافية حول الميديين، فأجبروا كيراخاريس على رفع الحصار عن نينوى و الإكتفاء فقط بالدفاع عن المناطق الواقعة في شمال بحيرة أورمية. و لكنه هزم هناك أيضاً، و عندما وجد نفسه في ذلك الوضع المتأزم، دعى ملك السيثانيين(ماديس) إلى وليمة مع ضباطه و سقاهم فيها خمراً. ثم أوقع فيهم السيف ذبحاً إلى أن أتى عليهم جميعاً. و تلك هي الإستراتيجية المتبعة مراراً و تكراراً. و بعد أن مات آشوربانيبال إلتحق كيراخارس بنيوثلاس حاكم بابل، فساعدته القوات الميدية الجبلية ليستولي على مدينة نينوى و من ثم يهدمها. و هكذا إندثرت الإمبراطورية الآشورية. و هذه الذكرى تعتبر اليوم في كُردستان تأريخاً لفاتحة العام الجديد عند الوطنيين. هُزم(استياج) و هو آخر ملك ميدي مستقل، على يد سايروس الكبير، الذي جعل حفيده همدان(أكتاباتا) عاصمة البلاد الإيرانية الموحدة. و على أثر إنتصار سايروس، إستهل في الواقع عهد جديد بالنسبة إلى الشعب الفارسي عندما وحدتهم مثالب الدهر مع الميديين(غريشمان).

و لنعرض الآن ما نعرفه عن الميدين باقتضاب بإتباع أبحاث(غريشمان). إذا إفترضنا بأن النظام السياسي للمملكة الميدية شبيه بالنظم الآشورية على وجه التقريب فلا توجد لدينا معلومات عن ثقافاتهم الذهنية أو المادية. أما في مجالي الفنون و الحِرَف، فكان الميديون كالكيشيين يمتلكون أذواقاً بديعة في تزيين أسلحتهم، و عدة خيولهم و صنع الأواني المعدنية الثمينة و الأثواب الملونة المزركشة. و يمكن التعرف على مظهر المواطنين الميديين في النقوش البارزة للآشوريين. فيظهر فيها رجال ملتحون ذوو شوارب يرتدون أزياء جلدية تتدلى على باقي ألبستهم المُحكمة على أجسادهم و ينتعلون جزماً عالية عند قيادة خيول الآشوريين من أسيادهم المنتصرين. و يمكن أيضاً تكوين فكرة عامة عنهم من الإطلاع على المعلومات المستحصلة من كنوز آثار(سقز) المليئة بنماذج من فنونهم، و الإمعان في المستقبل فيما إكتسبه الفاتحون من هذا الشعب الذي كان يمتلك ثقافة أعلى من الفاتحين أنفسهم. ولكن هناك نذر يسير من بقايا أعمالهم، كالأسد الهائل في همدان، و قد شوهت شكله عاديات الزمن. و هناك أيضاً قبور صخرية، منها قبر قرب(ساري پول) على الجهة الغربية لسلسلة جبال زاغروس، و آخر في(دكان داود) الشبيه بقبر في(ماهريكا) جنوبي بحيرة أورمية. و شيدت جميعها للأمراء على سفوح الجبال و تعتبر

الآن من الأضرحة المقدسة. و مما هو جدير بالذكر أن القبر الذي ورد ذكره أولاً، تزينه نقوش بارزة، تحمل مدلولات دينية في صورة شخص في يده(برسوم) أي حزمة من الأغصان تستعمل عادة في الإحتفالات الدينية.

البراهين اللغوية

تواجهنا حول مسالة اصل الكُرد نظريتان، حيث يعتقد مينورسكي الذي يؤيد نظرية الأصل الإيراني(إندو أوروبي) بأنهم قد نزحوا في القرن السابع عشر قبل الميلاد من المناطق المجاورة لبحيرة أورمية نحو(بوهتان). و النظرية الأخرى للأكاديمي السوفيتي(مار) الذي يؤكد الصفة الذاتية للكُرد مع إتصالهم بجماعات آسيوية أخرى كالكلدانيين و الجورجيين و الأرمن. و بناءاً على إسناد نظريته بالأسس و المعطيات التأريخية و اللغوية يقرر مينورسكي تصنيف الكُرد ضمن الأقوام الإيرانية بدون أن يعير أي إهتمام للتعقيدات المتمثلة في السلالات التي إندمج معها الكُرد.

و يذكر لنا هيرودوتس بأن الإمبراطورية الأخمينية إشتمل الجزء الثالث عشر منها بجانب ما إشتملت عليه من الأرمن، على مقاطعة(باتيوكي) التي تقارب اللفظة(بوهتان) الحالية. و كانت تقع في شرقها بلاد(كاردوك) أو (الكاردوخي) الذي يشير إليه زينوفون في العامين(٤٠٠ و ٤٠١ق.م.) عند إنسحابه بصحبة العشرة آلاف من قواته. و منذ ذلك الحين، أطلق هذا الإسم المستنبط من الأصل المذكور على البلاد الممتدة من الضفة اليسرى لنهر دجلة التي تقع قرب جبل جودي. و يؤشر الكُتاب التقليديون إلى المنطقة نفسها ب(گوردى كاردو)، بينما يسميها الأرمن ب(بيت كاردو). و يسمون مدينة جزيني ب(گازارتة كاردو). و يذكر الأرمن بلاداً بإسم(كوردوخ)، و هي ذات مساحة صغيرة.

يقول زينوفون بأن الكاردوكيين هؤلاء لم يكونوا يعترفون بسلطات الملك أرتاخرخس و لا يملك أرمينيا. ولكن حسب ما يقوله البروفسور سي أن ليمان هوب أن الكاردوكيين يحتمل أنهم لم يكونوا أجداداً للكُرد، بل أجداداً لـ(كارتوليان ـ الجورجيين). و هناك أيضاً ذكر لوجود العلاقات بين الكلدانيين و خالديي أوراتو، ولكن أوراتو لم يكن شعباً، بل كان إلآهاً. و زد على ذلك أن الجورجيين و الخالديين لم يكونوا يتكلمون اللغة الأندو أوربية

كالكُرد الحاليين. و لكن المسألة هذه لا يمكن الركون إليها كثيراً، كما يرتأي ذلك(مار). لأن الكُرد قد غيروا لغتهم.

و يرجع أصل الكُرد إلى(كيرتو أو كيرتيان) و هم الرعاة في أتروپاتينوس، ذكر هم لأول مرة(پوليبيوس) في عام ٢٢٠ق.م. بأنهم كانوا يعملون في جيش حاكم ميديا كرماة للأحجار، عندما كان يحارب أنتيوكس الثالث السلجوقي. و بعد ثلاثين سنة إستخدمهم أنتيوكس نفسه. و في عام ١٧١ ق.م. صاروا مرتزقة عند الملك ثيركامس. بعد ذلك بمدة قام تيكرانس الكبير ملك أرمينيا بأسر خمسة و ثلاثين ألف كُردي لتشغيلهم في شق الطرق و بناء الجسور و تنظيف الأنهار و قطع الغابات و أعمال أخرى عسكرية. و ذاعت شهرة سكان(كوردنيا) بكونهم معماريين ممتازين و مهندسين عسكريين ماهرين.

و مهما كان إدعاء علم إشتقاق الكلمات، فمينورسكي و مار، بالرغم من وصولهما إلى النتائج بإستنادهما الى معطيات متباينة، كلاهما يعتبران أن للميديين قسطاً في تكوين الشعب الكُردي، و يعرف الكُرد أيضاً بالـ(كرمانجي)، و هي عبارة مكونة من(كورد ـ مان ـ جي). إن الفقرة الأولى واضحة، و أما(جي) عبارة عن حرف إسناد دال على الأصل، و(مان) قد يكون متصلاً بإسم(ميد)،(ماتي) أو(ماتا). و الميديون فضلاً عن ذلك قد إختلطوا كثيراً بالمانيين أو المانايين الذين ظهروا في المنطقة أثناء القرن التاسع قبل الميلاد.

و ابان عهد الإستيلاء على نينوى في عام ٦١٢ق.م، كان م بين حلفاء الميديين حشود من قوم(ماندا) أو الـ(أومان ماندا)، كما إعتاد الآشوريون تسمية السيمريين و السيثيين. و يبين علماء اللغات إحتمال التشابه بين الكلمات: ماندا، ميدي، مانيان و ماتيان التي ذكرها سترابو، و الماتيون لهيرودوتس و مارتيان أو مارجيان للبطالة. و إضافة إلى ذلك، بعد أن إشتبك العشرة آلاف من جند زينوفون مع الكيزيتيين أو البوتانيين، هجمت عليهم مفرزة فارسية مؤلفة من الماردين و الأرمن. فكان الماردين يجاورون الكيرتانيين، و هم أحفاد المانيين. و يختتم مينورسكي بحثه بقوله(في ضوء الحقائق الجغرافية و التأريخية يحتمل كثيراً بأن الشعب الكُردي قد تألف من إلتحام قبيلتين متصلتين بأواصر القرابة، و هما الماردويي و الكيرتوي، و هما اللتان كانتا تتكلمان لهجتين ميديتين متقاربتين كثيراً. و أضف إلى ذلك، إنه من المؤكد أثناء زحفهم نحو الأقاليم الغربية إمتزج الكُرد بأجناس مختلفة من الأبناء الأصليين في تلك الأقاليم.

و أما نحن فلا نؤيد نظرية(مار) التي تشير إلى أن المستوطنين الأصليين من الكُرد قد نزحوا من المناطق الجبلية لآسيا الوسطى. و رغم العديد من المقارنات الحاذقة التي يقدمها بذكاء لا تبدو نظرية اللغوية المبنية على عملية التطور الإقتصادي و الصراع الطبقي مقنعة، حيث لا ترتبط بالدلائل المستوحاة منها. ولكن مينورسكي، على كل حال، يعترف بوجود الأواصر المتينة بين الكُرد و الميديين، و ذلك مما يعزز نظرياته.

إن لم يتوضح أصل الكُرد جيداً بالرغم من وجود الحجج اللغوية و البراهين التأريخية فمن الصعب لعلم الأجناس أن تقدم شواهد أكثر إقناعاً. عندما قام(كيثر ١٩٣١) بدراساته حول كُرد دمشق، بإعتبارهم قوماً يؤلفون أجناساً مختلطة، وجدهم يشكلون عرقاً منفصلاً. فيربط بإختصار بين ما توصل إليه(هاوس ١٨٨٦) في دراسته حول كُرد إيران، و دراسات(جانتر) التي قام بها بجمعه المقاييس لأجسام كُرد من تركيا و منطقة ايريڤان. فظهر له بأن الكُردي الشمالي رجل كبير الحجم طويل القامة(البدانة غير موجودة عند الكُرد) و ذو أنف طويل معكوف بشكل طويل غالباً و فمه صغير و وجهه بيضوي طويل. و يربي الرجال شوارباً طويلة و يزيلون لحاهم، و في سيماهم عزم و ثبات. و ثمة عدد كبير منهم شُقر البشرة ذوو عيون زرقاء، بحيث إن وضع طفل كُردي يحمل تلك الصفات مع أطفال من الإنكليز، لا يمكن التمييز بينهم. و تؤدي الملاحظات التي أبداها(سون ١٩١٢) إلى الإفتراض بأن الكُردي ليس من نوع فريد، فالواقع إن الأحوال تختلف حسب الإمعان في كُردي جبلي، أو رجل يعيش في السهول أو مدني أو رجل من القبائل الرحالة. و كذلك في من ينتمون إلى عشيرة أو من يجاورها من الأشخاص. فتكون الإختلافات ظاهرة للعيان، حيث يمكن مشاهدة النماذج العربية و اليهودية البابلية و النسطورية و التركمانية....إلخ و ذلك ما لاحظه مينورسكي. و أما الدراسات التي أجراها(هينري فيلد ١٩٥٢) على(٥٩٨) كُردياً في العراق، و خاصة بين أهالي زاخو و رواندوز و كركوك و السليمانية أدت الى نفس النتائج. و لكن فيلد إستعمل أساليب أكثر علمية، فوجد أن الكُردي ذو قامة متوسطة الإرتفاع(من خمسة إلى ستة أقدام) و بأن له جذع طويل نسبياً، فتصبح رجلاه على أثر ذلك قصيرتين و جبينه واسع و رأسه كبير مستدير. و تأكد بأن ربع الذين أجرى عليهم الإختبار كانوا ينتمون إلى جنس(يوروراين)، و الباقون كانوا من النوعين(ميزوراين و ليبتوراين)(٨) بالتساوي. فأنف لبتوراين يكون مستقيماً على الأغلب، و شعره مجعداً ناعماً نسبياً، و ذا لون بني

غامق عادةً. و تكون العيون سوداء. و هناك بين الكُرد أفراد من ذوي العيون الزرقاء و الشعر الأشقر أيضاً، خاصةً في الأقسام الغربية. و بشرة الكُرد أفتح لوناً من بشرة العرب، و لكن ليست بنعومة الآثوريين. و نرى تناسقاً في الأسنان. و أخضع الهيكل العظمي للدراسة كذلك فتبين أنه جيد كجودة صحة أبدانهم. و إستطاع هنري فيلد بنتيجة ملاحظاته الدقيقة، و تدقيق الصور لأشخاص خضعوا للدراسة أن يميز بين مجموعات عرقية مختلفة مثل العرق الأرمني و البالقاني و الأناضولي و الألبي و عرق البحر الأبيض.

و لكن بالرغم من وجود تلك الإختلافات الناتجة من الإختلاطات العرقية الكثيرة خلال أحقاب طويلة، فالكُرد قائمون كشعب، يتمتعون بذاتية متميزة. فهم إن لم يكونوا مثل أكثر الشعوب من جنس نقي، إن لم نقل جميعها، لاشك بأنهم يشكلون عرقاً جماعياً بارزاً. و يملكون شعوراً واعياً ليحدد شخصية منفردة تخص الكُرد بحد ذاتهم.

الفصل الثالث

الحياة بين الكُرد

الحياة بين الكُرد

الرحل و المستوطنون:

من الضروري عند دراسة أحوال الكُرد التفريق بين الرحل من القبائل و المستوطنين المستقرين في ديارهم، لأن هذه الحقيقة تشكل مميزات بارزة بينهما. و يتألف المستوطنون من الفلاحين و أهالي المدن.

لا يشبه الكُرد الرحل(كۆچەر) أعراب البدو إلا قليلاً، لأنهم يعيشون في أعالي الجبال، ليس كالبدو في السهول و الأراضي المنبسطة أو الصحاري. و تنحصر مصادر رزقهم الرئيسية في تربية الحيوانات كالماعز و الخرفان و الجواميس و أحياناً الخيول. و لايملكون الجمال إلا نادراً. و للرحل عدد غير قليل في الهضبة التركية الأرمنية، و التخوم العالية في(كوره) و هي المناطق الشاهقة حول الأنهار مثل آراس و مرادصو و الفرات. و يتواجدون كذلك عند حوض بحيرة وان و المنحدرات الجنوبية لسلسلة جبال طوروس. و لقد فقد الرحل الكُرد صفاتهم الأصيلة النقية بصورة نهائية تقريباً، فأصبحوا في الوقت الحاضر من أشباه الرحل، لأن معظمهم يملكون الآن مساكن ثابتة في السهول أو الوديان، يفدون إليها راجعين أثناء فصل الشتاء. و أما الحكومات فقد جاهدت كل ما في وسعها لتقليل عملية الترحال قدر المستطاع، و لكن لم تحالفها النجاح دائماً، حيث نجد في العراق كثيراً من الجماعات الرحل الذين ينتمون إلى مختلف القبائل كالبلباس في لواء السليمانية و الهركيين في لواء أربيل و السورجيين في لواء الموصل. و ظلت قبائل إيران في أكثر المناطق شبه مرتحلة و مستقرة في حالات أخرى. و لازالو محتفظين بنظامهم القبلي في بعض الأوجه لحد الآن. و تختلف هجرة القبائل مع القطعان في المسافات التي تقطعها و مداها و كذلك في إشتراك أفراد القبيلة فيها كمجموعة واحدة أو أكثر. و ثمة أحوال كثيرة يتأخر فيها الأفراد عن الركب و يبقون في المؤخرة التي يسمونها(قوشلاغ) أي المأوى الشتوي، و ذلك أثناء هجرتهم إلى(يايلك) أو المواقع الصيفية(لامبيون).

و أما المستوطنون المستقرون(ديماني) كما يدل عليهم إسمهم، لعلهم كانوا من القبائل الرحل سابقاً و لكنهم مكثوا في السهول لأسباب إقتصادية أو سياسية أو صحية. و هؤلاء يدعون(باميرى) أو(كاميرى) أي الذين مات آباؤهم أو ثيرانهم. و ذلك يفسر سبب وجود عدد كبير من أفراد بعض القبائل يسكنون الجبال، و قسم آخر منهم يسكنون السهول. و علينا التمييز بين السكان الأصليين و جماعة أخرى معروفة بـ(رمعيـهت)، و هم يتألفون من المسلمين أو المسيحيين الذين هزموا في معاركهم مع قبائل أخرى فأسروا، و أصبحوا يدفعون الأتاوات، و يقومون قسراً بأعمال شاقة. و يقول أدموندز عن ذلك بأنهم يسمون في العراق ب(مسكين) أو (طوراني)، و ذلك للتمييز بينهم و بين الكُرد الأشراف الذين ينتمون إلى أصول عشائرية. و ينبغي أن كان لنا ذلك، إضافة صنف آخر إلى طبقة الفلاحين من القدماء، و هم كُرد المزارع الجماعية(كولغوزات) في الإتحاد السوفيتي. و ثمة صنف آخر، و هم المستوطنون من سكان المدن، قطعوا جميع أواصر صلاتهم مع أصول العشائر، فسكنوا المدن الصغيرة التي نمت أعدادها و أصبحت لها أهمية بالغة خلال الخمسين سنة من الفترات السابقة.

مساكن الكُرد

تعيش القبائل الرحالة داخل خيم(كون) أو (رىَ مال) التي تكون عادة ناصية ترتكز على الأرض بإسنادها ثم ربطها بحبال قصيرة، فتختلف بذلك إلى حد كبير عن الخيام العربية. و نسيجها من خيوط سوداء تصنع من شعر الماعز. و تختلف الأعمدة في عددها كذلك حسب أفراد العائلة. تتميز الخيمة الكُردية في رأي سي جي فيلبيرغ بالصفات التالية: لها سطوح واسعة تتدلى على الأطراف و النهايتين المثلثيتين. و أما الدعامات و أوتار الربط فهي غير معروفة على الإطلاق، و لا وجود لأي وتد علوي، فلا نراه إلا في خيم بعض القبائل الشرقية. و ينقسم السطح إلى أجزاء متعددة(في بعض الأحوال)، و تربط بواسطة عقد و عروات و قضبان قصيرة. و التنظيم الداخلي يكون بسيطاً، فتفرش الأرضية بالحصران و السجاجيد. و توضع حواجز من الحصير(چيغ) لتفصل النساء عن غرفة الإستقبال المخصصة للرجال. و هناك حفرة في الوسط تستعمل موقداً للنار و لغلي

القهوة. و أما خيم الرؤساء فتكون مجهزة بالسجاد السميك و الطنافس الناعمة، فتصبح مريحة و خاصة بعد تزويدها بالكماليات و أسباب الترف.

و أما البيوت في القرى(خانه) فتكون بدائية جداً، حيث يتألف أبسطها من غرفة كبيرة مقسمة إلى قسمين في الوسط، يخصص أحدهما للحيوانات(أخور) و الآخر إلى افراد العائلة. و يحيط عادة بالبناء فناء مسور. و هناك على جانب البناية، قسم آخر يتكون من بنيان خفيف يستعمل كمخزن للأخشاب و حاجات البيت. و تدفن مخازن الحبوب في حفر عميقة خارج المنزل على بقعة أرض مكسوة بالطين بعد أن تغطى بالتراب و الحجر. و تبنى البيوت في السهول من اللبن المجفف تحت أشعة الشمس، بعد أن تجبله النساء من الطين و التبن المفروم. و تكون الأرضية مصقولة بطين مضغوط. و يكون مكان الموقد(تندور) عادة في وسط الغرفة على شكل أمفورا(قارورة) واسعة تغرس قاعدتها في الأرض. و يكون رمزاً مقدساً للعائلة. فيوضع عليه أثناء الشتاء كرسي مصنوع من إطار خشبي لتجلس حوله جميع أفراد العائلة يتبادلون الحديث حتى يحل وقت النوم. و على طرفي الباب بموازاة الجدران يوجد نوع من المقاعد الركامية بنيت من التراب المضغوط، تسمى(ديكان)، يفرش عليها اللباد فتستعمل كمصاطب للجلوس.

و لا توجد في مثل هذه البيوت عادة نوافذ و حتى مداخن، بل يمكن مشاهدة كوتان أو ثلاثة في أعلى الجدران، لذلك نرى السقف الواطئ المسطح قد سوده الدخان المنبعث من الموقد. و يصنع السقف عادة من العوارض الخشبية لجذوع أشجار الحور، و تفرش عليه طبقة من الأغصان و أوراق الأشجار فتؤول إلى ملجأ أمين للعقارب و الأفاعي. و كل ذلك يغطى بطبقة من تراب سميك. و نرى فوق مثل هذه السطوح حجراً مدوراً لدك التراب في الأيام الرطبة الممطرة. و يعيش الكُرد الجبليون أحياناً في الكهوف، و لكن هذا غير شائع. و عندما يُتخذ الكهف سكناً عندئذ يجري ترتيبه بشكل مريح. و أما البيوت نفسها فتشيد بوضع خاص، في شكل طبقات متراصة على بعضها، بذلك يصبح سطح أحد البيوت شرفة للبيت الذي يعلوه. و تبنى جدران مثل هذه البيوت من الحجر. و ثمة مظاهر أخرى لبيوت الكُرد نشاهد فيها شرفات مسقفة تسندها دعائم متوجهة نحو الغرب. و لا حاجة للقول بأن العيش في الهواء الطلق بالنسبة للفلاح المعدم في بيته على ضفاف جدول يعتبر من المستلزمات الضرورية لحفظ صحته.

و في المدن تكون البيوت أكثر سعة و راحة بالطبع، حيث هناك طابق علوي يحتوي على الغرف المخصصة للضيوف عندما كان الشيوخ و السادة الأشراف يعيشون سابقاً داخل قصور محصنة شيدت على تلال مرتفعة ليطّلعوا من هناك على منظر البلاد المحيط بهم، و لكن الآن يسكنون في قصور فخمة مجهزة بأفخر الأثاث و السجاجيد النفيسة في المدن التي يعيشون فيها.

و يندر في القرى وجود الأثاث عدا قليل من الوسائد و الفرش. و تغطى الأرضية باللباد. و نشاهد على الأغلب صندوقاً خشبياً كبيراً صبغ بألوان زاهية لتضع فيه الزوجة جهازها و ألبستها. و في الأوساط الغنية داخل المدن نرى السجاجيد الفاخرة و الأسِرَّة الحديدية و الأرائك و الطاولات و الدواليب المزينة بالمرايا.

و تتحدد الأوعية و الأواني البيتية بما هو ضروري للحاجة كالصواني الكبيرة لوضع الطعام، و طنجرين إثنين و مِقلاة و مغرفة و مقشدة أو مرغاة، و صحون نحاسية و صحائف و مواعين و جرات و عدة أباريق و ملاعق و سكاكين. و هناك بقربة من النار بضعة ملاقط للنار و منفحة و سماور في بعض الأحيان. و على مسافة قريبة توجد قربة مصنوعة من جلد الماعز مع عدد من المناخل و المصافي. و ينبعث الضوء من مصباح زيتي، يكون على الأغلب فانوساً أو مصباح يعمل بالهواء المضغوط. و هناك في زاوية معينة على الأرض مكنسة صنعت من الفنن و الأغصان. و أما المصابيح الكهربائية فتوجد في قليل من المدن.

الواجبات و الأعمال اليومية

تربي القبائل الرحالة المواشي، و يفضل الكُردي حياة الرعي لأن خلو البال من المشاغل و الهموم يتيح له السيطرة على كل ما يحيط به من الطبيعة، و لاشك بأن البراري المملوءة بالمخاطر تزيده شجاعة و إقداما، إن لم تساهم في تطوير ملكاته العقلية.(إذا أردت أن تربي إبنك كرجل فأجعله راعياً، و لكن ليرجع مبكراً قبل أن تنقلب السماء إلى دهماء). لاريب أن مثل هذه البساطة و خلو الفكر من المنغصات يدفع بالكُردي إلى حبه الشديد للإستقلال. و علينا أن لا نتعجب من مقته الشديد للنظم و كرهه لكل تجاوز على حريته عندما يعيش في مثل هذا المحيط.

بينما يصبح الرجل خبيراً في كل ما يتعلق بتربية الحيوانات و جز الأغنام، يبقى للمرأة كل ما له صلة بحلب الأبقار و النعاج و إنتاج الزبدة و الجبن. فتنهمك النساء في صنع الزبدة بغليهن اللبن(الحليب) في قدور كبيرة(قازان). ثم يضفن إليه ملعقة مملوءة باللبن الحامض و يتركنه يوماً واحداً ليتخمر. و في المرحلة التالية، يفرغ اللبن في قرب(مه شكه) معلقة على حوامل ثلاثية القوائم. و عندئذ تتقدم إمرأتان لرج كل قربة و خضها. فيمكن جرف الزبدة منها للحفظ و التمليح. و أما البقايا(دؤ) فتستعمل لصنع الجبن الأبيض الذي يملح أو يطعم بنكهة من الأعشاب المعطرة. و عندما يتصلب الجبن يوضع في أكياس من القماش و توضع عليها الأثقال. و يعطى ما يبقى من المصل الى العجول لإطعامها. و يمكن وضع الجبن في أكياس من الجلد أيضاً. يشكل الجبن الأبيض طعاماً رئيسياً عند الكُرد. و يمكن صنعه أيضاً بطريقة أخرى أقل بدائية. ففي مثل هذه الحالة، تضع النسوة الحليب الطازج في قدور من غير تقشير الدهن عنه. و عندئذ يغلينه ثم يخمرنه بواسطة(مشيمة) بعد أن تغسل جيداً و تجفف و تقطع إلى حلقات صغيرة. و تتم عملية التخثر سريعاً، و يتجلط الحليب خلال خمسة عشر إلى عشرين دقيقة. ثم يفرغ في أكياس صغيرة من القماش وتربط و توضع على حجر من البلاط الأملس. و تستعمل لضغطه صخرة كبيرة، فيخرج الجبن المضغوط من الأكياس على شكل إسطوانات مسطحة ملساء تجفف بعرضها للهواء في الخارج.

و في الريف يحرث الفلاحون الحقول و يبذرون القمح و الشعير و الرز. و تجري عملية الحرث بإستعمال محراث بدائي يتألف من الشفرة و الركيزة المصنوعة من جذوع الأشجار. و قلما يخترق هذا المحراث التربة جيداً. و يمكن تفكيكه ووضعه على الكتف. و أما عملية نثر البذور فهي بسيطة جداً، أي عبارة عن مجرد نشر حباتها. و يشترك الجميع في فصل جمع المحاصيل في عملية الحصاد كواجب. فيقفون في صف مستقيم ثم يشرعون في الغناء. و للحصاد يستعمل الفأس مع أصابع الحاصد التي تركب عليها غمد معدنية. و عندما ينتهي قطع الحنطة، توضع في مدخل القرية على أرضية من الطين المضغوط. و يشرع في درسها بلوح خشبي ثخين تلتصق بوجهه من الداخل أحجار الصوان أو قطع صغيرة من الحديد. و آلة الدرس يسحبها ثور أو حمار فتكون مبعثاً لسرور الأطفال عندما تدور بهم ساعات طوال و هم على متنها و التراب يتناثر من حولهم تحت وطأة الشمس الحارقة على هذه الآلة المبدعة. حينذاك يفرق القمح من العصافة بوساطة مذراة خشبية. و أخيراً

يجمع في داخل المنزل و يوضع في أوان فخارية يبلغ إرتفاع الواحدة منها حوالي ياردتين و ثمان بوصات. و طول محيطها ياردة واحدة و أربع بوصات. و تزين هذه الأواني الضخمة بطبعات من الأيدي و بالرسوم التي تنقش حولها من صلصال محمص بالنار، و ذلك وقاية من الأعين الشريرة، و أما التبن(كا) فيقطع و يخزن مع أكوام القش داخل المتبن(كادان) كعلف للحيوانات. و أحياناً يخلط باللبن لتقويته عند إستعماله في البناء.

و الكُرد أيضاً مزارعون ماهرون يبنون في الجبال، كما يفعل أهالي جبل لبنان، شرفات بديعة ببداعة تحوي جدراناً واقية، تملأ بالتربة و تسقى بالماء لزراعة الذرة و الدخن و القنب و ذلك لعدم كفاية الأراضي الزراعية. و تتوفر الخضروات بأنواعها المتعددة. و تنمو أحياناً أشجار الفواكه تلقائياً، و لكن أشجار التفاح و الكمثري و الخوخ و التين و المشمش و التوت و الرمان تزرع جميعها بإعتناء في بساتين واسعة مترامية الأطراف. و الكُردي خبير ممتاز في زراعة الكروم و يفضل الأنواع الجيدة منها للنمو و جني الأعناب التي لاحظت وجود عشرات الأصناف منها للأكل طبعاً و هي طرية. و لكنها تجفف أيضاً لصنع الزبيب الذي يفيد في فصل الشتاء كغذاء جيد. و يصنع منه الدبس و نوع من الكعك(باسوق ـ المترجم). و أما صنع الشراب فهو مخصص للمسيحيين الذين يستعملون الزبيب لإنتاجه، و منه أيضاً يستقطرون ماء الحياة(العرق). و التبغ محصول يدر أموالاً كثيرة حيث نجد طلباً كثيراً على السكائر المصنوعة في السليمانية. و يتم إرواء البساتين و حقول الرز بقنوات صغيرة تأتي مباشرة من الينابيع الموجودة في القرية. و يستقى الماء في بعض الأنحاء من النهر بإستعمال النواعير. و يجدر بالذكر في هذه المناسبة بأن أول من إستحدث زراعة القطن في سوريا كان أميراً كردياً عاش في القرن العاشر.

و يجمع الكُردي العفص من الجبال و يصدره لإستعماله في الدباغة. و يجمع أيضاً الصمغ و المن(گەزۆ) لصناعة الحلوى الطبيعية. و حيثما تنمو كثافة الغابات تنظم الفرق لقطعها، فتكوم أشجارها في أتون لصنع الفحم الذي لا غنى عنه في إستعمال المناقل لتدفئة الأقدام، و المواقد الأخرى الكثيرة المشتعلة على الدوام في فصل الشتاء.

و يأتي الكُرد إلى المدن النائية للتفتيش عن العمل و هذا يعني الإشتغال غالباً كحمالين أو في المهن التي لا تحتاج إلى مهارة. و تراهم في إستنبول على البنايات لوضع الطابوق و القيام بالأعمال الأخرى في البناء. و يحصلون أيضاً على وظيفة الحراسة في

البيوت و المحلات التجارية لإخلاصهم و ثقة الناس بهم.و يتخذ المواطنون في مدن كُردستان الصغيرة مهنة التجارة، فيجهزون أصحاب الدكاكين الصغيرة و أفراد القبائل و الفلاحين بالمواد الأولية و المواد العادية التي يحتاجون إليها. و ثمة تجار للجملة و المتعاملون في بيع المواشي و شرائها، و كذلك باعة الجبن و الزبدة، و كذلك الذين يشترون الصوف و العصف و أنواعاً من الجلد لتجهيز المدن الكبيرة و الأقطار المجاورة. فالمتعاملون في تجارة الأبقار و قصابو مدينة إستنبول هم من الكُرد بصورة عامة. و هناك عدد كبير في بيروت يشتغلون في أسواق الخضروات و دكاكين القصابة. و يسهل التعرف عليهم من أغطية رؤوسهم المصنوعة من الوبر و هم وراء عرباتهم اليدوية التي يدفعونها داخل الحارات في مدن كثيرة. و ترى منهم من أصبح من أصحاب المخازن. و يجب أن لا ننسى قدرة الحمالين الفائقة في حمل الدواليب المزينة بالمرايا الجميلة أو الثلاجات عندما يضعونها على ظهورهم بكل سهولة، فينطبق عند ذاك التعبير(قوي كالتركي) على هؤلاء الكُرد، لأن لاشك بأن أكثرية الكُرد تعيش في تركيا.

و تطور الكُرد في العراق و أصبحوا عمالاً ماهرين يشتغلون في مشروع سد دوكان و في منشآت البترول في كركوك. و يضيف الكُرد في المدن إلى عدد الأطباء و عدد المحامين فيزيدون في أعدادهم بشكل كبير لايمكن تصوره. و هناك منهم الضباط ممن يملكون قابليات عظيمة من بين أهالي السليمانية و المدن الأخرى في كُردستان. و هكذا، فالكُرد الذين يشغلون المناصب الرفيعة في الجيش و الإدارات المدنية، أو الذين يتبوؤن الكراسي الوزارية يبرزون دائماً لفرط ذكائهم و قابلياتهم و إخلاصهم. و قد يكون من الأهمية بمكان أن نذكر بأن هناك في تركيا عدد كبير من الصحفيين من ذوي الشهرة ينتمون إلى الشعب الكُردي.

و تستحق حياة كُرد أرمينيا دراسة منفصلة حيث كانت الأكثرية الساحقة هناك تعتنق المسيحية و تحول الكُرد المتهنين لرعي الحيوانات إلى عمال بسطاء مثل الحمالين و الكناسين الذين يشتغلون في مدينتي بتليس و إيريڤان. و الواقع أنهم كانوا يعملون في أوطأ الأشغال لأصناف الوظائف ذات الشأن القليل و لكن إستقر جميعهم بعد ذلك و أصبحوا أعضاءاً في المزارع الجماعية(كولغوزات). و يشيد أحد العمال السابقين في كتاب نشره عام ١٩٥٧ بالتقدم الذي أحرز بنتيجة إتباع الأساليب العصرية في نهج حياتهم بصورة عامة. و لايمكن إنكار ما حصل من التقدم في جميع الأوجه، سواءاً أكان في طراز

البناء أو في نظم الحياة اليومية، فترى الأحياء القديمة المغمورة قد إندثرت و لم يبق لها أثر. و ظهرت في مكانها البيوت الجميلة التي شيدت من الأحجار البديعة تنورها أضواء المصابيح الكهربائية، و إستبدل الأثاث، فأصبح الفلاح لا ينام على الخرق البالية و اللباد العفن، بل على بُسط من الوبر و يتغطى بالصوف و يستعمل الفراش النفيس و الشمال و السجاجيد. و ترى اليوم في المنزل الكُردي جهاز الراديو و أسِرَّة مصنوعة من النيكل و الدواليب التي تحتوي على الجرات و الساعات المعلقة على الجدران. و لكن الممتلكات تعود إلى المجتمع. و عوضاً عن إستعمال المحراث القديم و العربات الزراعية العتيقة، تحرث الحقول في المزارع الجماعية بالمحارث الآلية، و تحصد بالحاصدات المركبة. فتبدل كلياً جميع نماذج الحياة نتيجة التغيير الحاصل في الأساليب القديمة و النظام المتبع في المزارع الجماعية لتربية الحيوانات بالطرق العلمية. فنرى في أرمينيا السوفيتية قرية(رالكيس) النموذجية و قد أصبحت مثالاً للتقدم العصري، حيث أسست فيها مزرعة تعاونية(كيروف)، تم تدشينها عام ١٩٢٩ تتألف من مائة منزل تقريباً، يسكن فيها(٣٥٠) شخصاً ثلاثون منهم أعضاء في الحزب. و يوجد في القرية معمل لمنتجات الألبان و ناد و مدرسة ثانوية و أربع مكتبات عامة و مستشفى يحتوي على خمسة عشر سريراً. و يوجد من بين الأطباء طبيب كُردي. و تملك القرية(١٥٠٠) رأساً من الغنم و (٤٠٠) بقرة. و تغطي الأراضي المزروعة مساحة(٦٠٠) هكتار، (٥٠٠)منها مخصصة للمحاصيل و(١٠٠) لرعي الحيوانات. و فيها ثلاث جرارات و حاصدتان و ثلاث شاحنات. فيمكن مقارنة البون الشاسع بين هذه الأوضاع و بين الحالة الإجتماعية و المادية التي إعتاد الكُرد أن يعيشوا فيها سابقاً.

والمرأة الكُردية تقف على قدميها منذ الخامسة صباحاً حتى الحادية عشر ليلاً، و على كاهلها تقع مشقة إدارة الأعمال البيتية المتنوعة، فهي بالإضافة إلى سهرها المتواصل على النعاج و صنع الجبن و الزبد، كما ذكرناه سابقاً، مسؤولة عن إعداد الخبز بتهيئة الطحين و عجنه و إضافة الملح إليه دون أن تضع فيه أي خميرة. ثم تدعكه على حجر مسطح، و تلصقه في داخل تنور يكون على شكل خابية(برطمان) فخارية أو على لوح معدني محدب مصنوع من حديد(صاج). هذا إن أرادت صنع خبز الرقاق. و عند إتمام العملية تحفظ أقراص الخبز في داخل سلة مدورة كبيرة. و تقع على المرأة أيضاً مشقة جلب الماء من ينبوع بعيد على مسافة نصف ساعة مشياً على الأقدام. و عليها أيضاً واجب

آخر و هو الحصول على الخشب و المواد الأخرى التي تستعمل بمثابة محروقات، فتجمع الأغصان الجافة أو تدعك براز الحيوانات من الحلة أو الروث و تسكبه على شكل قوالب تضعها على سطح البيت لتجف تحت الشمس. و ضمن واجبات المرأة أيضاً هو بالطبع إعداد الطعام. و الأكلة المفضلة هي الرز(تمن) عند الأغنياء و القمح المهروس(ساوەر) لبقية عباد الله. و يمكن إعداد الطبخ من الخضراوات مثل الباذنجان و الطماطة و غيرها في مواسمها. و إحتفاءاً بالضيف يشوى أحياناً حمل على السيخ، فينبعث منه أريج رائحة لطيفة. و بالإضافة إلى ذلك توجد الفواكه، منها الأعناب بصورة خاصة و كذلك البطيخ الذي يقشر و يقطع إلى أجزاء صغيرة. و لأجل الشرب هناك الماء طبعاً، و الشاي المملوء بالسكر الكثير الذي يقدم بالأكواب الصغيرة واحداً تلو الآخر. و يأتي بعد ذلك اللبن(ماست) و بالأخص(دۆ) الشراب المنعش للغاية.

الفنون و الأعمال اليدويّة

تقوم النساء في جميع أنحاء كُردستان تقريباً بالغزل أثناء تجوالهن هنا و هناك. و ما أن يكملن أعمالهن داخل البيت حتى يبدأ المغزل بالدوران في أيديهن بمهارة. و البعض منهن يقمن بالحياكة على النول التي يوجد منها نوعان. و يتألف المنوال(آلة النسج) من نوع عمودي و هو الشبيه بالپينيلوب الإنكليزي. و يوضع عادة في مخزن الأغذية و الحاجات البيتية. و يحتوي على عمودين(كيليكه) يبتعدان عن بعضهما مسافة باردة و ثلاثة أرباع. و أما عملية لف الخيط أو لويه فتقوم بها النسوة في فناء البيت. و ليس هناك في هذا النظام المكوك(وشيعة) لحبك الخيوط أو تشبيكها مع اللُحمة(الخيوط العريضة في النسيج)، بل إنما إبرة خشبية. و يستعمل هذا النموذج في صنع الشراشف التي تنسج خيوطها العريضة من الصوف و الباقي من وبر الماعز.

و النول الأفقي هو النوع الذي يدار بالرجل. و يوضع على الأرض ثم يضع الحائك رجليه في فجوة محفورة في القاع. و هذا أكثر تعقيداً من النوع الذي ذكرناه حيث يستعمل فيه أمشاط(شه ن) من مختلف النوعيات الدقيقة، و يتم مد اللحمة إلى السدات(خيوط النسيج طولاً) بواسطة المكوك الذي يحمل بكرة حديدية(لووله) يلف عليها الخيط الصوفي. و يمكن حياكة الخيش(قماش الوبر)(كترارة) بواسطة هذا الحائك مع أقمشة أخرى من

مواد خشنة ترش بمحلول من الكلس في هذه الحالة. و تتنوع التصاميم بألوان زاهية براقة. و تشتمل أطرزة الزينة على الحيوانات و الأشجار المرسومة في تباين ظاهر على أشكال القماش غالباً. و تشتهر سجادة الصلاة المصنوعة في مدينة(سنه) الإيرانية بجودتها.

و يصنع بعض المتخصصين المزهريات من الصلصال دون صقلها. و سبك الأواني و القناني اللولبية من الطين من غير إستعمال العجلات الدوارة. و توضع مثل هذه الأنواع تحت الشمس لتجفيفها أولاً ثم يتم ترتيب عدد منها على شكل حلقة، تغطى بقوالب من الروث، و يكمل تحميصها بعدئذ في داخل فرن ليبقى فيه مدة ثلاث ساعات.

إذا كانت الحرف فيما مضى منحصرة في أيدي اليهود و الأرمن حسب الظروف آنذاك، فالأحوال قد تبدلت الآن منذ إختفاء الأرمن عن كُردستان. و أما اليهود، فقد غادروا العراق في عام ١٩٤٨. فأصبح الكُرد منذ ذلك الحين، يصنعون اللباد بأنفسهم و يستعملونه، ليس من أجل تغطية الأرض فحسب، بل لخياطة الصدريات و أغطية الرؤوس تحت العمائم. و لا يجهل الكُرد مهنة الصناعات الجلدية و المعدنية و الخشبية كذلك. فهناك السراجون الممتازون، و صاغة الذهب و الفضة الماهرون في فن تزيين أغماد الخناجر و مشابك الأحزمة. و يصنع الكُرد الأقداح و الكؤوس و النراجيل أيضاً. و الجدير بالذكر أن حفر النحاس فن من المهارات الكُردية البالغة في القدم، وصل إلى أوروبا من الشرق بفضل الأساتذة الحرفيين و أسسوا في البندقية مصانع خاصة لهذه الحرفة. و يمكن مشاهدة توقيع بإسم(محمد الكُردي) على قطعة صنعت في القرن الخامس عشر هناك. وإستطاع نفر مكون من(١٥٠) خبيراً في مدينة السليمانية، قبل زمن ليس ببعيد، صنع البنادق من النوع المارتيني لتسليح العشائر على جانبي الحدود العراقية الإيرانية. و هناك كُرد يستغلون أوقات فراغهم أثناء فصل الشتاء في صنع القوالب من أجل سبك الغليون و ماسكات السجائر، بينما يقوم الآخرون بحفر الملاعق من جذوع أشجار الكرز البرية.

الفصل الرابع

النظام الإجتماعي

النظام الإجتماعي

إن الكُرد الذين وجدناهم يعيشون كرعاة في المراعي الجبلية و كفلاحين في القرى يدأبون على أعمالهم بجد و يشتغلون كعمال ماهرين في المدن بكل عزم و ثبات نراهم جميعاً ميالين إلى الإتحاد و الإتصال ببعضهم بالوشائج المتينة التي من أبرزها الصلات العشائرية. إن هذا النظام الراسخ منذ القِدم و النافذ إلى عمق الحياة بين القبائل المرتحلة و أشباهها يميل إلى التشتت و التفكك ثم الفناء بنتيجة الضغط من قِبل الحكومتين السوفيتية و التركية، أو لسبب آخر و هو حتمية حصول التغييرات التي لا يمكن إعاقتها حينما تتبدل الحياة إلى نمط عصري، و لا يمكن فهم معظم التطورات الحاصلة في العصر الحديث إلا ضمن إطار هذا المضمون، إذ ليست الإنتفاضة الكُردية الحاضرة إلا تعبير منطقياً لذلك المفهوم بشكل واضح ومثير.

العشائر الكُردية

من الصعب للغاية تعداد جميع العشائر الكُردية، لذا نشير فقط إلى التي كان لها دور في مجريات الأحداث، و التي لاتزال تتمتع بقسط من الشهرة. فتوجد في العراق عشائر بشدر و آكو و خوشناو و هموند و هركي و زيَباري، و في إيران، شكاك و بلباس و موكري و أردلان و جاف وكلهور، ناهيك عن لور و بختياري اللتين لا يعتبرهما البعض من أصل كُردي. و توجد في تركيا عشائر حكاري و هرتوش و زريكان و جبلي و حيدران، و في سوريا برازي و ميلي و ميران و داكوري و هاظريكان و مرسيني و كيكاني. و لا يعتبر البابان في العراق و البدرخانيون في تركيا عشيرتين بالمعنى الصحيح للكلمة، بل إنهما يشكلان عوائل من الأمراء الذين حكموا عشائر عديدة في مناطقهما. و لا يشكل كذلك البارزانيون المشهورون عشيرة بحد ذاتهم. بل إنما يتألفون من عشائر عديدة إعترفت بسلطات شيوخ بارزان الدينية و السياسية و تسكن حول مناطق الزاب.

تتميز العشائر الجبلية العامة و العشائر الكُردية بصورة خاصة بثلاث صفات رئيسية و هي: أولاً: بما أن أفرادها يعيشون في عالم صغير منحصر يضطرون إلى تشكيل تركيب دفاعي. و بما أن النظام العشائري يرتكز بقوة على التقاليد يصبح النظام ذا طبيعة محافظة. و لابد لمثل هذا المجتمع أن يكون حساساً يشعر بالشموخ و التعالي على ما يحيط به من العشائر المجاورة. فالروح الجماعية و الغرور يؤديان إلى حدوث سوء التفاهم و من ثم خلق المشاحنات مع أي قوم مجاور، أو حتى مع السلطات الحكومية المركزية. و حاول البعض أن يفسر ميزة العشائر الكُردية كأنها إمتداد العائلة، بمقارنة مضمون إشارة وردت في التوراة حول العشائر الإسرائيلية. قد يكون ذلك صحيحاً بالنسبة للعشائر العربية التي تشكل أواصر النسابة عندها العمود الفقري للعشيرة. و لكن الأمر يختلف بالنسبة للكُرد، لأن الأراضي هي التي تخلق الأواصر و الوشائج التي تربط أفرادها. و إضافة إلى ذلك، يمكن في كُردستان التمييز بين ثلاثة نماذج من المؤسسات الإجتماعية و الإقتصادية بين أهل الأرياف. و هي تتألف أولاً من العشيرة الواقعة تحت سيطرة الآغا منذ القديم. ثانياً العشيرة التي يحكمها رئيس إقطاعي ينحدر أفرادها من مختلف الأسلاف و المثال على ذلك، عشائر دزيي و خؤشناو و جاف. ثالثاً العشائر التي يرأسها رجال الدين، تتحد سلطاتهم الدينية مع السلطات الدنيوية، كشيوخ برزنجة في السليمانية و شيوخ بارزان في شمدينان.

و تحتوي العشيرة في جميع الأحوال على أقسام متعددة(بەر) التي يتكون القسم الواحد منها من أفخاذ(باظك) تستقر في مكان معين، و يتألف الفخذ من عدة بيوت عائلوية(مالَ). و كل فخذ يترأسه كبير(مەزن) أو حكيم(ماقولَ)، يأخذ المشورة من رجلين طاعنين في السن(ريش سپي). و يدعى رئيس العشيرة، الذي كان يحمل لقب(بەگ) أو(خان) في السابق، اليوم بآغا. و هو لقب يرجع تأريخه إلى القرن السابع عشر. و من المعلوم إن أصبحت مثل هذه العشائر عرضة للتفكك و الإنحلال على أثر الحوادث و النكبات من جراء الحروب و الأوبئة، أو ما شابه ذلك بينما تزيد بعضها قوة بفضل ما لرؤسائها من المميزات و الذين يلعبون الأدوار المهمة كما لاحظنا ذلك سابقاً. و ما عدا ذلك، هنالك من العناصر المستقرة داخل العشيرة أفراد آخرون سائبون غرباء عنها، أتوا إلى ذلك المجتمع الجديد للتعويض عن الصلات العشائرية التي أضاعوها. و تحدث مثل هذه الحالات، عندما يطرد قاتل من العشيرة التي ينتمي إليها، فيتعقبه أصحاب الثأر،

لذلك تصبح حياته عرضة للخطر، لعدم وجود من يحميه. و لقد أشرنا في الفصل السابق إلى أن الأفراد ليسوا جميعاً على مستوى واحد في المحيط الكُردي من حيث النواحي الإجتماعية. فهناك، كما نرى بين الآثوريين، رجال العشائر الذين يعتبرون أنفسهم أحراراً(عشيرەت)، و آخرين(رەعیەت) شبيهون بالعبيد في القرون الوسطى، و لا دور لهم في الحروب العشائرية، بل إنما يستغلون لأجل القيام بالأعمال التي تدر المنافع على أسيادهم. و توصل الباحثون في هذا الأمر إلى وجود تصنيفات ثانوية في العشيرة، و هي النبلاء مع عوائل الأسياد و الآغوات، ثم الرعية أو العامة من الناس الذين يقومون بالأعمال العادية، و يأتي من بعدهم الخدم التابعون للرئيس. و تعتبر وظائف هؤلاء ذات طابع جدي، و أخيراً نجد رجال الدين من القادة المؤلفين من الشيوخ و الملالي الذين، كما سنلاحظ، يمثلون المثيرين الحقيقيين للمشاحنات من أجل الإستحواذ على السلطة على الدوام ضمن العشيرة نفسها.

الرئيس العشائري: حقوقه و منافسوه

سواءاً أكانت المسألة.تتعلق بإتحاد فيما بين العشائر، كما سنلاحظ ذلك في مسار التأريخ، أو بعشيرة واحدة مستقلة إستقلالاً ذاتياً، يمكن ملاحظة واقع أساسي يتمثل في وجود قائد على رأس كل جماعة من هذه الجماعات حيث لا جدال في سلطاته.

الأصول و منابع الرئاسة

تختلف الوسائل التي يستطيع الرئيس بواسطتها الحصول على السلطة تبعاً للظروف و تختلف من عشيرة لأخرى حسب الزمان. فيمكن تعيين الرئاسة بالوراثة أو بالإنتخاب العشائري، أو من قِبل رجال ذوي الإعتبار لدى الرئيس، أو بترشيح حكومي، أو بقوة السلاح في الغالب. و لكن قانون وجوب تعيين الإبن الأكبر و توليه الحكم غالباً ما يلعب الدور الأساسي في هذه المسألة. فعندما يموت الرئيس يتولى إبنه الأكبر الرئاسة في مكانه. و لكن قد يكون ذلك الإبن غير كفوء، أو غير قوي وذا شأن. و عندما يعتبر ولي العهد غير لائق بالمنصب، تتشكل جلسة في هذه الحالة، من كبار رجال العشيرة،

للنظر في الأمر. فإذا أصدرت قراراً بعدم صلاحية الرئيس الجديد، عندئذ يوضع زوج من الحذاء أمامه. و يظل المجلس منعقداً إلى أن ينتعل الحذاء و يغادر الغرفة. و يعتبر مبارحته المكان دليلاً على قبوله نقل الوراثة و الحكم إلى شخص آخر. و تبقى ما يملكه من الأرض و الممتلكات الشخصية دون مساس تحت تصرفه. و قد إستهوته الرغبة في إزاحة أخيه الأكبر سناً. و ذلك ماحدث لبدرخان، عندما وجد أخاه الأكبر ميالاً إلى الورع و التقوى. و في حالة رفض التنازل عن حق الرئاسة و التمسك بالمنصب، عند ذلك يكون من اليسير في كُردستان تدبير أمر لضياع ذلك الشخص و محوه من الوجود. فيصبح حال الرئيس الجديد في حياته و كأنه في حرب شعواء، يحيط نفسه بالحراس من كل جانب خوفاً من الإغتيال الذي يتوقعه دائماً من أخيه الأكبر المنكود الحظ الذي أُبعد عن منصبه. و إغتيال الرئيس الذي يتولى الحكم حديثاً أمر شائع عند اليزيديين. و لكن إذا نجح الرئيس الجديد و إستطاع أن يجعل من نفسه شخصية مرموقة و محبوبة عندئذ تغفر له أفعاله السابقة، و تطوى صفحة من النسيان على الطريقة التي إستحوذ بها على السلطة. و لا يستبعد أيضاً أن نرى أحد أبناء الرئيس و قد إنتابه الإحساس بالغبن في شأن الوراثة ، فيغادر القرية و يقوم بتشكيل بطن أو فخذ مع مؤيديه في مكان آخر. و ثمة نساء مات أزواجهن و قد تبوأن المناصب و أخذن زمام الحكم في أيديهن و قمن بقيادة العشيرة أثناء المعارك.

الإنتخاب

قد ينتخب مرشح ليترأس أحد البطون أو الأفخاذ العشائرية و لكنه لا يحظى بتأييد الأكثرية أحياناً. عندئذ يتم إختيار شخص آخر لشعبيته و رجاحة عقله. و قد يلعب الحظ دوره عندما يقع طائر على رأسه(١)، عند ذاك يعتبر إختياره من مشيئة القدر. تروي لنا الحكايات أحداثاً كثيرة مثل هذه لا نعرف مدى صحتها، كثيراً أو قليلاً. و عند إنتخاب الرئيس من قِبل الحكومة، أبان عهد الأتراك و الإيرانيين، كان على المرشح أن يكون من أبناء الرئيس السابق أو من أحفاده. و بخلافه يتحتم عليه أن يحيط نفسه بهالة من الجندرمة لفرض الطاعة على أتباعه.

حقوق الرئيس و إمتيازاته

كانت وظائف الرئيس في عهد الإقطاع موكولة بطبيعة منصبه، فيما إذا كان تابعاً للحكومة أو ممثلاً للعشيرة و تقاليدها. و في الحالة الأولى كان عليه تجنيد بعض أفراده للإنخراط في الخدمة العسكرية و تسليحهم على حسابه، إذا كان صاحب ضيعة إقطاعية صغيرة. و عند نشوب الحرب يستوجب عليه إعداد مفرزة مؤلفة من عدد أكبر من أفراد العشيرة، إذا كان صاحب إقطاعية غنية موسرة، أي عندما تتجاوز وارداته عشرين ألف بياستر(٢)، و إذا عين السلطان وكيلاً عن الحكومة، كمحصل للضرائب مثلاً، عندئذ يصبح من حق(الخان) ترشيح شخص من أتباعه ليقوم بجباية ضريبة الكمارك يسمى(بەكدار). و على رئيس العشيرة تقديم الخدمات و المساعدات الضرورية مع نشر العدالة لتوفير الأمن. و كان يقع على كاهله واجب تقديم الطعام إلى الضيوف و عابري السبيل، مقابل نيله الشرف الرفيع، أو بالأحرى تحمل النفقات الباهضة.

و لكن الآن و قد تأسست الحكومات العصرية في تلكم الأقاليم، تبع ذلك تقلص كبير في الوظائف و السلطات الخاصة بالرئيس. و بعد أن أصبح أداء الخدمة العسكرية إجبارياً، لا يلزم الرئيس بتجنيد أفراد عشيرته، لأن القيام بتلك العملية غير مقبول لدى الحكومات إطلاقاً. و إذا كان الكُرد تستهويهم الحروب، لا يكون ذلك دافعاً للأنخراط في الخدمة العسكرية الإلزامية، لإنه إذا كان لزاماً على الكُردي أن يؤدي تلك الخدمة عندئذ يرغب في أن يكون جندياً حراً، فيفضل التطوع على غيره في هذه الحالة، لأنه يكره تدوين إسمه في قائمة التجنيد ضد إرادته، و يفسر هذا الواقع حالات التمرد الكثيرة و الفرار من صفوف الجيش بأعداد لا يستهان بها.

و كان الإبتزاز حتى السنوات الأخيرة من قِبل الحكام الأتراك باهضاً ثقيلاً يضني كاهل الأفراد. كان الكاتب السوفيتي عرب شمو راعياً قبل نشوب الحرب في عام ١٩١٤، فيروي لنا ما يذكره عن أيام شبابه حينما كانت الضرائب تستجبى بشكل فضيع و بأنواع متعددة مثل ال(خەرج) و هي الضرائب المالية(قەيچور) ضرائب الحيوانات و (نولام) السخرة الجماعية و(جيكار) السخرة من الأنواع الأخرى و(سەرى پەز) و (سترى دێويرة) و هي ضريبة على كل رأس من الحيوانات، الصغيرة و الكبيرة. و كانت من أكبر الضرائب(ئيش كرينى) التي تتألف من نفقات خدمة الموظفين أو الجنود الذين كان على

القرية إيوائهم و إطعامهم. إن هذا النظام المتمثل في العيش على حساب الآخرين من المواطنين لازال جارياً في العراق داخل المناطق التي تعمها الإضطرابات(٣).

و لكن إن لم يبق الآن رؤساء العشائر الذين كانوا مسؤولين عن جباية كل هذه الضرائب، لا يعني ذلك إعفاء الأفراد العشائرية أو القروية من دفع ضرائب معينة إلى مالكي الأرض و الأغاوات الذين لا يتورعون عن نهب جيوب أتباعهم بحجة خدمة مصالحهم. و تحمل هذه الأتاوات أسماء معينة مثل(آغاتى) ضرائب الآغا. و من أكبر أنواع هذه الضرائب(الزكاة) التي تتألف من عشر محصول القمح و الشعير. و يدفع مبلغ آخر عن(مەرانه) أي جباية رأس واحد عن مجموع خمسين رأساً من الأغنام، أو ما يقابل ذلك نقداً. و يأتي بعد ذلك(پوشانه) أو أجرة الرعي، و مبالغ أخرى كثيرة تجمع من الأهالي عن الإنتاج الحقلي مثل(رونانه) عن الزبدة و(هێلكانة) عن البيض و(هەرميانه) عن الكمثري ....إلخ، و ناهيك عن ذكر(موچەوير) و هي مساهمة لدفع أجور مستخدمي منزل الآغا. و يمكن إضافة ضريبة(شەوانه) التي تفرض عند زواج أقرباء الآغا أو لأجل دفع كلفة مصاريف الحفلات التي تقام لهذه المناسبات. و يتوج جميعها الخدمات الإجبارية(بيگار) أو(هەرەوەز) أي الحصاد و الهرس و كذلك(هەرەوەزى درەو و گيرە) عن الحرث و الحصاد و (هەرەوەزى گەلأودار) العلف و الأخشاب. (كوڤير).

تلك هي الضرائب العديدة المتنوعة التي ما زالت تجبى في مناطق كُردستان العراقية الجنوبية كما لاحظها أدموندز. و كان مثل ذلك الوضع سائداً في تركيا أيضاً قبل القضاء على النظام العشائري بصورة نهائية هناك. فكان الآغا في منطقة(جيليا) يجبي المال عن كل شئ، حيث كان يتحتم على كل فرد أن يقدم في فصل الربيع(دوشانى) أي نعجة أو نعجتين حسب إمكانية و (كيشم) و هو تقديم حمل أو حملين من دبس العنب. و كذلك الرز و القمح أثناء الخريف و كان عليهم تقديم الهدايا بمناسبة الإحتفالات من المحاصيل أو إنتاج الحيوانات. و مع ذلك لقد إحتفظ الآغا لنفسه حق تأجير أي قطعة يشاء من الأراضي الزراعية، فتمنع لذلك من الآخرين. و كان يستلم مقابل كل قطعة أرض(توف) تحتوي على أشجار حقلية يتراوح عددها بين ٣٠٠ إلى ٥٠٠ شجرة عدداً من(سپيدار) الحور أو مبلغ يصل إلى خمسة مجيديات و عند ورود وكلاء الحكومة لتقدير الضرائب كان الآغا يتعاون في إخفاء الأعداد الحقيقية. فكان على الفلاح أن يقدم إليه مقابل هذا العمل(دوڤەكى گيمكورى)، تصف المقدار الذي أخفى حقيقته. و كان تجار

المواشي يدفعون ضريبة عن كل رأس غنم، و عن حمولات الزبدة و عن كل جزة من الصوف عند بيعها. و على القبائل المرتحلة أن تدفع بنفس الطريقة مبالغ عن حضائر الأغنام، أيضاً. و المشهور عن محمود بك بن إبراهيم باشا رئيس قبيلة(ميلى) إنه كان يفرض الضرائب على أتباعه عند بيع محاصيلهم،. و كان من عادته إلى عام١٩٣٢ إجتباء عشرة بياسترات عن كل حمل يباع، و خمسة بياسترات عن كل جزة خروف و ثلاثة بياسترات عن كل حقة من الدهن و سبع مجيديات عن كل جمل.

فكانت جميع هذه الضرائب التي تجبى لمنفعة الرئيس تشكل عبئاً ثقيلاً على كاهل المواطنين، حيث يتم دفعها بشكل عيني من غير حساب التقديرات الحقيقية لأقيامها. وعلينا أن نضيف إلى الضرائب الضخمة و الهدايا المباشرة إلى الآغا، المبالغ التي كانت تدفع إلى رجال الدين. فكان على القرية أن لا تنسى هؤلاء في أوقات جني المحاصيل و أثناء إقامة الإحتفالات. و هنالك أيضاً الدراويش المتجولون(مفت خور) الطفيليون الذين يطالبون بحصصهم. و ما لا يعتبر واجباً على دفعه كضريبة، يدفعه الرجل العشائري هدية إلى الآغا(بخشيش) أو(پێشکەش) عند إقامة حفلات الزواج و الزيارات التي لا ينبغي لأحد حضورها بأيد فارغة.

و أما الوظيفة الوحيدة التي ما برحت في يد الرئيس لعلها تتمثل في مسألة العدالة حسب التقاليد و إن كانت بصورة غير رسمية. فعوضاً عن مراجعة محاكم الدولة و الظهور أمام القضاة، يفضل الكُردي إتفاقاً سلمياً يعقد بأساليب أخوية بعد ترتيب أمام رئيس العشيرة، وفقاً للأعراف و التقاليد. و تقديم مثل هذه الخدمات لن تكون مجاناً، و معاذالله أن يكون كذلك، لأن كل جلسة(داوا) عليها أجرة يستوجب دفعها(حقى قازى). و بالإضافة إلى ذلك الغرامة(دراڤ) التي تتراوح بين بضعة دراهم و عشرة دنانير للجنحة المقترفة، أو عن أجرة حسم المنازعات، إذ أن الغرامة تفرض في حالات السرقة(دزى) و القتل و الإغتصاب و الضرائب. فكان محمود بك الذي ذكرناه سابقاً يملك تعريفة كاملة تحوي تلك المبالغ و هي عن القتل عشرة باونات ذهبية. و أما في حالة قتل شخص رفيع المنزلة كان المبلغ يصل إلى خمسين باوناً. و يُغرم المعتدي لإغتصابه إمرأة بعشرة باونات ذهبية. و كان يتحتم على والد الفتاة دفع ذلك المبلغ أيضاً. و عند سرقة المواشي يستوجب تعويض مالكه عيناً، مع منح رئيس العشيرة أربعة رؤوس من الماشية.و كان من المعتاد إستلام عوضين في حالة سرقة الطيور. و مارس خلال القرن الرابع عشر بعض

رؤساء العشائر نوعاً شديداً من التعسف تجاه السرقات، بحيث توقف إقتراف مثل هذه الجرائم بصورة كاملة. فكان مثل هذا الأسلوب التعسفي يقوم به كل من ميركور في رواندوز و الأمير بدرخان في الجزيرة.

و تجري محاكمة إقتراف جرائم القتل وفقاً لمبدأ الأخذ بالثأر(تولّه)، فكان لأقرباء المجني عليه حق الثأر و تقاضي القاتل. و إضافة إلى ذلك يتم إبعاده عن العشيرة التي ينتمي إليها مدة خمس سنوات أو أكثر. فإذا أستطاع أهل القتيل خلال هذه المدة قتله، تعتبر القضية منتهية. و إن لم يتسنى لهم ذلك، فالقاتل يستطيع الرجوع إلى أهله و عشيرته عند إنقضاء مدة النفي. و يجري ذلك في أعقاب قرار يصدر في صالحه من قِبل الشيوخ المسنين بعد أن يوافق عليه الرئيس. و لكن أخذ الثأر سيظل حقاً قائماً على الدوام. و لكن يجوز أيضاً التوصل إلى إتفاق بين الطرفين بتقدير قيمة الدم و دفع المثل بغرامة و ذلك درءاً لإيقاف إسالة الدماء. لأن ثمة إعتقاد سائد بأن الدم لا ينقطع عن الجريان حتى يكمل الثأر. و لكن مثل هذا التحكيم السلمي لا إعتبار له عند الكُردي الذي يفضل عليه طعنة خنجر أو طلقة رصاص. و مع ذلك إذا تقدم الجاني و حضر أمام خصومه ليلقى السلاح واضعاً نفسه تحت رحمتهم عندئذ ليس من العادة رفض المصالح.

منافسوا الرئيس و مؤيدوه

أصبحت السلطات العشائرية الموجودة بحوزة رئيس العشيرة في تدهور مستمر بعد أن كثرت حولها التساؤلات و المنافسات من قِبل أشخاص لايملكون شعوراً قبلياً. و لا يستطيع على تلك المنافسة إلا المواطنون الأقوياء أو مالكوا القرى و الأملاك الواسعة، كي يقوموا بأدوار القضاة فيما بين أفراد العشائر أو المحتكمين الوسطاء في القضايا المتعلقة بالشؤون الحكومية، و ذلك بصفتهم الممولين و المستثمرين لمشاريع حيوية. و يعيش هؤلاء عادة في المدن، لذلك من الممكن الحصول منهم على العون و المساعدة أكثر مما يرتجى من الرؤساء العشائريين لإفتقارهم إلى الثقافة و المال. و مع ذلك أفلح فئة من الرؤساء في العراق في تأمين مراعي خاصة يمتلكونها وراثياً فتحولوا بذلك إلى طبقة الملاكين للأراضي. و حينما يتحول الرؤساء القبليون إلى مالكين كبار حينئذٍ ينضمون إلى الطبقات البورجوازية، كبعض الأمراء في إيران، فيبدأون بالمساهمة في المشاريع

الإقتصادية. و حينما يستطيع مالكوا الأرض خلق التوازن ضمن بعض المفاهيم، بينهم و بين السلطات المعنوية التي لازالت في يد بعض الرؤساء؛ لا يعني ذلك تخفيف الثقل عن كاهل المزارع. ذلك لأن المزارع مغمور الكيان مثقل الأوداج بالديون نتيجة لإبتزازه من قبل الآغوات، فلا مفر من أن يعاني الأمرين الآن من السيد الإقطاعي الجديد، المالك للأرض بنفس الطرق السابقة. و لكن الآغا سيكسب في الحالتين حينما يستحوذ على الأرض. و الواقع أن مالك الأرض يجتبي من الفلاح الكُردي الذي يكون أحياناً أحسن حالاً من الفلاح العربي، نصف المحاصيل الصيفية كالتبغ و القطن و عشر المحاصيل الشتوية كالقمح و الشعير، إضافة إلى ما يدفعه إلى الوكيل(ستركار) البالغ(٧,٥)بالمائة من المحاصيل. و كذلك عليه أن يدفع إلى الحكومة عشرة بالمائة و مبالغ أخرى صغيرة إلى حاشية مالك الأرض. و في ظل نظامٍ كهذا، من الطبيعي أن يكثر التمرد و العصيان بين الفلاحين و تزيد الهجرة الجماعية للأرقّاء المستبعدين الذين نادراً ما يتجاوز موردهم ديناراً أو دينارين في الشهر.

و في مناطق كُردستان التركية لازال نظام الملكيات الشاسعة سائداً. و في إيران قد شرع الشاه بتوزيع ممتلكاته الشخصية مع ممتلكات التاج على الفلاحين مبتدءاً بالمناطق الكُردية. و أما في العراق فنادراً ما يطبق قانون الإصلاح الزراعي الذي سَنَّه عبدالكريم قاسم، و ذلك نتيجة محاولات المالكين الكُبار لقلب الأوضاع الجديدة لصالحهم عند محاولة تطبيق هذا القانون. و أثناء الإنتفاضة الكُردية خلال الأعوام(١٩٦١ ـ ١٩٦٤) في أنحاء كُردستان العراقية حاول الحزب الديمقراطي الكردستاني (٤) إستملاك الأراضي و إعادة توزيعها و لكن مشكلة القيام بالخوض في المعارك الجبهوية و تنفيذ الإصلاحات الإجتماعية أمران يصعب تنفيذهما في وقت واحد، لا سيما و إن تلكم الإصلاحات كانت مقبولة لدى جماعة و مرفوضة من قِبل جهات أخرى. فلم تكمل تسوية شئ بالنسبة لهذه المعضلة و لازال مصيرها معلقاً. و من الممتع أن نذكر بهذا الصدد مبادرة جذرية من قِبل كُردي سوري، و هو حسين عبش، المالك الكبير و صاحب الأراضي و المزارع الواسعة، حيث قام بعد إنتهاء الحرب العالمية الثانية، و قبل ظهور سياسة الإصلاح الزراعي لدى الحكومات، بصرف المياه و تجفيف(٢٤,٠٠٠) هكتار من أهوار (وادي العوج)، كان قد إشتراها من قبل ذلك. و تقع هذه الأراضي في(جبانه)، على مقربة من دمشق بمسافة(١٩) ميلاً. خصص هذه الممتلكات لأجل الحراثة و تحويلها إلى المزارع و الحقول و

هي تتألف من الأراضي البور و أراضي أخرى إروائية. و نتيجة لذلك إستطاع إسكان ستة الآف عائلة فلاحية، بعد أن وهب لها ثلثي مجموع تلك الأراضي و سجلها قانونياً بإسمهم. و كذلك رتب نظاماً للأرباح، بحيث يعاد إستثمار قسم منها في المشروع نفسه.

و أما المنافس الثاني لرئيس العشيرة و بالأخص بين العشائر الرحالة فهو(الأباباش)، وضيفته جمع القطعان الصغيرة من عشرين إلى ثلاثين خيمة، لتشكيل قطيع هائل من عدة الآف رأس. و يؤجر عدداً من الرعاة، ثم يختار المراعي الملائمة و ينظم الهجرة الموسمية للقطعان. و يدفع أصحاب تلك القطعان الأجر إليه حسب أحجامها، و لا يصرف الأباباش شيئاً عنده، و لكنه يتمتع ببضعة حقوق تتألف من واجب تقديم الخدمة في نقل حاجياته و إعداد خيمة خاصة له. فمثل هذا النظام الذي يشير إليه الكُتاب السوفييت و المتمثل في الإستغلال الإقتصادي في كُردستان تركيا بصورة خاصة يقلل من سلطات رؤساء العشائر و يضعفها.

و أخيراً هناك رجال الدين من ذوي المراكز و المنتمين إلى نوع خاص من الإرتباطات، و بالأخص أولئك الذين يستطيعون إقلال سلطة رؤساء العشائر و منعهم من الوصول إلى مآربهم بحرية. و ليس في مصلحة رئيس العشيرة أن يرى أحداً من هؤلاء متمركزاً في قريته لخلق المشاكل التي لابد أن تصبح مصدراً لإحراجه، لأن الشيوخ المنتمين إلى مثل هذه الجماعات لا يتورعون في بذل المحاولات لأجل الإستحواذ على زمام الأمور، ثم التحكم و القيام بعد زمن قصير بدور سياسي تحت ستار الدين.

تدهور الأوضاع العشائرية

إن كان لا يزال ثمة وجود لعشائر عليها رؤساء يعترف بهم أفراد أو تعينهم الحكومتان العراقية و الإيرانية، فهذه الأوضاع لا تشبه ما هو سائد في تركيا و أرمينيا السوفيتية، حيث تم القضاء هنالك على جميع السلطات العشائرية، لأن القمع فيها يكون بأساليب أكثر تعسفية في معظم الأحيان. و بالنسبة للأوضاع السوفيتية، يذكر(أڤدال) الوارد إسمه سابقاً بأنه تم القضاء المبرم على الكثير من التقاليد البالية. و يؤكد أيضاً بأنه لن يكون من الآن فصاعداً للشيخ(پير) حق إستملاك العبيد، و لن يمتلك الآغا و البيك خدماً و حشماً. و لكن من يدري، لعل العبودية قد إتخذت اشكالاً أخرى و مسارات مغايرة. و

ما حدث في الواقع هو أن رؤساء العشائر لم يعدموا جميعاً، و لا ريب أن بقي أولادهم و أحفادهم على قيد الحياة. و ما زال عند الناس في بعض الأنحاء من البلاد السوفيتية شئ من الإحترام تجاه العائلات النبيلة. و قد إعترف بهذه الإمتيازات العائلية الكُتاب الروس أنفسهم، مثل كولوتوف و ڤلجيفسكي. و لكن يا ترى أهنالك وجود للندم و التأسي على ما فات و ما فقده رؤساء العشائر من السلطات التي كانت في أيديهم في تلكم الأيام الخوالي؟ لا سبيل للتأكد من ذلك.

و إذا كان لنا تصديق ما رواه كُردي في عام ١٩٥٨، و هو من حملة الأفكار التقدمية، إنه أكد جازماً بأن العشائر هناك قد فقدت ما كان لها من ترابط داخلي بنتيجة الأحداث. و بالرغم من ذلك، يحاول الرؤساء إستعادة ما كانوا يملكونه من تأثير على الحياة، ليس على أساس التقاليد الإقطاعية، بل من خلال إستحواذهم على المستلزمات العصرية و المجالات الإجتماعية، حيث أصبح أبناء الرؤساء السابقين يشغلون المراكز المهمة في مهنة المحاماة و الطب و غيرها، و برزوا في المجتمع الجديد. و أخذوا يخدمون أولئك الذين كانوا معتمدين على آبائهم للحصول على مصدر رزقهم، فعليه لا يمكن أن ينسوا ما لهم من الفضل عليهم. لذلك يقومون بترشيحهم أثناء الإنتخابات، فيعود إليهم ما كانوا يملكونه من السلطات سابقاً. و هكذا ظهر الى الوجود نوع آخر جديد من الأرستقراطية، و لكنه أكثر ملائمة للمفاهيم العصرية. و أخبرني كُردي آخر في بيروت، و كان مبعداً هناك، بأن جميع الإلتزامات القبلية الموجودة بحوزة الآغا قد ألغيت و أصبحت شيئاً مطوياً في صفحات الماضي و من الأحداث التأريخية القديمة. و أكد كذلك، بأنه إذا أراد الآغا الحصول على شئ فيتحتم عليه العمل من أجله، و مثله في ذلك مثل أي شخص آخر، و بأن هذا نابع لقانون التطور الأزلي، لا أحد يستطيع إيقافه. و أما في البلاد العربية مثل العراق و سوريا في طور نموها تساهم المركزية في تقليل ما لدى الرؤساء من السلطات، فالموظفون هم الآن مسؤولون عن تحقيق العدالة في جمع الضرائب. و سوف تساهم المشاريع المعلنة عنها و المخططة لأجل الإصلاح الزراعي في خلق التبدلات الإجتماعية. و يظهر بأن الإرتباطات العشائرية لازالت موجودة في إيران وحدها، لأنها أبقت على الأوضاع السابقة في وضعها المغلق دون إحداث أي تغيير فيها. و لكن مع عملية إسكان العشائر المرتحلة و تثبيت الإدارات سنرى النظم العشائرية و قد توارت عن الأنظار و اضمحلت. و إمكانية تحقيق ذلك أمنية موكولة بالزمن.

الفصل الخامس

العائلة

العائلة

سواءاً يعيش مع عشيرته أو منفصلاً عنها، أو يعمل كراعٍ جوال يبيت تحت خيمة في الجبال النائية، أو يستقر في مكان آخر، أو يملك دكاناً، أو يشتغل كفلاح في إحدى القرى أو حرفياً في مدينة ما، أو عاملاً على سد أو في المشاريع النفطية، فالكُردي لا يعيش بمفرده في جميع هذه الأحوال، بل يصاحب زوجته و أطفاله دائماً. فهل للنموذج العائلي الكُردي الساكن في الجبال أي شبه بالعائلة البدوية؟ و هل يمكن مقارنة النظام العائلي لفلاح أو مواطن يسكن في المدن بالنظام لدى المسيحيين و الآثوريين و الأرمن من جيرانهم؟ إذن، فلندخل المنزل الكُردي لنشاهد بأنفسنا، و لسوف تنتابنا الدهشة عما سنراه، من أوضاع المنزل و محتوياته التي لا شك بأنها تسر الناظر بشكل يستسيغه الجميع.

لا عبث بالحب في كُردستان

تنتحل العائلة الكُردية طابعاً دينياً يتجاوز حدود وظائف الدين الإجتماعية و الإقتصادية المعتادة، فلا ريب بأن لهذا الطابع تأثيره على الشباب، حتى في الفترات التي تسبق زواجهم.

يتزوج كل فرد كُردي دون إستثناء، فقلما نجد أعزباً في كُردستان، و ليس ذلك مرده إلى المأثورة القائلة بأن(الأعزب تنحل قواه، و العزباء تلهبها النار)، بل لأن المجتمع تأسست مكوناته على هذه الشاكلة. فلا مكان فيه للعوانس. و ينظر إلى الأعزب المتخاذل بإزدراء. فالكُرد يتزوجون مبكرين حيث لا ينتظر الشباب سن العشرين جميعاً، و ليس من النادر أن ترى زوجة في السنة الثانية عشرة من عمرها، لأن الفتاة في هذا العمر تكون قد إكتملت أنوثتها و أصبحت ربة بيت بارعة ممتازة، ضليعة بالواجبات

الملقاة على عاتقها. و لا نجد اليوم ميلاً لتأخير الزواج بأي حال إلا في المدن حيث يكون الشباب منشغلين بالدراسة. و هناك قانون أيضاً يفرض حدوداً لسن الزواج.

و لا ريب في أن الزواج المبكر من الأسباب التي تجعل البغاء غير معروف في كُردستان. و الكُرد لا يستطيعون التعبير عنه إلا بإستعارة الكلمة التركية لذلك، فلا وجود لبيوت الدعارة و المواخير في المدن الكُردية الصغيرة في إيران و العراق. و أذكر قرية كُردية في سوريا، كان قد تمركزت فيها مفرزة من الخيالة، تدار فيها بيت للدعارة من قِبل الموظفين الأتراك. يأتون من الجهة المقابلة للحدود الغربية. و كذلك لا وجود للسحاق و اللواطة بصورة عامة. و بالرغم من أن كلمة(هەتيوباز) أي اللواطة ليست مجهولة في مدينة السليمانية، غير أنها تستعمل كعبارة ممقوتة على كل حال.

و لكون الكُرد مسلمون عامة، يجوز لهم تعدد الزوجات من الناحية الدينية. فنظراً للأسباب السياسية تطّبع رؤساء العشائر سابقاً على عادة الزواج من عدة نساء، و ذلك لكي يخلفوا عدداً كبيراً من الأطفال. و لكن تغيرت الأوضاع في الوقت الحاضر، و أصبح ذلك التعدد يتلاشى رويداً رويداً. فبرغم إستمراره في المجتمعات غير المتمدنة، مع ذلك لا يتجاوز التعدد أكثر من زوجتين. و الزواج من إمرأة واحدة شائع في الأوساط الفلاحية، فلا يتجاوز نسبة عدد الرجال المتزوجين من إمرأتين أكثر من إثنين في المائة. و هكذا تتجنب عامة الناس المشاكل لعدم تعكير صفو الحياة، مستعيدين إلى ذاكرتهم الحكمة التي تقول بأن(من سيتزوج إمرأتين سيصبح حارساً عند الباب). فالزواج من إمرأة واحدة عادة شائعة بين المثقفين. و يعود ذلك إلى تأثير الثقافات الغربية. و تكرار الزواج بعد الطلاق شائع بين الأرستقراطيين في الريف. و المثال على ذلك الشيخ سعد الله، في العراق، الذي تزوج تسعة عشر إمرأة خلال عمره. و ليس الطلاق شائعاً نسبياً. و من مسبباته عقم المرأة أو عجزها عن إنجاب الذكور. و إذا حدث و تبرأ رجل من زوجته سيصبح موضع السخرية عند الناس جميعاً، و إذا فارقها بعد تلفظ العبارة الثلاثية(الطلاق ـ المترجم) فيتحتم عليه عند ذلك دفع مؤخر المهر البالغ نصف أو ثلث المقدمة. و الأطفال يوضعون في عهدة الوالد في جميع الأحوال. و أما الإنفصال الذي يجري بموافقة الطرفين فغير شائع أيضاً. و عندما يكون سبب الطلاق إتيان عمل خطير(مشين ـ المترجم) قلما تجد هذه المطلقة زوجاً جديداً. و إضافة إلى ذلك، أليست هناك أغنية تقول: (لا يهجر رجل شرير زوجة حسناء، بل يقتلها)؟ و لا حاجة لنا إلى القول بأن الحب

المتحرر غير وارد، و هو شئ لا يجوز التفكير فيه أبداً. فلم نسمع عن كُردي إتخذ خليلة قط. لأن ذلك مسموح به خارج البلاد، في أمريكا و أوروبا، عندما يدرس الطالب هناك. و لكن مثل هذا الشاب لن يفكر في إستصحاب صديقته إلى الوطن أبداً. و لربما يتزوجها هناك راساً. أما الزنى، بإستطاعتنا التأكيد على عدم وجوده إطلاقاً، لأن المرأة تدرك تماماً المصير الذي ينتظرها عندما ينكشف جرمها. إنها ستموت على يد أخ أو قريب، ثأراً لشرف العائلة. و تنتظر المصير نفسه الفتاة العزباء التي تسمح لنفسها بالإنقياد وراء هذا العمل المشين. و تتساهل المحاكم مع القاتل في مثل هذه الظروف على الأغلب. و لم يكن الردع المفروض بحكم التقاليد و الأعراف ليكفي لأجل وضع الشباب على هذا الطريق القويم لو لم يكن لمثل هذه الخلق الكريمة و السجايا الفاضلة من الوجود عند الكُرد.

الإعداد للخطبة و الزواج

الكُردي زوج وأب صالح عادة في كلتا الحالتين. و لكن السعادة العائلية تحتاج إلى شريك جيد، لأنها مسألة جديدة بالغة الأهمية. فثمة إعتبارات أخرى ما عدا الجاذبية و الجمال، لا بد من وضعها في الأذهان، لأنه يقال: (لا تنظر إلى الفتاة فحسب، بل إلى أقاربها) و (و أنظر إلى الخال و أت بالفتاة إلى دارك). و الأختيار الأفضل غالباً ما يقع على إبنة العم. لأن لأبناء العمومة حق على الفتيات في الزواج، و إن كان المهر الذي في إستطاعتهم تقديمه أقل مما يقدمه الآخرون. و تبلغ حقوق إبن العم المنحدر من جد مشترك لكلا الطرفين حداً يجعل أي خطيب آخر للفتاة ملزماً بدفع مبلغ من المال إليه، تعويضاً عن تنازله. و إن لم يفعل ذلك فخطفها يكون محتملاً، و بالأخص إذا رغبت هي في ذلك. و عند حدوث الإختطاف يلتجئ الهاربان إلى طلب الحماية في كنف رئيس مقتدر يستطيع إسترضاء والدي الفتاة، ليرتب الأمر و يعيد الأحوال إلى مجراها الطبيعي. و إذا ظلت المسألة قائمة دون حل، فيحترم الفتى فتاته في جميع الأحوال لأن ذلك موكول بشرفه. و إذا إستدرجت الفتاة إلى الزواج من غريب، في ظرف معين، لا يتردد إبن العم المهجور في قتل منافسه، أو حتى التخلص من كليهما. و مهما تكن الظروف. فثمة إمثولة حكيمة

تقـول: (مـن يرغـب في الـزواج، عليـه أن يملـك حقيبـة مـن الـذهب، أو كيـساً معبـأ بالأكاذيب). و (لا يتم الزواج من أميرة بمهر لرعاة البقر).

و يلتقي الشباب في الريف عادة بجوار الينـابيع أو أثنـاء الإشـتغال في الحقـول. و أمـا عند القبائل المرتحلة ففـي أوقـات المهرجانـات مـع مـا يـصاحبها مـن الـرقص. و غايـة الإلتقاء ،تكون شريفة على الدوام، فتسود الحشمة و الفضيلة. ذلـك شـئ تدركـه الفتيـات الكُرديات حينما ينشدن أغاني الحب أثنـاء الغـزل و عنـدما ينحـدرن نـزولاً مـن سـفوح الجبال، راجعات من ديار المصايف. أو أثناء حلب النعاج أو حياكة الـسجاجيد المزركـشة بالأشكال و الألوان. فتفيض أغانيهن شوقاً و حناناً بمـا يـشعر بـه الفـؤاد مـن اللوعـة و الغرام، فيشغف القلب و ينعم بالتغريد النابع من أعماقه، لتتـسم الـصور و التـشابيه في شدوهن بالطابع المحلي فتبرز ألوانها و أنواعهـا. و تـدرك الفتيـات سـحر جمـالهن فيبدينـه بالدلال و الغنج دون تردد في الإفصاح عن حقيقتـه عنـدما يتفـاخرون بتجاعيـد شـعرهن الذهبية، و بطرف أعينهن الجميلة الـسوداوات الـتي تـضاهي عيـون المهـا في حـسنها. أو عندما يتهادين في مشيهن كأوز البراري أو الدراج حول أعشاشها فينتابهن شعور البطلة هفتسيد(١) التي شغفت حباً بسرج حصان العـشيق، فتـسبغ عليـه أبهـى الحلـل و أفخـر الزينات و تضحي بجواهرها لأجل فارس أحلامها:

سـأجعل أقراطي تشد حذاءه،

و لأجل المسامير سأقطع أساوري،

قطعات صغيرة، ناعمات.

و من جدائلي سأفتل حزاماً لسرجه،

و مقوداً من خصلات شعري.

و الفتيات تلك لطيفات و لكنهن خبيثات يهوين الإغاضـة. فالفتـاة الكُرديـة لهـا كـل السحر كي تدير رأس الفتى اليافع بهواها. أليس وراء كل فتاة ذات شعر ذهبي، فتىً ذو شارب أحمر؟(٢) و هنا في كُردستان كأي مكان(الفتيات مزار يتوافد عليه الفتيان).

لا يكون إلتقاء الشباب سـهلاً بـين أغنيـاء المـدن. و الحيـاء يكـبح جمـاح الرجـل مـن الإفصاح بما يخالج قلبه لفتاة لإبداء الرغبة في تكوين عائلـة. و إذا صـادف أن نـاهز رجـل العمر المناسب للزواج و لم يعـبر عمـا في نفـسه لفتـاة صـادفت هـوىً في نفسه و تعرفهـا عائلته، عند ذاك لا بد من إجراء سلسلة من الزيارات للبحث عـن فتـاة مناسـبة. فـإذا

إستطاعت الأم أن تجد بين القريبات مرشحة مناسبة تنال رضاها، عندئذ لا تتردد في وصفها بعبارات طنانة من المدح و التبجيل. فتصف جسمها و حسن أخلاقها و محاسنها. فإذا لم يبدِ الفتى إعتراضاً. و كانت هناك القناعة بأن أهل الفتاة راغبون في المصاهرة، تقوم الوالدة، أو إحدى الخالات أو العمات بزيارة تجريبية، أو يحضر صديق حميم دار الخطيبة و يقدم لها هدية بإسم عائلة الخطيب. فإذا نالت قبولها و إستلمت الهدية، فتلك علامة الرضى، و دليل على الخطبة(دياری کردن). و تستطيع الفتاة أن ترفض، من الناحية النظرية، ولكن الرفض إهانة. و لا يجبر الوالد من ناحية أخرى إبنته على الزواج ممن لا ترغب فيه، و بعد ذلك بوقت قصير، يقوم الأب أو أحد الأعمام أو أخ من إخوة الفتى بطلب يد الفتاة رسمياً(خوازبيني). و لزام على ذلك أن يجرى في يوم مبارك. و تقدم في المناسبات هذه الحلوى و الزبيب لذلك هو يوم الحلاوة(شيريني). و عندئذ يتم تعيين مبلغ المهر الذي يسميه بعض الكُرد بـ(قلن ـ كليم). و الأسماء تتغير حسب المناطق. و تجرى المناقشات حوله قبل ذلك من قِبل الوسطاء، تجنباً لحدوث الخصام و المشاحنات العائلية، لانه غالباً ما تحدث المناقشات في مثل هذه المناسبات. و يختلف المهر من منطقة لأخرى، وفقاً لوضع الوالدين المالي. و ما أكثر ما سمعنا عن الحملات الشديدة على هذه العادة الشبيهة بتسعير الفتاة، أو بعرضها كالماشية في المزاد. و أما التأكيد المُلِح على قضية المهر، دليل على رسوخ العادة في القدم. و لكن النظرة المتمثلة في مسألة البيع و الشراء التي تصدم المفاهيم الغربية، لا إعتبار لها عند المفكرين، حيث تشير إليها المدام هانسن بأن هذه العادة في الواقع هي عبارة عن مجرد تقدير لمكانة الفتاة الحقيقية،و هي وجهة نظر لا يمكن التغاضي عنها، بخلاف عدم ملائمتها لأذواق التقدميين.

و صحيح بأن هنالك فئة من الآباء يبالغون في تقدير هذه القيمة و يطالبون بمبلغ يتجاوز قدرة أكثرية الفلاحين، فيجعلون بذلك من الزواج أمراً عسيراً. و لأجل تكوين فكرة عن هذه المسألة، لدينا أرقام سجلتها المدام هانسن(١٩٥٧) تبين بأن المهر في(باڵخە) يبلغ عشرين ديناراً لفتاة عمرها إثنى عشر سنة. و في(توێزاوا)(٢٠٠) ديناراً لفتاة مثقفة من مدينة السليمانية. و أما في السليمانية نفسها فكان أعلى مهر سجلته الباحثة (١٥٠٠) دينار مع المؤخر البالغ(٧٥٠) ديناراً في حالة الطلاق. و المهر بالنسبة لليزيديين(٤٠٠)دينار. و بين الكُرد المسيحيين و الكلدانيين في العراق، يقوم القس بقطع

دابر سوء إستعمال المهر، بتعيين الحد الأعلى. و يجوز في بعض الأحوال ترتيب زواج بتبادل فتاتين (بدلى)، و هذا بمثابة المهر للطرفين.

و بعد إكمال الطلب الرسمي يصبح الشابان خطيبين(خويستى). و عند مرور زهاء بضعة أشهر، أو حتى عام أحياناً، يجرى الإحتفال بالخطوبة(دەستگيرانى). و أما بين أهل الحق فهي تتحول إلى مناسبة عائلية كبيرة تقام فيها الحفلات. فيقدم الضيوف بعد إنتهاء الحفلة هدايا مالية إلى الخطيبين. و يهدي الفتى بدوره إلى خطيبته قطعة من المجوهرات(نيشانه) أو(ديارى). تكون عادة عبارة عن حلقة. فيتحولان بعد ذلك إلى خطيبين(دەستگرتو). و عندئذ يستطيع الخطيب بناءاً على موافقة ضمنية، زيارة خطيبته في دار والديها. و عندما يتم دفع المهر سيصيران(دلنده). و من الضروري فوق ذلك تقدير الرضاعة (شيربايى)التي تتألف إما من قطعة أرض أو طاحونة أو حلي ذهبية.

العرس

كل شئ مهئ الآن، و لكن الجميع ينتظرون الربيع أو الخريف للإحتفال بيوم العرس، الذي يحتاج في الواقع إلى حفلتين، ليس من الضروري إقامتهما في يوم واحد. تكون إحداهما دينية(مارەبرين). و تجري وفقاً للمراسيم الإسلامية المتعلقة بعقد القران. و لا يلزم الطرفان التوقيع عليه شخصياً.

تكتب بنود نص العقد من قِبل قاضي أو ملا بحضور الشهود عن العريس و العروس، و من بين الشهود الذين يتألفون عادة من أربعة أشخاص يحضر ولي العروس الذي يكون عادة والدها. و عندئذ يتم دفع المهر المتفق عليه. و أما في حالة الطلاق مثلاً أو الترمل، فيتم الإتفاق أيضاً على دفع مبلغ للتعويض يصل عادة إلى نصف أو ثلث المهر. و يستفسر القاضي أو الملا عن رضا الطرفين. و يدعو وكيل العروس إلى إعادة الأقوال التالية: (لقد وافقت على تزويج إبنتي من فلان، و إستلمت عوضاً المبلغ التالي). و يستوجب أثناء الجلسة على الجميع وضع أيديهم على الركبتين و بسطها مفتوحة لكي لا يتسنى لأحد ممارسة أي سحر على العروس. و عندما ينتهي العقد على هذه الشاكلة، تقرأ سورة الفاتحة. و يدخل الخطيبان مرحلة الزواج الشرعي. و بالرغم من أن الزواج

الفعلي لم يتم بعد، فلا يمكن نقضه من طرف الزوج، إلا إذا رغب في الطلاق، بإجراء رسمي و دفع التعويض عنه.

و تبقى الخطوة التالية و هي مراسيم الزواج المؤلفة من حفلة العرس التي تتكون من إجراءات دنيوية صرفة، خالية من المراسيم الدينية. و رغم ذلك فهي مهمة عند جماعة من الناس حيث يغلب عليها طابع المرح و السرور المليئ بالأغاني الشعبية و الرقصات البهيجة من تراث الفلكلور الكُردي. و يتم في نهج ذلك إقتياد العروس إلى دار زوجها. و عشية هذا اليوم البهيج يشترك الأصدقاء من الطرفين في ترتيب الزوجين و تجميلهما. فتذهب العروس إلى الحمام. و كذلك العريس. و تصبغ النساء راحة أيديهن و رؤوس أصابعهن مع أقدامهن بالحناء صبغاً سخياً. و يجري حلق شعر العريس الشاب بمراحل وسط الضحك و تعليق الأصدقاء. و يزال من جسم العروس الشعر كلياً بإستعمال معجون يتألف من مزيج الزنك و الزرنيخ. و يوضع الكحل على عينيها ليزيد بريقهما. فتلبس عندئذ خمارها المصنوع من المغرة الصفراء. و تلبس العرائس في المدن برقعاً أبيض كما تفعل الأوروبيات. و ثمة مجوهرات كثيرة لها وزنها عند المجتمعات الكُردية. و من أنواعها الشائعة سلسلة ذهبية تربط من أعلى غطاء الرأس(فيز)إلى أسفل الحنك و قلادة تتدلى و تنزل على إمتداد السترة حتى أسفلها، و العقود المصنوعة بعضها من الأحجار الكريمة الناعمة، أو من الحلي. يعتقد بأن لها القدرة على إبعاد الشر الذي تسببها العيون الحاسدة. و هناك الأساور مع حزام عريض تزينه الأبازيم الفضية، و قرط ذهبي، أو زر أزرق اللون على شكل زهرة صغيرة يثبت في المنخر الأيسر. و يعلق على الجبين هلال صغير تتدلى منه ثلاثة أقراط على شكل القلوب.

و عندما تكمل زينة العروس تأتي مرحلة إعداد مستلزمات العرس و ضروراته. فيمتطي كل فارس جواده. و تعوض السيارات في المدن عن ذلك. و تحمل جهاز العروس و حاجات مطبخها أمامها. و المقصود بذلك عرض ثروة العريس و مدى كرمه. و يتم في بعض الأماكن، مثل كورداغ، إستعارة الحوائج و الأثاث من منزل الوالدين، و تعاد إليه بعد إنتهاء الحفلة، بعد أن عرفت الناس الإمكانيات المالية التي يتمتع بها العريس. و ستكون خصلة جميلة من العروس ان ذرفت بضع قطرات من الدمع أو تظاهرت به في لحظة فراق منزل أبويها. و لكن المرافقات من صاحباتها سرعان ما يبدأن بتطييب خاطرها و تسليتها بالغناء بإنشودة الزواج(هيڤالى) التي يشترك فيها الجميع في جوقة واحدة، كما

غنين لها عندما كن يساعدنها في إرتداء أبهى حللها و أجمل ثيابها. و يستمر الغناء و يختلط الضجيج بالموسيقى و الرقص حتى وصول الركب إلى دار العريس. و لكن العريس لن يظهر في الحال لإستقبالها، لأن يقتضي ذلك بعض الرجاء و الطلب منه أن لا يترك العروس الصغيرة وحدها دون معين. و تقوم هي أيضاً من جانبها بالدلال و تتظاهر بالإمتناع عن النزول من على متن الجواد. و لكن الأمور تسير في مجراها الطبيعي في آخر الأمر كما رتب لها.

و دخول العروس بيتها المستقبلي تصاحبه طقوس تقليدية تختلف حسب المناطق. إذ قبل عبور عتبة الباب، على العروس أن تخطو فوق شظايا قطع لإناء محطم عبأ بالنقود و الحلويات. و في آذربيجان يلقي أحد أقرباء العريس قطعة من الكعك على عتبة الباب بين قدمي العروس، فتلتقطها هي، ثم تطبع قبلة على عتبة الباب. و أما بين أهل الحق في إيران، فترفع العروس شمعتين صغيرتين عند عبورها العتبة. و يقف العريس أثناء ذلك على سطح الدار، و يقوم برمي قطع صغيرة من النقود مع حبات من القمح و الرز المصبوغ بالألوان الزاهية. و أما بين اليزيديين، فتقوم الحماة عند وصول العروس، و هي على شرفة الباب، بإلقاء السكر و الورود عليها. ثم تنزل و تقدم إليها قارورة مملوءة بالحلويات. و على العروس أن تكسرها على أرض عتبة الباب قبل أن تخطو عليها و تتعداها، و بإتيانها ذلك العمل ستجلب لنفسها الحظ السعيد لمستقبل زواجها. و بعد ذلك، تدخل العروس بيتها الجديد بعد أن تكون قد عبرت من فوق الأجحاف و دم حمل قد ذبح لتوه على مسار قدميها. و في كورداغ تكسر ملعقة خشبية كبيرة بين قدمي العروس قبل دخولها منزل الزوجية. و في توبزاوا العراقية، يطلق سراح طير من قفصه أثناء عبور العروس عتبة الباب. و يقوم العريس أثناء ذلك و هو واقف على شرفة الباب بتسديد ضربة خفيفة، من صولجان يمسكه بكلتا يديه، إلى رأس العروس. و العادة هذه موجودة أيضاً بين كُرد أرمينيا السوفيتية.

و ما أن تصل العروس حتى تبدأ المراسيم الدينية إن لم تكن قد إنتهت بعد و تجلس العروس على منصة منصوبة في إحدى زوايا الغرفة، هادئة لا تنبس ببنت شفة كالوثن تحت خمارها المسدول. و عند إكمال الحشد الغناء و الرقص ملء الفؤاد، و حينما يرهق التعب الفرسان في العدو و الحركات البهلوانية ينتهي الحفل. عندئذ يترك الزوجان الجديدان(بوك و زاوا) لوحدهما فيدخلان غرفتهما الخاصة. و يقوم وصيف الشرف(برا

زاوا) أو (كارداش) بحراسة الباب. و يقدم العريس لعروسه هدية قبل إكتمال الزواج ثمناً لحيائها(رووسورى). و عند ذلك ينبعث هدير طلقة من فوهة بندقية الزوج أو الوصيف، إشارة إلى أن كل شئ قد سار على ما يرام، و إن النجاح قد حالف الزوج، و كل ذلك وسط الهياج و إنبعاث الفرح و السرور. فيبدأ الضيوف بمغادرة الحفلة الى بيوتهم، إن قطعة القماش الشاحب اللون المرفوع من فراش الزوجية تحمل شهادة عفة العذراء. فتقوم السيدة المرافقة للعروس(بيرل) أو (بەربووك) أو(باخەسوو) التي ألقنتها واجباتها الجديدة بعرضها، كشهادة صدق لبكارتها، على الوالدين و الصديقات. و مثل هذه القطع تحفظ عادة عند عائلة الزوجة الشابة حتى يحين وقت إنجاب أول طفل من أطفالها.

البيت الكُردي

و ها هما الزوجان في ريعان الشباب و قد إستقرا في بيتهما الجديد، الذي يكون أحياناً عبارة عن دار يملكانها، و أحياناً عن جزء منفصل من منزل والد الزوج. فتبدأ الحياة بالسير على وتيرتها اليومية و هما في نعيم متواصل، و إذا كان للمرء تصديق الأقوال(فالمرأة دعامة البيت) و (قلعة يحبس الرجل فيها) و إن (المرأة الفاضلة باهظة الثمن) و (الردينة تصفد اليدين كالأغلال) و (هي بحيرة و الرجل نهر). و صفوة القول إنها محافظة أكثر من زوجها في إتحادهما بأواصر المحبة و الإخلاص إلى نهاية العمر، لأن(ژن و ميرد، تيڤر و بير)، الزوجين كالمعول و المسحاة اللذين يحفران قبرهما. و لا شئ غيرها يفرق بينهما، حتى آخر رمق من الحياة. فلا ريب و هما في ذلك الإنسجام و النعيم يستمتعان بلحظات كثيرة من الهناء و السعادة. ففي (نظرات العيون تظهر سعادة القلب). و يخاطب الزوج قرينة الفؤاد(من أجل ينابيع المياه عشقت الجبال). كل هذا الحب، و لا يدعها تاخذ زمام الأمر من يديه، لتقوده لأن كليهما يعرفان موقعهما الصحيح.(فالمرأة الخجلة تظاهي مدينة بأسرها، و أما الرجل الخجول فلا يساوي معزة). و ليس طبيعياً أن(يقبع الرجل في عقر داره، بينما تلبي المرأة نداء الحرب). و (لا ينبغي له أن يصبح ديكاً ليوم واحد و دجاجة طول ايام السنة). و كذلك(الرجل الذي يخنع و يخضع لزوجته شبيه بجذع شجرة مهجورة)، إذا (لا يمكن قيادة المرأة بالتعاويذ). و لا مبالغة في ان النساء الكُرديات يتمتعن بالحرية أكثر مما تتمتع به إخواتهن في جميع الأقطار المسلمة

الأخرى. فهن سافرات برغم تغطية رؤوسهن على الدوام، و يتمتعن بإدارة شؤون البيت و تبقى عروة كيس النقود في أيديهن، يتصرفن فيه كما يشأن. تلقي آراء سيدة دانماركية ذكرناها سابقاً و هي مدام هانسن، الضؤ على الأدوار المتبادلة بين الزوجين في البيوت الكُردية أثناء الحياة اليومية. فتخبرنا في كتابها الشيق للغاية عن سلطة الرجل، فتقول: ليس للرجل أي إمتياز داخل البيت، و مكانته فيه محدودة جداً فتذكر أيضاً بقليل من الدعابة، بأن جل ما يملكه الزوج هو عبارة عن مشجب أو مسمار مثبت في الجدار يعلق عليه ثيابه، و فسحة من الأرض يفترش عليها أو يتناول فيها وجبات الطعام. و يملك فراشاً و سريراً خشبياً ينام عليه ـ و لا غير ذلك. لا يتمتع الرجل حتى في الأوساط الأرستقراطية بحرية إختيار شريك الحياة أكثر من المرأة. و هو معرض الى النقد دوماً من قِبل نساء البيت جميعهن، من زوجته و أخواته و بناته، مهما كانت مراتب عمرهن. و تتمتع النساء الفلاحات بحرية أكثر في الحركة و الإنتقال. و يعود هذا الإختلاف إلى أن الأعمال الصعبة المرهقة تقع إجمالياً على كاهلهن، و لا وجود لمثل هذا الوضع داخل المدن. و بالأخص بين الطبقات المثقفة، و حتى بين المجتمعات غير المثقفة، حينما يكون للرجل أكثر من زوجة. عندئذ يصبح الرجل الشخص الوحيد الذي يعاني من حياة العبودية. هذا في الواقع ان ليس هناك إلا قليل من الشركة بين الزوجين في حياتهما. ذلك لأنهما بمنآى عن بعضهما في عالم تسيطر عليه التعاليم الإسلامية، و لكن مع ذلك، فبإستطاعة الرجل أن يكنّ المحبة الحقيقية لزوجته و يكسب قلبها و يثق بها لأن من شيمته إحترام النساء جميعاً. بذلك تضمن المرأة مكانتها في بيتها، فلا عجب أن نرى بعضهن و قد إستلمن دفة الحكم داخل عشيرتهن أو في المدن، لأن الشائع بين الكُرد أن من يضع نفسه في حماية إمرأة يضمن السلامة لنفسه.

بجوار المهد

كيفما كانت قيمة المرأة في نظر العالم فالمرأة الكُردية ملكة متوجة في بيتها، (خلق الباري المرأة لكي تخلق بيتاً)، هذه حكمة كُردية. و (يسبغ الله نعمته على إمرأة تلد غلاماً) لتكتمل سعادتها و تصبح أماً. أليس هذا هو السبب في زواجها المبكر؟ (تزوج في شبابك كي تتمتع مبكراً بصحبة أولادك). و العبارات موكولة بتحقيق هذا

الغرض(إذا أراد رب العالمين سيجعل من الأرض الجرداء مرتعاً يانعاً)و(عندما يشأ أن يجعل المرأة تلد سيلقي ثلاث قطرات من النور على جبينها) لأن (الأطفال ثمار البيت) (فمنزل ثراؤه من الذهب يمكن هدمه، و إن كان غناه من الأبناء لن يتهدم). و هناك قول حكيم يتحدى كل شعور يتسم بالأنانية(لا يزور الشيطان داراً فيها طفل).

أي سرور ينتابهما، الوالدان، عندما ينثنيان على المهد و يلمحان أول إبتسامة كي يداعبا الطفل و يسمعا فلذة الكبد ينطق لأول مرة. و إذا كان الوالد فظاً سيصبح وديعاً لين الجانب، عندما يصغي إلى أغنية المهد تتمتم بها الأم اليافعة بهدؤ لتهدئة طفلها و تسليمه إلى عالم الرقاد. و ثمة أغاني المهد الكُردية الكثيرة ألفتها الجدات، و يشترك في نظمها الآباء أحياناً. ذلك لعمري دليل حب طاهر مملؤ بالحياة. هناك أغنية لشاعر كُردي سوفييتي مليئة بأرق العواطف الممزوجة بمعاني الأفكار للروح العصرية.

نم، نم، يا عزيزي
عيناك ينبوعان دافقان يتلألآن
تحت قوسين من حاجبيك.
حينما أتطلع إليك يملأ الحب قلبي.
فنم هنيئاً هادئاً يا حبيبي.
يا طفلي الغض الرقيق
إكبر سريعاً و اصبح لأبيك ظهيراً.
فأكبر بسرعة، لتكن شجاعاً قوياً.
لتحفظ عالمنا الجديد.
نم هنيئاً هادئاً يا حبيبي،
ها قد أتى الليل، و نام والدك،
و نام الغزال الصغير بجانب أمه،
و غابت الأنجم، و طلع القمر،
و رقدت الهضاب، و الجداول.
فنم هنيئاً هادئاً يا حبيبي، يا طفلي العزيز.

ولإجتناب ما لا يحمد عقباه تلبس المرأة الحامل في السليمانية تعويذة(دوعا به ند) عبارة عن آيات قرآنية كريمة. و لا يجوز إستنساخها من قِبل إمرأة أخرى، لأنها إذا فعلت ذلك فسوف لن تنجب ذرية في هذه الدنيا.

و جرياً على العادة تبقى المرأة أثناء المخاض و الولادة في بيتها تحت رعاية القريبات و الجارات اللائي يملكن الخبرة الواسعة في هذا العمل، و ذلك لندرة القابلات المؤهلات و حملة الشهادات المهنية. و عند الحالات الصعبة في الولادة يتم اللجوء إلى الوسائل المستندة على الخرافات كلياً أو جزئياً. فنجد في السليمانية أدعية محفورة على قطع من الأحجار تجمع من المساجد، و توضع على ظهر الحامل أثناء مخاضها، لتيسير الأمور و تسهيلها. و أما بين نساء عشيرة شمس الدين عندما تحدث مثل هذه الظروف يوضع سيف(خان لب زيرين)، أي الخان ذو الشفتان الذهبيتان، بطل ملحمة دمدم، على فراش السيدة التي تعاني آلام المخاض، و يعتقد المسيحيون في دهوك بأن لجدلة الكنيسة الخصائص السحرية الضرورية لذلك الغرض. و يقطع حبل المشيمة بمقص أو بحجر حاد، و لكن بحذر شديد لئلا يقع الحجر على موقع خطر، عند إتمام العملية. و تؤخذ الحيطة بكل دقة. لأنه إذا وقع على سلاحٍ فسينمو الطفل محارباً عظيماً. و إذا وقع بمحض الصدفة على صحن، سيصبح نهماً أكولاً. و من الضروري في جميع هذه الأحوال إتخاذ الحيطة أيضاً من الأرواح الشريرة و يعتقد الناس في إيران و أرمينيا السوفيتيية بأن الشيخ(آل) أو (هالانس) يمزق كبد المرأة و رئتيها عند المخاض. و عند اليزيديين(ربى رەشه) أي مواد الليل قد يخنق الطفل أو يؤذيه مع أمه. و عند المكريين(حه حه) و في السليمانية الغول(شەوه) و هم جميعاً من عنصر واحد، يريدون القضاء على الطفل بمجرد إيواء المرأة إلى فراش الولادة. و لمنع هذا الخطر، توضع نسخة من القرآن الكريم على فراشها و معه سيف و قطعة حديد و عدد من التعاويذ لإبطال وجود أي سحر. إذا كان المولود ذكراً يتناوب الرجال في العائلة على حراسته مدة أسبوع ليلاً و نهاراً في غرفة الولادة. و لا تستطيع القابلة و النساء الحاضرات مغادرة المنزل أثناء هذه الفترة التي يليها النفاس، و لا يجوز لهن إستعارة شئ من الحاجات المستعملة للولادة. و لا حاجة للذكر بأن يمنع على كل إمرأة تعاني آلام المخاض الدخول على الأم الحديثة الولادة لأن ذلك يجلب لها النحس. و يدثر الطفل بعد الولادة بقماط ثم يوضع في سريره الصغير. و هناك ثلاثة أنواع من أسِرَّة المنام الخاصة للأطفال عند الكُرد، أكثرها شيوعاً هو المهد الهزاز و الأرجوحة الشبكية المعلقة على

عمودين، و أخيراً المهد الثابت، و هو مخصص لطفل كبير السن. و توضع في الوسادة داخل المهد فتحة لإدخال(بلوير) و هو أنبوب خشبي لتفريغ البول إلى الخارج. يؤكد الإنثروبولوجي، إج فيلد، العالِم الإختصاصي في علم افنسان، وجود تشويه في عظم الجمجمة، يتولد من إنبساط القذال(مؤخر الرأس) بنتيجة إستعمال نوع معين من الأمهود، خاصة لدى الكُرد الذين لهم إتصال مع الأرمن في حياتهم اليومية.

تحضى الأم بتقديم الهدايا الكثيرة إليها، خاصة إذا كان المولود ذكراً. و تختلف الهدايا حسب تقاليد العشيرة و مركز العائلة الإجتماعي. و يمكن تقديم الذهب إلى الوالدة أو كبش لذبحة الى الوالدة أما هدية الطفل فهي عبارة عن مهر أو مسدس صغير أو خنجر، و يجرى الإحتفال بولادة الطفل دون إستثناء بتنظيم مأدبة لعقد ليالي السمر و إطعام الضيوف.

و الشائع أن تختار الأم إسماً لطفلها، و قد يكون للملا رأي في ذلك. و لا شك بأن للكُرد، كما نتوقع، أسماء مشتقة من الإسلام كمحمد و أحمد و محمود و صالح ....إلخ، و كذلك علي و حسن و حسين. و لكن توجد أيضاً أسماء كُردية خالصة مثل ضولو و سند و مند و خدادة، أو أسماء إسلامية حورت إلى كُردية، مثل، محو (محمد)، رشو(رشيد)، حمو(حميد)...إلخ. و توجد الأسماء التأريخية التي لم يقدر لها أن توضع في طي النسيان، و هي خسرو، قباد، جمشيد، فريدون، كوهدرز و بهرام. و يشير الإسم أحياناً إلى فضائل يتمناها الوالدان لمولودهما الجديد، أو الى ألأنواع المختلفة من الأزهار و الفواكه، أو حتى الحيوانات المتميزة بصفات مرغوبة عند الناس بصورة عامة، و هكذا، فبالنسبة للأزهار توجد(طولآ) الوردة و (نيرطز) النرجس، و بالنسبة للحيوانات هنالك غزال و قمري....إلخ و هذه الأسماء مخصصة للبنات، وأما بالنسبة للذكور يوجد(شيَر) الأسد و (ثلَنط) النمر و (شاهين) الصقر.

و عملية الختان سنة(إلزامية)، تتم في اليوم الخامس أو السابع لولادة الطفل. و ربما يقوم بها الملا بنفسه. و في السليمانية كانت العملية قبل خمسة و عشرين سنة، تجرى بعد أن يبلغ عمر الفتى سبع أو عشرة، سنوات وهي عادة لا زالت جارية في إستنبول. و تصبح مناسبة سعيدة لحفلة صغيرة، يلبس فيها الأطفال سراويل قصيرة و قمصان بيضاء و احزمة معكوفة على الأكتاف، تزينها الفصوص بإنسجام مع أغطية الرؤوس الفضية، و المتكفل برعاية تلك الحفلة ليس من الضروري أن يكون فرداً من العائلة، بل يكفي أن

يكون ذا سمعة حسنة. و ما هو أغرب من ذلك أن يكون واحداً من بين الذين إغترفوا ماء(الينابيع السبعة)، رمز العلوم و المعرفة. و لا يوجد لدى اليزيديين أي مانع ليتولى مسلم الإشراف على مثل هذه الحفلات، و لكن لا يوافق اليهود و النصارى على هذا العمل إطلاقاً. و ثمة كُرد لا يترددون في الطلب من المسيحيين الذي هم أهل لهذه الثقة. و لا شك بأن مبادرات كهذه تساعد في عقد أواصر المحبة و الصداقة بين الطرفين. و بالنسبة لختان النساء، تلك العادة الهمجية التي أثارت الهيئات النسائية في مصر، لا زالت تمارس في السليمانية. و ذلك لن يكون إلا بعد بلوغ الفتاة سن الثامنة أو العاشرة. و هي عادة غير شائعة، مع ذلك. و لكنني علمت بأن(الماما ن) و هي المرأة التي تقوم بإجراء العملية، ينبغي لها أن تكون حاذقة جداً في مهنتها هذه.

و يتأخر الفطام لأمد طويل، يرضع فيه الطفل مدة عامين أو أكثر. و توحى إلى المرأة بأنها لا تستطيع الإنجاب مادامت مستمرة في إرضاع طفلها. و يكون الإنجاب متعاقب على الأغلب لا تتخلله الفترات الطويلة، ذلك لأن المنع ممقوت عند العامة من الكُرد و في حالة إرضاع إمرأة أطفالاً متعددين، سيصبح هؤلاء أخوة بحكم الرضاعة التي تخلق أسساً للقرابة و سوف تمنع سبيل الزواج في المستقبل.

الأطفال و تربيتهم

يميل الكُردي إلى تكوين عائلة كبيرة، خاصة لإرتفاع نسبة الوفيات بين الأطفال، الأمر الذي يضع ضرائباً باهضة على حصيلة الولادة. لذلك تحاول الأُم بكل عناية أن تحصن فلذات الأكباد ضد الأرواح الشريرة، لذا تزودهم بالرقى و التعاويذ، فتعلقها على أغطية رؤوسهم وأكتافهم لإبعاد عين الشر عنهم، و تضع على قبعات الصغار النميمات و الأدعية التي تتنوع أشكالها، و يتم إعدادها من أسنان الذئاب و العقد و النفل و العقيق(اليشب) و سمك سليمان و الجزع(العقيق اليماني) و جذور اليبروح(اللفاح) و أنواع أخرى مختلفة من الأحجار و الأخشاب. و تحمل أذرع الأطفال حقائب صغيرة متعددة نقشت فيها الآيات القرآنية. و هناك براثن الأربيان(جراد البحر)، يتم تغليفها بخرقة مخيطة بثياب الطفل، لأنها تعتبر إلى الوقت الحاضر بأن لها تأثير فعال ضد نكد العيون و شرها.

و بالرغم من أن الطفل لا ينال قسطاً كبيراً من الملاطفة و التدليل، إلا أنه نادراً ما يعامل بقوة على أعضاء جسمه. و أما لعب الأطفال فغير معروفة عملياً، و لكن الطفل يصنع لنفسه عربة صغيرة من الخشب و الأسلاك. و تصنع الفتاة الصغيرة الدمى من أقمشة قديمة. و يقضي الولد أيامه جميعاً بين النساء، و لكنه بمجرد أن يستطيع الركض يظل طول الوقت خارج البيت يلعب في الشارع مع أقرانه.

و لا وجود للمدارس في أغلب القرى الصغيرة، و في الحالات القليلة عند وجودها، يقوم أحد الملالي أو الشيوخ المتحمسين بتدريس الصغار الأذكياء قراءة القرآن. و عندما توجد المدارس فحالة البيت و أوضاعه لا تناسب الدراسة، حيث لا يوجد فيه مكان ليضع فيه الطفل كُتُبه و دفاتره. و ليست هناك خلوة أو جوّ مناسب ليطالع التلميذ فيه دروسه، أو يعد واجباته اليومية بهدوء. فهو غالباً ما يرسل إلى الخارج ليعتني بقطيع الغنم. و يقضي بقايا أوقاته وسط البالغين يصغي إلى أحاديثهم و يستفيد، إلى درجة أنه حينما يبلغ أشده لا يكون جاهلاً بأسرار الحياة و شدة مصاعبها، و إذا جاء الوقت المناسب يكون قد جهز نفسه بالسلاح المناسب لمجابهة عاديات الزمن بعد أن تربى على هذا الأسلوب الخشن.

الفصل السادس

أوقات الفراغ

أوقات الفراغ

يجعل مناخ كُردستان من أهلها مواطنين أقوياء صحيحي البنية، إلى درجة إنه غالباً ما يسبغ على محياهم مظاهر الخشونة. و لكن الكُردي يملك سجايا و طبائع مرحة. فهو حاضر البديهة في حديثه، و عاطفي بلا شك، حيث تنكشف هذه الأوجه عن شخصيته في مناسبات عديدة، رغم صعوبات حياته اليومية التي مهما بلغت شدتها، تتخللها أوقات فراغ يخلد فيها إلى الراحة.

الإيقاع و الأغاني

تصحب جميع الإحتفالات العائلية مثل الولادة و الختان و بالأخص الزواج، أغان و رقصات. و الواقع أنه من الصعب بمكان تصور حفلة زواج كُردية تخلو من الرقص. فالرقص ملهاة الحياة يتسلى بها الكُرد في جميع المناسبات الفرحة. و لا شئ في رقصاتهم تشبه الهز و الرجفات الغربية. و ثمة أشكال كثيرة تعرف بأسماء مصادرها، إبتداءاً من الرقص العربي إلى الدبكات الكُردية(ديلانآ).

و لا حصر لمنوعات الرقص التي غالباً ما تقتبس أسمائها من أماكن النشوء، فمثلا: (أمودى) جاء من آموده و (بؤتانى) من بوتان و (روحايى) من روحا و(شيَخانى) من شيخان....إلخ و تشبه الرقصة الأخيرة الدبكة اللبنانية تقريباً و تستنبط الرقصات أسمائها أيضاً من الحركات التي تؤديها. فهناك(طؤظند) و تغلب عليها الحركات الدائرية. يشبك فيها الراقصون أيديهم، أو يتأبطون الأذرع اثناء الخطوات. و توجد رقصة أخرى فيها تأرجح قوي الإيقاع جيئةً و ذهاباً. و يصحبها الناي و الطبلة. و رقصة أخرى تسمى(سوطاظى) أو (سآ ثيَى) أي الخطوات الثلاث و (ضارثاني) عبارة عن أربع خطوات و (طيراني) رقصة بطيئة و (خيرفاني) متراخية و(تيشطوك) و (ميلاني) اللتان يرقص فيهما المشتركون كتفاً لكتف و(آيشوك) أي العائشة الصغيرة، التي يشكل فيها

الراقصون و الراقصات دائرة كاملة. و التلاميذ و التلميذات لهم رقصة خاصة بهم من نوع رباعي تسمى(بيَليتة) أو (بيَلوتة). و كانت في الماضي تتسم بطابع ديني فقدته في هذه الأيام. و رقصة ضوئي شائعة جداً، تقل فيها الوثبات و يلوّح رائدها(سَرضوئي كيَش) بمنديل في إحدى يديه، و يقود بالأخرى الراقصين و الراقصات حيث يتقدمون إلى الأمام ثم يتراجعون إلى الخلف في خط واحد، و يبدأون بالتحرك جيئةً و ذهاباً إلى جهة أخرى. و توجد فيها حركة متموجة هادئة تسري على الحلبة في تناسق مع النغمات الموسيقية، فتشبه حقلاً من القمح عندما يدغدغه نسمات هواء عليل(ميلينغتون). و إذا إشتركت النساء في رقصة(ضؤئي) الشائعة في القرى، تسمى عندئذ ب(رةش بقَلَتك) أي المتنوعة. و تشمل هذه الرقصات(بيربو) أم الحليب و (تيمزازا) و (شيَخاني) التي ذكرناها سابقاً. و هي نفسها عند الآثوريين. و لرقصة السيف(ديلانه سرومرتال) سحر آسر يمتع الناظر لأنها تتطلب مهارة فائقة و تفعمها الحيوية و النشاط.

و كذلك الأغاني، فهي كثيرة و متعددة الأنواع. فالأغنية بعينها تختلف عند غنائها بالنهار عنها في الليل. أو عندما طفل يؤديها أو إمرأة، فهي تتبدل حسب الأصوات، إن كان المغني مثلاً شيخاً أو شاباً. و لا يشبه في الجبال ما نسمعه في السهول. إنها دوماً في تبدل مستمر. و هكذا الشاعر الكُردي(ياشار كمال) عندما يعبر عن أحاسيسه بتنوع لا نهائي في أغانيه الكُردية. و كذلك في الملاحم ذات المواضيع الحربية(شترِ) التي تعرف ب(ديلال) في السهول و (لاووكي سواران) في الجبال. و الملاحم هذه عادة تكون طويلة جداً، و فحوى مجريات مواضيعها معروفة عادة: تغني المحبوبة و هي في بيتها خاطرات الحرب و أهوالها. و تشيد بمثالب بطولات فارسها في المعارك عند سفوح الجبال و تزهو بمفاخر إنتصاره. و نستطيع أن نقول بأن لكل عشيرة(ديلال) خاصة بها. و علينا أن لا نخلط بينها من جهة و بين الأشعار الدينية الطويلة و سور القرآن التي تلقى بلحن و قور حزين من جهة أخرى. و ثمة مجموعة من الأغاني القصيرة للتسلية بعد إكمال واجبات الأعمال الشاقة اللانهائية في كل يوم. و أما (بند و لاظى) فهي أغان تصاحب المغزل حين تهمهم بها الفتيات أثناء غزلهن. و أغاني الحصاد (ثاهيزوك) في فصل الخريف و التي يتبادل فيها الفتيان و الفتيات الألحان بالتناوب عندما ينحدرون في نزوهم من الجبال بعد إنقضاء فصل الصيف. و أغاني الربيع(سيريله). و كل ذلك فضلاً على أغاني الرقص التي لا حصر لها(ديلوك) و التي يصاحبها المزمار و الدف. و لقد أشرنا سابقاً إلى أغاني

العرس(هظالی) أو (شيريزاظانو) التي تنشدها المرافقات للعروس الشابة عند دخولها البيت الجديد. و أما (لورى) فهي أغاني المهد تنتمي إلى صنف خاص لبساطة تعبيرها و جاذبية معانيها.

و تشكل الألحان الكُردية جزءاً من الموسيقى الشرقية، تتفق معها في النمط و الأسلوب. و لكن رغم تأثرها بالألحان للشعوب المجاورة، لا يجوز الخلط بينها و بين الموسيقى العربية أو التركية أو الأرمنية، ذلك لأن الثقافة الموسيقية قد بلغت أعلى مراتب التطور في عهد الإمبراطورية الساسانية، و إنتقلت إلى الكُرد و إحتفظوا بتطورها و خطوا في مسرى تقاليدها. حيث عاش أثناء ذلك العهد البهي الموسيقار الموصلي الكُردي الشهير زرياب(٧٨٩ ـ ٨٥٧) الذي صار حكماً للذوق الرفيع بعد إستهلال مهنته في بغداد، و المواظبة عليه بنجاح باهر منقطع النظير في قرطبة عند بلاط عبدالرحمن. و كان أول من أسس معهداً موسيقياً هناك. و إتسمت الموسيقى الشرقية التي أدخلها في هذا البلد بطابعها الأصيل، لا نزال نتذوقها في الألحان الأندلسية و في الأغاني الغجرية الموجودة لحد الآن. و في الحقيقة إننا مدينون إلى زرياب لإضافته وتراً خامساً إلى آلة العود. و لا زال التأريخ يحتفظ بأسماء مجموعة أخرى من الموسيقيين الكُرد الذين عاشوا في القرن التاسع من أمثال إبراهيم بن مهدي و إبنه إسحاق الموصلي و حفيده حماد. و نقول بأنه من أينما أنبعت و أينعت أصول الموسيقى الكُردية مع ما فيها من المفاخر و مجد ماضيها، فاليوم لا نجد فيها تعقيداً. بل و سمة من طابع شعبي متناسق غير متكلف. فلألحانها الكثيرة المتنوعة مميزات خاصة، و رتابة تؤثر في القلب. و في الواقع إن أنماط الموسيقى الكُردية تملك طابع التغيير في طبقات الصوت مع التناسق التام الذي يساوره نغم حزين يأخذ بالألباب. فلا يستطيع المرء أن يتصور كيف يتسنى لهذا الطابع العاطفي البارز في جميع الأغاني الكُردية أن يؤثر في القبائل المعروفة بغلاظتها و ميلها إلى النهب و السلب . هذا ما كان يرتئيه أدوارد دولوير منذ قرن من الزمان، و لم يفت المسافرون الغربيون ملاحظته، فأستهوى بعضهم سحر ألحان الموسيقى الكُردية الفريدة من نوعها، و إعتبرها الآخرون سطحية لا تجدي نفعاً لخلوها من تنوع الألحان و التناسق التام على رغم وجود سبع عشرة درجة في طبقاتها الموسيقية. و من الغريب ان أول من جمع و درس قسماً من الأغاني الكُردية الشعبية هو قس أرمني(١٨٦٩ ـ ١٩٣٥) كان صاحب إحساس فني. و لكن قدم لنا الدكتور دي كريستينس في عصرنا الحديث دراسة أكاديمية

عميقة حول الموسيقى الراقصة و الآلات الوترية و الصوتية في منطقة حكاري. فقام بتحليل ألحانها و نماذج إسلوبها. و لكن الكُرد أنفسهم يتشوقون الآن إلى توحيد الموسيقى الشعبية لديهم، بأمل عدم ضياع تراثها الثمين. فشكل الطلاب في العراق جمعيات لأجل تحقيق هذه الغاية و تطوير الموسيقى الكُردية و المحافظة على ثروتها. و قام أيضاً كُردي شاب و هو جميلي جميل في أرمينيا السوفييتية بنشر مجموعة من الأغاني الكُردية(١٩٦٠).

والآلات المستعملة من قِبل الكُرد غالباً ما تكون ذات صناعة بسيطة. فالرعاة جميعاً يحملون في جعباتهم الـ(بلوێر) أو المزامير البسيطة. و يصاحب الـ(زرنا)و هو مزمار قصير(ئيربان) أي الطنبور و ال(دەهۆلّ) الطبل الكبير في الرقصات و يبلغ طول المزمار الثنائي (جووزەلة) عشر إنجات. و يتألف من قطعتين مجوفتين من القصب، تم تثبيتهما على البعض. و توجد على طول هاتين الإنبوبتين ثقوب لوضع الأصابع عليها. و أما النوعية الجيدة من المزامير ذي الصوت العميق فتصنع من عظام الطيور الجوفة. في قصبتين آخريتنى أكثر طولاً . و توجد في قصبة الفوهة قطعة مرنة مقطوعة بصورة طويلة ضيقة، تساعد في إحداث الإهتزاز. فعند العزف عليه، يوضع الجزء المخصص للفم بين الشفتين. و ينفخ فيه، فينتفخ الخدان كبالونين. و تحدث صوتاً أشبه ما تكون بالقربة الإسكتلندية. و هنالك الرباب و الكمان و الكمانجة و العود و الطنبور في رقصات الفلاحين. و يضبط اليزيديون في بعض الأحيان إيقاع ترانيمهم الدينية بضربات على الصنج(خلايل)، و هي قطعتان من النحاس تضرب الواحدة بالأخرى.

(تروبادور) المغنيون المتجولون

(كل كُردي شاعر) هذا ما قاله الكاتب الأرمني أبو ظيان(١٨٠٤ ـ ١٨٤٨) قبل قرن. و كان حري به أن يقول كذلك بأن كل كُردي يحب الغناء و الموسيقى. و لكن هنالك المتخصصون أيضاً في فن الغناء(سترانڤان)، و بالأخص المغنون المتجولون (دەنگبێژ) و القصاصون(چيرۆكبێژ) ذو المكانة و الإحترام الكبيرين. فلا يجوز الخلط بين هؤلاء و بين المطربين الشبيهين بالغجر تقريباً، من غير المنتمين إلى العشائر، بل إنما يتجولون من مكان لآخر للترفيه عن الناس. و لكن أخذ هؤلاء المغنون الجوالون مع الأسف يختفون

بسرعة كبيرة، ذلك بسبب وجود أجهزة الراديو و الترانزيسترات في القرى النائية. فأصبح بالإمكان سماع الأغاني الكُردية من إذاعة بغداد و الإذاعات الموجودة وراء الستار الحديدي. و لا يهم من أين يكون مصدر ذلك المغني، فهناك رجال و نساء يحبون الإستماع إلى الأغاني المفضلة من مطربيهم. و لا يندر أن نجد القصاصين أثناء أمسيات الشتاء الطويلة و قد سحروا السامعين بحكاياتهم العجيبة التي يملكون منها الذخائر الواسعة، فيستمر سردهم لها عن الوقائع و الأحداث و المغامرات ساعات طوال، حتى يخلد الأطفال إلى السكون، ثم النوم في أحضان أمهاتهم. و تطعم هذه القصص بأبيات من الأشعار الجميلة. و هناك من يساعد الراوي أيضاً بإخراج صوت يشبه الإيقاع الموسيقي لئلا يضيع طريقه أثناء الإلقاء. و حتى إن تاه القصصي فلن يضر ذلك شيئاً، ما دامت الأعاجيب و الغرائب و الأبطال يسلبون قلوب العذارى و الحوريات بشجاعتهم و قوة بأسهم و ضربات سيوفهم القوية، فيظل الجميع في سرورهم و السعادة تملأ قلوبهم إلى أن يرهقهم التعب و لكن لن يراودهم السأم و الملل أبداً.

هنالك روايتان إسطوريتان تحملان طابعاً شعرياً خيالياً نسردهما بإختصار: حدث إن عاشت بين حرم فاتول خان في إيران فتاتان حسناوان، أجملهما و أفتنهما كانت(زوليخا) بكل تأكيد. و كانت هي حبيبة فاتول الذي قال لها (إطلبي يا حبيبتي ما يرغب فيه فؤادك، سأجلبه إليك حتى و إن طلبت القمر بذاته). و لكن زوليخا كانت قانعة. لم تطلب منه إلا قصاص (دەنگبێژ) يغني لها عن جمال القمر.

و صادف أن يمر في ذلك الوقت بجانب القصر في أصفهان حيث تسكن زوليخا قصاص إسمه (تاري). فسمع صوت الغناء يعلو من القصر وسط الغناء و الأفراح. فقرر أن يدخل و يشارك الفرح. فلمح زوليخا عن بعد و هي في طلعتها البهية و حسن منظرها الفتان في فستانها المخملي جالسة على عرشها، أميرة حسناء يخدمها حشد من الفرس و العرب. فأعد تاري قيثارته ليعزف عليها. و ما كاد يلمس أوتارها حتى جمد السامعون و صعقوا بشجي صوته و سحر ألحانه. فخلب النغم الجميل لب زوليخا، فلم تصبر إلا و اقتربت من القصاص المغني، و بادلته النظرات. فأخذ الطرب بالمغني فأرتفعت عقيرته بالغناء عالياً. فبهر الجميع و إنهمرت الدموع من الأعين مدراراً. و بالأخص من عيني زوليخا. و سالت على وجنتيها. حيث كان القصصي يغني (أنا العاشق الولهان، تاري، أحببت الغناء لأجل الحرية. فأعبر عن لوعتي و ضنى فؤادي و شقائي و مصائب حياتي

و عوادي الأزمان). فلمست تلكم الكلمات أوتار قلب الأميرة. فأخذت أساريرها تكشف عن مكنونات قلبها الولهان، الذي سرعان ما وقع أسيراً بين يدي الموسيقار، ذلك الهيمان في ريعان شبابه. و إستمر القصاص في غنائه إلى أن أسدل الليل ستاره، و إنغمر القصر في أتون الظلام. و سكنت الحركات و الأصوات و حتى الهمسات. و لكن زوليخا ظلت وحيدة لا يقر لها قرار، و لا يدخل في عينيها النوم. فكانت تلقي بنظراتها من النافذة، يساورها القلق فيما إذا كان تاري قد غادر القصر، متوجهاً إلى مكان سوف لن تعرفه. و لكنها سرعان ما سمعت صوتاً على الباب عندما فتح على مصراعيه. و ظهر تاري من خلاله. فهرع العاشقان و إشتبكا في عناق طويل، و لكن السعادة الكبيرة لم تدم و شاء الحظ غير ذلك. لأن خانتها أمَة من خادماتها الفتيات و أخبرت فاتول عن أمرهما. ففاجأهما و هما يتبادلان القبلات. فصعقا و جمدا كصنمين في مكانهما.

نصبت مشنقة في وسط ميدان أصفهان. و علق عليها تاري، ذلك الغريب التائه الولهان الذي لم يكن يعرفه أحد. فكانت نظراته الأخيرة قبل أن تفارقة الروح منصبة على حبيبته زوليخا عندما كانت تراقب ذلك المشهد المرعب على ضفاف النهر القريب. فأخذت تشهق بالبكاء و العويل. فقادت الخادمات أميرتهن الحزينة راجعات إلى القصر. فبينما كن منهمكات في تهدئتها و التخفيف عن لوعة أحزانها، إلتفتت و لمحت الفتاة الخائنة التي أفشت سرها، و هي سائرة في الطريق، فما كان لها إلا أن تستل خنجراً من غمده و تغرسه في قلب تلك الخائنة الغادرة.

و لم تستطع زوليخا نسيان حبيبها أبداً. فأخذت تزور مثواه و تتردد على قبره لتنثر الأزهار عليه و تندب و تنوح بجانبه. و ظلت وحيدة على هذه الحال في القصر لا تكلم أحداً. و كان فاتول آغا يجلس بجانبها يحاول أن يخفف من روعها، يداعبها و يلاطفها بالتدليل دون جدوى. و حدث أن علم فاتول بأن زوليخا تغادر القصر يومياً. فهَمَّ بها ليضربها، و لكنها أفلتت من يديه و فرت هاربة. فأمر فاتول بإخراج جثة تاري من القبر.

شحبت الفتاة بعد ذلك من فرط الأسى. فشرعت أثناء الليل حينما كانت النجوم تتلألأ في كبد السماء تبحث في سهول أصفهان و براريها و قفارها عن بقايا جثة حبيبها الذي يسكن في قلبها ما بقي رمق من الحياة في عروقها. فسرحت في الفيافي تبحث في أوكار الثعالب و مأوى الذئاب و مثاوي الحيوانات المفترسة. تولول و تنتحب، فبدأت في

نواحها ترجو الذئاب و تتوسل الجبال و الأشجار كي ترشدها إلى مثوى حبيبها تاري، فدخل في روعها إنها قد جُنَّت. فتخيلت سماع صوت يشق عنان السماء مدوياً، يصدر من بعد شاسع. فأرتجت أمواج النهر له. و لكن لم يكن ذلك الصوت إلا أرنباً صغيراً ينطلق من بين الأحراش راكضاً. و لكن تمهل، ها هو القمر قد طلع وأخذ يلقي بأضوائه الساطعة على الكون حوله. فلمحت زوليخا في ذلك الضؤ عظاماً بشرية تحت جذع شجرة. فاقتربت فشاهدت جمجمة سليمة، عرتها الأمطار الثلوج. فركعت بجانبها جالسة في ضؤ القمر تبكي، إلى أن تعبت و نال منها الإرهاق. عندئذ نهضت تمشي تحت وابل الأمطار و المنهمرة، و هبوب الرياح، على طريق أصفهان مدة ثلاثة أيام إلى أن وصلت إلى القصر، فدخلته بعد أن تركت وراءها رونق الحياة و بهجة عمرها و شبابها.

كان في قديم الزمان يعيش في سيثان داغ شاب جميل وسيم الطلعة يدعى سيامند، يعمل صياداً لدى قبيلة(زيلي). وقع هذا الغلام في غرام(خجي) الفاتنة فأحبها حباً شديداً. و لكن سيامند كان معدماً فقيراً، لا يملك مهراً للزواج منها. لذا هرب بمحبوبته إلى الجبال ليعيشا هنالك معاً بهناء، بعيدين عن هموم الحياة و شقائها. بقيا هناك على هذه الحال مدة ثلاثة أيام. و في اليوم الرابع من سعادتهما نعست عينا سيامند فنام، ووقع رأسه على ركبتي خجي. و حدث في تلك اللحظة أن مر قطيع من الغزلان بالمكان. و كان من بينهم غزال كبير، أضخم الغزلان جسماً و أجملها طلعةً. فغدا به يمسك أنثى من القطيع و يهرب بها. فبكت خجي لهذا المنظر و سالت من عينيها الدموع. فوقعت قطرة على خد سيامند فأستيقظ. عندما رأى خجي و الدموع تنهمر من عينيها تأثر فقال لها إن كنت قد تزوجتني قهراً، رغم إرادتك، سأعاملك منذ الان كأخت، و سأعود بك إلى أهلك، فقالت له(لا يا حبيبي سيامند، إنني أحبك، و سأبقى زوجتك المخلصة إلى آخر رمق من حياتي. أبكي لأنني شاهدت الوعل الهائل يأخذ بناصية غزالة، و يسحبها من القطيع دون أن يتجاسر أي غزال آخر على مخاصمته فيمنعه. كان ذلك الوعل شجاعاً مثلك، فذكريات بسالتك و صدق همتك دفعتني إلى البكاء من شدة الفرح الذي إنتابني). و أين ذهب ذلك الوعل بالغزالة؟ سألها سيامند. فأشارت خجي إلى الجهة التي هرب إليها. فصاح سيامند. أنا صياد. و ليس في هذه الجبال اقوى مني بأساً. و هأنذا أسمع بأن وعلاً يأخذ غزالة من القطيع تحت سمعي و بصري. ما أعظمها من إهانة! فقام و إندفع سريعاً في إتجاه سير القطيع يتعقب الغزلان. و ما إقترب و شاهد

الوعل حتى سدد إليه سهمه، فأصابه. و لكن الوعل إستطاع أن يتمالك نفسه. فجمع قواه. ثم هجم على سيامند ، و نطحه بشعاب قرونه نطحة شديدة. و وقع صريعاً ملطخاً بدمائه. و لكن سيامند وقع أيضاً، في وادٍ منحدر سحيق. و هناك عثرت عليه خجي، و جراحه تقطر الدم بغزارة مما أوحى بإقتراب موته. و في أعماق تلك الهاوية مالت عليه خجي تنتحب و تذرف الدموع بغزارة . و أخذت من شدة آلامها وحِدة غضبها تلعن الغابات و الأزهار و كل ما في الطبيعة من الرونق و البداعة. فتسب مياه العيون و أحراش الجبال و شجيراتها، و حتى الفواكه. و بالأخص الحشائش و الكلأ التي رعى عليها الوعل، فوهبته تلك القوة الهائلة التي إستطاع بها قتل حبيبها سيامند. و في غمرة ذلك اليأس القاتل إستمرت تشتم المراعي النظرة و خصوبة الأرض و النسائم العليلة المثقلة بأريج العطور و عبيرها، و كذلك أزهار الجبال و الشمس الساطعة التي تشع على سلاسل جبال سيثان داغ، ملاذ الوعل، ذلك الوغد الشرير، و من فرط آلامها و شدة أحزانها فارقت الحياة، و وقعت جثة هامدة على حبيبها الذي لم يكن فيه حراك. و منذ ذلك الحين، نمت في تلكم البقعة شجرة دائمة الخضرة تحمل أجمل الأزهار، و تذكر العابرين بسلطان الحب.

الإحتفالات و المهرجانات الموسمية

كما هي الحال في الحفلات العائلية الصرفة، هناك المهرجانات الموسمية التي يحتفل بها الرعاة و أهل الريف و تكون متنوعة. فعندما تلد الشياة يحتفل بـ(سرثيذ) و بـ(بتروودان) عند مغادرة العشيرة إلى (زوزان) المراعي الصيفية. و يحتفل بـ(بترخبر) في فصل رعاية الأغنام. و من أعظم المهرجانات(بتران بتردان) المسمى عند الأتراك بـ(كاسيم) و تجري عند إنتهاء فصل الخلود إلى الراحة في الصيف. فتسرح الأكباش وسط الشياة. و توجد آثار تلك المهرجانات في أظيستا(١) على شكل مناسبات لإقامة الأفراح المتنوعة. و كانت بمثابة الفرص السانحة للفتيات كي يحصلن على أزواج المستقبل. فكن يعقدن مناديلهن الحريرية حول أعناق الخرفان المدللة لديهن. فإذا أرخى أحد الفتيان عقدة إحدى المناديل، فذلك يكشف عن رغبته في طلب يد الفتاة. و بموافقة الوالدين اللذين يكونا

على علم بهذه الإجراءات بطبيعة الحال، يعلن عن الفرح الذي يتبعه الزواج حسب التقاليد المتبعة.

و لإحتفالات الرعاة علاقة بمهنتهم. و لكن ثمة إحتفالات أخرى يشترك فيها الجميع و يتنافسون على التبجيل بها أكثر. و أما عيد(نوروز) أو (نتوروذ) فهو موجود منذ زمن بعيد قبل الإسلام، يمجده أهل إيران جميعاً. و كذلك اليزيديون الذين يبجلونه أكثر منهم. و هم الذين إحتفظوا به كشعار ديني بإعتباره بداية السنة الجديدة(سترى سالأ). و الواقع إنه عيد الربيع و مناسبة بهيجة للإحتفال بالعام الجديد الذي يقع في أول أربعاء من شهر نيسان(٢). و أما كُرد العراق الذين تركوا هذا الإحتفال، أو بالأحرى تعبوا منه خلال الأحقاب السابقة، فقد عادوا إليه بعد مرور السنين، بإعتباره عيداً وطنياً و مناسبة شعبية. يحتفلون به بإشعار النار، و بالأخص في السليمانية، حيث تعقد المهرجانات، و كذلك في بغداد بإقامة الإحتفالات التي تلقى فيها الخطب و تقرأ فيها الأشعار. فتنشر الجرائد الكُردية بهذه المناسبة السعيدة أعداداً خاصة من طباعتها. و ينتهز الطلاب في كل مكان الفرصة لشن حملات إعلامية للتعريف ببلادهم بعقد الإجتماعات و الندوات و الحفلات، يغنون و يرقصون فيها و يقدمون الدبكات الشعبية. و أما في إيران فتصاحب الأفراح الطقوس الدينية التي تقام في يوم الأربعاء الأخير للسنة السابقة. و الغاية منها طرد الأرواح الشريرة. يعتبر هذا العيد مقدساً بإعتباره أول يوم للعام الجديد تفتح فيه صفحة جديدة للحياة، لا شائبة عليها و لم تلطخها يد المنون بعد. و يعتقد البعض بأن (توث ـ ئيمور ظاريد) و هو مدفع الدر المنصوب في ساحة السفينة بطهران يجلب الحظ السعيد لكل من يمر من تحته في ذلك اليوم المبارك. و أما الألعاب النارية الكثيرة الشائعة في بلاد زرادشت فهي تذكرنا بالنور كرمز لخالق الكون و دليل الإحسان الحق. و هناك إحتفال آخر تكسر فيه الجرار، بإعتباره من الطقوس التي تجلب الخصوبة للأرض و تمنع العيون الشريرة من إلحاق الضرر بها. و أما رمي الحصى في الجرة(الكهانة) فهي بشير و نذير للخير، كالكلمات الطيبة التي تلتقطها الأذن بمحض الصدفة. و يوجد إحتفال للنذر تشترك فيه جماعة في إعداد قدر من الحساء (قاشوق زني) يضمن سلامة الصحة خلال السنة الجديدة، و لكن العادات القديمة هذه جميعاً أخذت بالإندثار فقليلاً ما يعثر على أثر لها.

و نجد إحتفالاً آخر في السنة الجديدة يرتبط بمراسيم طهي أكلة تسمى (سمني) أو (سمني ـ ثازان) تثير خاطرات و ذكريات عن حدائق أدونيز(٣). تزرع حبات من القمح على سلة مسطحة لتنمو، ثم تقطع في يوم معين في أعقاب عيد نوروز حين دخول العام في برج الحمل. عندئذ يتم دقها في هاون لإستخراج الرحيق. و يلقى ما يتخلف منه في مجاري المياه. و يستعمل الرحيق في أمسية ذلك اليوم لصنع نوع من الحلوى. و يعزم الأصدقاء و الجيران للرقص حول النار المعدة للطهي. و عندما يكمل الطبخ يوضع فوق صينية، مع مرآة و كحل و حناء. و توضع جميعها في غرفة مقفلة بعد أن تقرأ عليها النساء الأدعية، يحطن بها و في أيديهن الشموع. و تفتح الغرفة عند بزوغ الفجر، و يرفع الغطاء عن إناء الطبخ. و بعد ذلك يبدأ تفتيش النساء عن وجود طبعات الكف أو الأصابع التي عسى أن يعثرن عليها، لأنهن يعتقدن بأن السيدتان عائشة أو فاطمة تبعثان بروحيهما الطاهرتين لتباركان العيد بترك آثار يديهما على طبعة الحلوى. بعد ذلك توزع الأكلة على الأصدقاء و الجيران. و في رأي، و كما يعتقد توفيق وهبي، ان لهذه الإحتفالات جذور عميقة في الماضي. فالزائرة قد تكون الملكة انا هيتا عند الفرس الأقدمين، أو عشتار لسومر البابليين. و تعريض حبوب القمح للنمو الرمزي دعوة لإنتاج محصول جيد بإتاحة الفرصة للتدخل من قِبل آلهة الخصب. و يقام هذا الإحتفال في الوقت الحاضر طلباً لإستجابة دعاء أو إنجاب طفل.

و لاحظ بعض المسافرين كمورطان مثلاً، وجود مهرجان الربيع بين الموكريين في ساوجيبولاغ(مهاباد حالياً)، يشترك فيه أمير صوري، و فيه صفات شبيهة بالكرنفالات. و يذكر توفيق وهبي ان مثل هذه الطقوس تجري ممارستها في السليمانية أيضاً أثناء الربيع و تعهد إعدادها إلى لجنة خاصة. و عندما يحل وقت الإحتفال يترك أهالي السليمانية المدينة إلى مكان معين. فيعتلي هناك أحدهم العرش و يتوج كملك و من حوله الحاشية و الحراس. ثم يمتطي الملك ظهر ثور، و يفرج عن ساقيه على طرفي ظهر الحيوان متوجهاً نحو معسكر بصحبة حاشيته و حشد غفير من الناس. و هناك أقيمت الدواوين و تم نصب الخيام، حيث تشاهد قدراً ضخماً منصوباً على نار هائلة، يحيط به أفراد متنكرين في هيئة الخرفان و الحيوانات المختلفة و المتعددة الأنواع يقومون بأداء حركات لتقليد تلك الحيوانات. و تستمر هذه الإحتفالات مدة ثلاثة أيام، يطاع الملك أثناءها و يؤتمر بأمره دون سؤال، حيث يفرض الغرامات على الناس من مختلف الطبقات

أثناءها و يؤتمر بأمره دون سؤال، حيث يفرض الغرامات على الناس من مختلف الطبقات و المراكز الإجتماعية، من ضمن الموجودين أو الذين هم خارج الإحتفال. و الملك يحتفظ بعرشه إلى نهاية تلك السنة، إلى أن يتبوأ مكانه ولي آخر إنتخب للسنة الجديدة.

و يذكر أيرب ثمو إحتفالاً شعبياً آخر، حضره عندما كان طفلاً صغيراً. و هو عبارة عن عيد(خوش طيَلَدى) الذي يعتبر أيضاً نوعاً من الكرنفالات، يتنكر فيه فتى في شكل ملا أو شيخ. و فتى آخر يلبس زي النساء. و يبدأ الإثنان بالتجوال من بيت لآخر، يجمعان الزبدة و الجبن و النقود. و يبدأ الفتى في زي إمرأة بقوله(إنني طعنت في شرفي). فعوضاً عن هذه الإهانة، أو لأجل التخلص منه، يهدى جدياً(صغير المعز) أو مبلغاً من المال. و توزع الأشياء التي تم جمعها بهذا الشكل على العائلات الفقيرة.

الالعاب و التسليات

لاحظ المسافرون الغربيون من أمثال ريض و ملنطتون و دي مولتك و غيرهم، أثناء الإحتفالات الموسمية و غيرها، أن عدداً من الألعاب الرياضية الشائعة لا زالت موجودة لحد الآن، من أشهرها(ضريد) و هي عرض البراعة في الفروسية، تمارس في حفلات العرس و الأفراح الشعبية. و هناك رياضة أخرى تسمى(تغاله) و هي القيام بالمهارات الشائعة في الفروسية بين الطبقات الشعبية. و فيها يمرق الفارس على صهوة جواده بأقصى سرعة. و ما أن يصل إلى نقطة معينة حتى يرمي بعصى قوية يمسكها في يديه. يبلغ طولها حوالي ياردة واحدة تقريباً، يوجهها إلى مقدمة الحصان نحو الأرض. فإذا كان التهديف متقناً ستقفز العصى إلى الأعلى. و تتمثل مهارة الراكب في أن يجعل العود يرتد إلى إرتفاع كبير يمكن الفارس من العبور تحته، أو إلتقاطه و هو يطير في الهواء. و أما(ضوطان) الشبيهة برياضة(بولو) الغربية فهي لعبة قديمة جداً كان صلاح الدين الأيوبي شغوفاً بها، و من المتحمسين لها يمارسها بمهارة على بقعة خضراء زرعت بالحشيش مخصصة لهذا الغرض على ضفاف نهر بردى في دمشق. و تعتبر المصارعة رياضة محببة عند الكُرد كما هي الحال في إيران و تركيا. و يعتبر شباب الكُرد في بيروت من المتمرسين فيها، كممارستهم التدريب على أنواع أخرى من الرياضة، مثل الملاكمة و الدمبيل (رفع الثقل بيد واحدة)، و كرة القدم و كرة السلة. من أشيع الألعاب رياضة تسمى(هؤل) أو (طوك)

و تشبه هوكي الغربيــة (كـرة الـصولجان). و يمـارس الكُـرد أيـضاً لعبـة عـراك الـديوك و العجول التي من الممكن مشاهدتها في الوقت الحاضر. و لمصارعة الجواميس مـشهد رائـع كتناطح الأكباش. و أما صغار الرعاة فلـهم أيـضاً تـسلياتهم. و يـشير أيـرب شمـو بهـذا الخصوص إلى لعبة(زى زى) و لعبة الكرة و رمي الحجر. و فضلاً على ذلك جميعاً هنالـك كـثير مــن الألعــاب الــشبيهة بــتلكم الــتي يتــسلى بهــا الأطفــال الأوروبيــون، مثــل القفزية(ينحنى فيها أحد الأولاد و يقفز الثاني على ظهره). و الغميضة(لعبة يحـاول فيهـا لاعب معصوب العينين أن يمسك بلاعب آخر و يتعرف عليه). و لعبــة الــسجناء(فرقتـان من اللاعبين، كل فرقة تستولى على قاعدة داخـل البيـت)...و إلخ. و توجـد أيـضاً لعبـة الكلّة و البليّة (لعبة الكرات الزجاجية أو الرخامية)، و لعبة ضرب عصي صـغيرة مدببـة الطرفين بأخرى طويلة و تسمى(تالوول) و لعبة ملاحقة. و يرفه أطفال الكُرد عن أنفـسهم مثل أطفال العالم جميعاً، فيلعبون في الشتاء(ضـوكفرى) ، و هـي لعبــة تعـصيب العيــنين عنــد تلاميــذ المدارس. و لعبــة الركبــة بـين الأطفــال و البــالغين. و توجـد أيـضاً ألعـاب الـورق(ئتسـكتمل) أو (أسـقبيل)، و النـرد(زار) الـتي تـستهوي الـشباب الموسـرين مــن العوائل الثرية، كما يرويه لنا فلضيظسكي. و تعتبر لعبة الطاولي (النـرد) تـسلية دائمـة لرواد المقاهي. و لكن مــن ضـمن أنبــل الألعــاب جميعــاً و الــتي تعتــبر تـسلية الطبقـات المثقفة، هي لعبة الشطرنج، كجزء من ثقافة الفرد الإجمالية، و كان صلاح الـدين يهواهـا فإختارها من بين جميع الألعاب يقضي معها أوقاته عندما تطيب له الأمسيات.

و هنالك وسائل أخرى أكثر شعبية تميل إليها الجماهير بصورة عامة. إذ تقـوم طوائـف الشيعة من الفرس بإقامة التمثيليات بمناسبة ذكرى العاشوراء حول المواضيع الدينيـة. و هذه شبيهة بالمسرحيات التي كان المسيحيون يقومون بها في القرون الوسطى حـول معانـاة المـسيح، في مختلـف الـدول الأوروبيــة. و مــن المعلـوم بـأن لـيس للكُـرد أي رغبــة في هـذه التمثيليات ما عدا قسم ضئيل منهم، ذلك لأن الغالبية لا ينتمون إلى المذهب الشيعي. و لم تحظ تمثيليات قرقوش أيضاً بأي إهتمام في كُردستان. و بنـاءاً علـى نـدرة المـسارح في المجتمعات العربية. علينا أن لا نستغرب من عدم وجودها في مناطق كُردسـتان أيـضاً. و مع ذلك، يجب أن لا يفوتنا ذكر أسماء للروائيين المـسرحيين الـذين كتبـوا أعمـالهم باللغـة العربية و لكنهم ينتمون إلى الأصل الكُردي بـدون أدنـى شـك. و هــم مــن أمثـال جميـل صدقي الزهاوي(١٨٦٣ ـ ١٩٣٦)، و أمير الشعراء أحمد شـوقي(١٨٦٨ ـ ١٩٣٢) الـذي

ألف عدداً كبيراً من الروايات المسرحية التقليدية المأساوية. و في السليمانية بذلت محاولات عديدة ذات طابع أكاديمي صرف بغية تحقيق إنجاز للفنون المسرحية (الدراما)، و كذلك في إيران، أثناء فترة حكم جمهورية مهاباد الكُردية(١٩٤٥ ـ ١٩٤٦). و لكن أول مسرحٍ كُردي تم تأسيسه كان في عام ١٩٣٤ في مدينة إيريظان السوفيتية. و هنالك أيضاً في أرمينيا فرقة تمثيلية شكلت في قرية(علي كوضك)، دون أن نعلم شيئاً عن مستواها الفني و عن مدى نجاحها أمام المتفرجين الكُرد. و نسمع عن وجود أفلام وثائقية في أرمينيا السوفيتية و أفلام حول المواضيع التقليدية الدارجة في الإتحاد السوفيتي ، ترجمت إلى الكُردية. هذا بالإضافة إلى ما يقدمه الكُرد الشباب في محطة إذاعة ايريظان من المسرحيات. و لكن الدراما الكُردية لا زالت تحبو في طفولتها، مع المخاوف التي تعتريها في القضاء عليها بفعل إنتشار السينما، في ريعان الشباب قبل أن تتمكن من الوقوف على قدميها. و لكن الواقع هو أن الكُرد ليسوا من الناس الذين يميلون إلى قضاء أوقات فراغهم بالتفرج على التمثيليات داخل قاعات مغلقة.

الصيادون الماهرون

بإستطاعة المرء أن يتصور مدى ما يشعر به الكُردي من المتعة عند خروجه إلى الهواء الطلق لتطبعه على ذلك فيشتاق إليه أكثر من أي شئ آخر و يفتش عن مسراته خارج البيت. و يأتي الصيد قبل جميع تسلياته، لأن الكُردي رياضي متحمس، خشن جموح و هداف ممتاز يعتبر الصيد رياضة محببة، فيدعو الكُردي الموسر من العوائل البارزة ضيفه إلى نزهة للصيد في البقاع المملوءة بشتى أنواع الحيوانات و الطيور. و يعتبر الكُردي رجلاً مثالياً في ممارسته لهذا الطراز الملكي من الرياضة، إذ في إمكانه صيد الدب و الضبع و الثعلب و الخنزير البري الذي لا يأكله الكُرد. و إذا إستطعنا تصديق بعض الروايات، كان الأسد موجوداً في كُردستان إلى نهاية القرن الماضي، و لكنه إنقرض الان، و توجد في كُردستان الوعول و الأرانب و تصطاد لأجل لحومها. هناك مثل شعبي يقول بأن(على الإنسان أن يواجه خطر الصعود إلى القمم الشاهقة، إذا أراد صيد الصقور). و هذا قول صحيح، ينطبق على صيد الأروية(الماعز الجبلي) أيضاً. و على ضفاف نهر

سيروان توجد الأجناس المختلفة من الطيور الصالحة للصيد، و بالأخص الحجول(الدراج)، و من أجل قنصها تستعمل أساليب متنوعة ، تختلف حسب الغاية المتوخاة من الإستحواذ عليها، إذا كان لمجرد الإستفادة من لحمها، أم القبض عليها حيةً لتدجينها. و تستعمل في الحالتين البنادق أو الشباك. و عند سقوط ثلج كبير يصبح في الإمكان القبض على الدراج حياً. و تستعمل البنادق لصيده أثناء فصل الصيف، حيث يختبئ الصياد في كمين منصوب لهذا الغرض . و ثمة أماكن تصلح لإعداد مثل هذه المخابئ ترتفع أثمانها إلى حد يبلغ أحياناً قيمة مهر لفتاة. و تصلح كلاب الكُرد للقنص. و من أنواعها(السلوقي) و هو كلب ضخم جداً يستعمل في حراسة قطيع الأغنام. و يتم تدريب الصقور لأجل البزدرة. فيصبح الصقر الملكي (شاهين) الذي يبلغ قيمته ثلاثين ليرة ذهبية ، قادراً على اللحاق باللقلق و إقتناصه. و هناك جنس آخر(سيثتر) و تبلغ قيمتة عشرين ليرة ذهبية، و كذلك (دوخان) الأقل قيمة ، يصلح الحجول و الحمام.

و أشهر صيادي الشرق الأوسط في هذا العصر بلا شك هو كُردي يعيش في دمشق، و هو حسين عبش الذي ورد ذكره بصدد المشاريع الإقتصادية. فهو صياد ماهر جداً، بإمكانه إصطياد الغزلان و الإبول الموجودة في منطقة تدمر السورية. و يمارس هذه الرياضة منذ عام ١٩٠٠. حيث سافر بعد عشر سنوات من هذا التأريخ إلى السودان لصيد الجواميس و الكركدن و الفهود. و زاول الرياضة نفسها في أوغندة و الكونغو البلجيكية أيضاً. و زار الهند و إصطاد النمور و الفيلة و الظباء(بقر الوحش). و مارس في أفريقيا الغربية البرتغالية صيد النعام. بحيث أصبح الآن قصره في دمشق كمتحف حقيقي لغنائمه التذكارية المؤلفة من مختلف أنواع الحيوانات الغريبة.

ينتاب صياد و الكُرد، كشأن جميع صيادي العالم، شعور بالنشوة عند سردهم الحكايات النادرة عن البطولات و الحوادث الخطرة التي يصادفونها أثناء طلعاتهم للصيد. و فيما يلي قصة من هذا النوع.

كان في عهد بدرخان أسد تجاسر مراراً في الإغارة على منطقة الجزيرة لإفتراس الأبقار و الخرفان. و بعد أن يأس أمير بوتان في محاولاته الكثيرة للقضاء عليه، أعلن على الملأ في البلاد بواسطة المنادين على الأبواق بأنه سيمنح جائزة ثمينة إلى من يفلح في قتل هذا الحيوان الشرس. سمع بهذا الخبر (كاريسي)، و كان راعياً متجولاً طمع في الحصول على بضعة دراهم في هذه المغامرة. فأخذ طريقه سائراً نحو الجزيرة، و ليس في حوزته أي سلاح

سوى (نبوت) هراوته الغليظة. و ما كاد يصل إلى مشارف المدينة حتى توجه إلى عرين الأسد. فبان له الحيوان المخيف. و قبل أن يجمع الأسد قواه أو يجد فرصة للهجوم فاجأه بضربة هائلة من هراوته فاصابه في مفترق حاجبيه. فصعقت البهيمة و خرت على الأرض هامدة بلا حراك من شدة الضربة كما لو كان ثعلباً صغيراً، بين قدمي الصياد. فتصور الراعي بأنه قتل أحد كلاب الأمير. فهاله الوقوع بين أيدي خدمه، فيقتصون منه. لذلك فرّ هارباً إلى خارج المدينة. و حدث إن كان هنالك بوتي ماكر(من أهالي بوتان) في ذلك المكان، و شاهد جثة السبع ملقاة على الأرض. فوضع فوهة بندقيته تحت إحدى أذني الحيوان و أطلق رصاصة عليها. ثم رفع الحيوان، و دبغ جلده و وضعه على ظهر دابته و توجه إلى قصر الأمير. فعرف الأمير من خدمه أخبار الحادثة، و لكنه قبل أن يقرر منح الجائزة إلى البوتي وجه إليه بضعة أسئلة ، أدرك من خلال أجوبة الرجل بأنه لا يمكن أن يكون الشخص الذي صرع الأسد. لذلك أعلن للناس بواسطة المنادين عن رغبته في معرفة القاتل الحقيقي.

و كان الصياد المتجول قد قص على صاحب دكان روايته و لكنه كان لا يزال يعتقد بأنه قد قتل كلب الأمير. لذلك جردها من أي زخرفة و رواها ببساطة خالية من المشوقات. و لكن صاحب الدكان كان فضولياً فألح عليه بالإستفسار عن التفاصيل الدقيقة، فأستنتج منها حقيقة ما وقع. فقال له أخيراً، لم يكن ذلك كلب الأمير، الذي قتلته ، بل الأسد بعينه، إنما أنت الذي صرعت هذا الحيوان المفترس الضار، إهرع سريعاً و أحصل على الجائزة التي تستحقها من القصر. عندئذ ولى الرجل يقصد القصر و ما أن شاهد جلد الأسد هناك، حتى أكد لمن كانوا حوله بقوله، لولا هذا الجرح الموجود في رأسه، لكنت أظن بانني قتلته بهراوتي.

و عند نقل تلك الرواية إلى الأمير، أرسل في طلبه. و ما أن إطلع الأمير على قامته المديدة و عضلاته المفتولة حتى أدرك بأن غولاً كهذا، لا بد أن يستطيع قتل أي حيوان بعصاه، حتى و إن كان أسداً. عندئذ دار بينهما الحديث التالي:

_ هل أنت الذي قتلت الأسد؟

_ نعم يا مولاي، إن لم يكن في رأسه هذا الجرح، لقلت أنا.

_ و كيف قتلته؟

_ تصور يا سمو الأمير بأنك أنت الأسد، و أنا نفسي بالذات.

حسناً! حينما أراد أن يثب و يهجم علي، رفعت عصاي هكذا، و ضربته بين عينيه.

(و لولا وصول الخدم في اللحظة المناسبة ليمسكوا يده لمنعه من إنزال الضربة، لهشم رأس الأمير و قتله).

_ عظيم، أدركت الآن بأنك أنت قتلت الأسد. قل لي ماذا تريد أن أعطيك؟ فقال الرجل، يا سيدي، لا أريد شيئاً، إنني بحاجة فقط إلى قطعة فضية من النقود لكي أدفع ما علي من الضرائب إلى الأمير.

قال له الأمير . أنت مستثنى من دفع أي ضريبة منذ اليوم فصاعداً. فماذا تريد غير ذلك. قال له الصياد، أملك بندقيتي و بضعة نعاج و لي مخزن مليئ بالمؤن، فلا أظن أحتاج إلى أكثر.

و لما لم يستطع إقناع هذا الراعي في طلب شئ منه، أشار الأمير إلى خدمة بأن يستصحبوه إلى السوق. و هنالك ابتاعوا له و لأولاده حللاً و بضعة بدلات جميلة مع بندقية و سيف مطليان بالفضة.

يروي هذه القصة مع غيرها من الحكايات عثمان صبري بكل حماسة. و هو أحد أشهر القاصين الكُرد في هذا العصر.

و بالرغم من أن صيد السمك مهنة بالطبع إلا أنه أيضاً فرع آخر من الرياضة، يتشوق إليه الكثيرون. فإزدهر و تعمم بسبب وفرة الأسماك في نهر الفرات و فروعها، و أنهر الدجلة و الخابور و الزابين و الأنهار الأخرى الكثيرة في كُردستان. و يستعمل الصيادون الشبكات(تور) الصنائر(ضنطال) و كذلك الحراب (ميتران). و الأخيرة تستعمل لصيد الأسماك الكبيرة في مياه الزاب من نوع السلّور. و عند وضع مثل هذه السمكة على ظهر دابة لنقلها إلى الأسواق يصل رأسها و ذيلها إلى الأرض على جانبي الحيوان.

الفصل السابع

الأيام الحالكة

الأيام الحالكة

تحتاج كُردستان، كالأقطار غير المتطورة جميعاً، إلى جهد كبير في الشؤون الصحية. فالبيوت كما نعرف جيداً، و بالأخص القروية منها، ليست خالية من الأنظمة لتزويدها بالكهرباء و الماء فحسب، بل إنها محرومة من المرافق الصحية أيضاً. فيجب ان لا نستغرب و الحالة هذه من مشاهدة الناس في الأرياف و هم يرحضون بجوار ينابيع الماء لسهولة الوضوء بعد ذلك. و مع ذلك أصبحت بعض المباني القروية خلال السنوات الأخيرة مجهزة بالمرافق الصحية. و لكن بعوض الأنوفليس لا زالت تبذر البيض على إرتفاع قد يصل إلى ستة آلاف قدم في حقول الرز. و يتكاثر الذباب بشكل مخيف مما يزعج المسافرين الذين يعبرون هذه الإصقاع، و تنمو البراغيث أثناء الربيع بصورة هائلة بحيث يصبح المبيت خارج الدار أفضل من البقاء داخلها. و في المناطق المجاورة للحدود الإيرانية تكثر القرادة تمتص الدماء من الأجسام. و المستشفيات غير موجودة إلا في المدن الكبيرة مثل السليمانية و حلبجة. و لكنها غير مجهزة بالأسرة بأعداد كافية. و أما الأطباء فأندر وجوداً من ذلك بكثير، فلا يعثر عليهم في القرى إلا بعدد ضئيل ، لأن الحكومة لا تفتح فيها غير المستوصفات الصغيرة، يديرها أحياناً موظفون صحيون يوزعون الأدوية مثل الكنين و الملح الأنكليزي عامة. فلا عجب و الحالة هذه أن نسمع بطبيب إنكليزي يشير إلى العراق قائلاً، بالنسبة لي كطبيب، يثير العراق فيَّ الإهتمام أكثر من أي بلد آخر، لأنه يشكل جنة حقيقية للجراثيم و الأمراض، و هذا القول ينطبق على الأحوال في كُردستان بصورة كاملة.

الأضرار و الأمراض

ليست الحياة نزهة في كُردستان، لما لاحظناه من الأسباب. فالعلل و الجروح و الإصابة بالأضرار الجسمية المختلفة تعتبر من الحوادث اليومية العادية. حيث أن قبائل في البراري و الجبال و مخاطر الصيد و المنازعات و الشجار بين الرعاة و حراس البساتين و أصحاب

الدكاكين تشكل جميعاً مصدراً لإلحاق الأضرار بالمواطنين. و من المعلوم أن مزاج الكُردي حاد ، و خنجره في متناول يديه دائماً. و ثمة أخطار أخرى كثيرة تأتي من الحيوانات كالكلاب و الذئاب و الأفاعي و العقارب، و الجروح التي تتسبب من قرون الثيران و الأكباش. و هناك أيضاً حوادث الأسلحة النارية و الحروق بكثرة.

إن قساوة المناخ و ظروف الحياة البدائية تعرض الكُرد إلى جميع أنواع الأمراض و العلل التي يسببها الفقر و غياب المستلزمات الصحية. و أن نسبة خمسين بالمائة من وفيات الأطفال تعود إلى سوء التغذية، وهي نسبة هائلة لأنها تشكل من خمسة و عشرين إلى أربعين بالمائة من مجموع الوفيات العامة. و تعتبر هذه الأشياء من المسائل المقبولة لدى الشعب لإرجاع أسبابها إلى مجرد حدوث القضاء و القدر. يبلغ معدل العمر بالنسبة للبالغين ثلاثين سنة، و ينخفض هذا الرقم إلى ثمانية و عشرين سنة حسب الإحصائيات التي قام بها المتخصصون. و تنتشر أمراض العيون مثل الماء الأزرق(تعتيم عدسات العيون) و إلتهاب الملتحمة(باطن العين) و خاصة التراخوما بصورة واسعة جداً. و يأخذ مرض السل ضحايا كثيرة. و فقد البصر و حالات العمى شائعة جداً. و أما مرض السفلس لم يكن معروفاً في كُردستان في بداية القرن الحالي حسب قول مارك سايس. و لكن هناك نوع آخر من الأمراض يدعى(بجل) يصيب الكُرد كذلك و العرب من الذين يعيشون على ضفاف نهر دجلة و الزابين. و تعيث الملاريا خراباً في البلاد و يعزى اليها ربع حالات الوفيات. و لكن الإجراءات الصارمة في كُردستان قد قضت عليها بصورة عملية. و كذلك في المناطق الأخرى من العراق حيث قام طبيب إيطالي لويجي مارا، من المنظمة العالمية للصحة، بجهود جبارة في شن حملة شديدة على هذا المرض، الأمر الذي أدى إلى شهرته بإسم(الدكتور ملاريا). و تحدث حالات الجدري بصورة متقطعة و لكنها تقضي على ضحايا كثيرة حيث يشاهد كُرد كثيرون يحملون على وجوههم و أجسامهم علامات هذا المرض الخبيث. و يكثر وباء المعدة و الأمراض المعوية. و تنتشر ديدان الأمعاء كذلك. أمراض الإسهال و الديزانتري تثير خوفاً شديداً للأجانب العابرين بالمنطقة لسهولة إصابتهم بهذا الوباء بسرعة فائقة. و مصدر الإصابة هو العصيات، و ليس الأميبيات المتنوعة و الموجودة بكثرة أيضاً. و الجدير بالذكر أن هناك قليل من الصحفيين الأوروبيين أو الأمريكيين الذين تجاسروا في السفر إلى كُردستان، أثناء حوادث ١٩٦٣ ـ ١٩٦٤، و لم يصابوا كثيراً أو قليلاً بهذه الأمراض. و نجد أيضاً إضطرابات

الكلية و أمراض الروماتزم شائعة. و تبين الإحصائية التالية الأمراض التي أدت إلى حدوث الوفيات في السليمانية خلال عام ١٩٥٢، : ذات الرئة ٦٩ شخصاً، الملاريا ٦٦، فقر الدم ٥٧، أمراض القلب ٣٤، إلتهاب الكليتين ٣٠، الحمى الراجحة ٢٣، السل ٢٣، الديزانترى ١٧، و العلل غير المشخصة ٢٦٤ حالة وفاة. مع أن إحصاءات مثل هذه، لا تكون من النوع الذي يمكن الإعتماد عليه بصورة كاملة، إلا أن ضخامة الأعداد تجعل منها مسألة لا يمكن إهمالها.

العلاج

لا شئ يملك الصفات الفردية كالأمراض، و لكن الأوبئة تصيب الكتل البشرية بصورة عامة. مع ذلك فالمجتمع يجب أن يكون المصدر الذي يتيح الوسائط اللازمة لمعالجة الأمراض بصورة فردية أو جماعية. و للكُرد أساليبهم في هذا الشأن. فالمقام الأول هو الرجوع إلى الخالق و يليه الأولياء من عباده الصالحين، و بعد ذلك تأتي الأدعية و الممارسات التي تتعلق بالأعمال السحرية قليلاً أو كثيراً. و المعالجات الطبيعية و التجريبية شائعة أيضاً. و لكن في آخر المطاف يبدأ اللجوء إلى الأطباء و الخدمات الصحية.

و المرض يأتي من الله سبحانه و تعالى، و منه العلاج أيضاً، لذلك فهو المرجع الأول و الأخير، و ذلك كان ما يعتقده النبي(ص) و يعمل به، حيث تروي السيدة عائشة بأن الرسول(ص) عندما كان يشعر بألم في موضع ما في جسمه يقرأ على راحة يده اليمنى سورة الفاتحة، مع سورتين أخريتن من القرآن الكريم، ثم يدعو الله طالباً الرحمة منه و يدلك البقعة المصابة براحة يده التي قرأ عليها القرآن. و كتابة الآيات القرآنية على ورقة و وضعها في كأس مملوء بالماء تعتبر من العادات المألوفة، ويشرب مثل هذا الماء كدواءً لجميع الأمراض و العلل. و من العادات الشائعة أيضاً زيارة العتبات المقدسة و المزارات، و لا يختلف الأمر في هذا الشأن، إن كان القبر لولي مسلم أو لأحد القديسين المسيحيين. و هكذا، فقبر الأب ثولدو(ليوثولدو سولديني أوبي)المبشر الدومنيكاني، و العالم النباتي الشهير و الطبيب الجراح الخبير، مزار يقصده الكُرد المسيحيون و المسلمون و اليهود، لمعالجته الحميات. فيستصحب الآباء أبناءهم إلى هناك، حاملين معهم كعكات صغيرة،

مع البصل و الملح، يقدمونها كهدية للقديس. و بعد ذلك يسكبون على المريض جرة من الماء، لتنظيف جسمه من الأدران، و تكسر الجرة بعد ذلك على الضريح. و التراب المستحصل من المزارات تعتبر أدوية فعالة لعلاج الآلام و الأوجاع. فعندما يعاني شخص من حكة البشرة، يبدأ العلاج بالمراحل التالية: يسافر إلى ضريح اليزيدي(موسى سور) مع جرة مملوءة بالماء لكي يرشه على التراب المقدس هناك، ثم يقشر شيئاً منه و يجمعه من على الأرض التي رطبت بالماء و يضعه على الموضع المصاب، و بعد ذلك من الواجب كسر الجرة التي وضع فيها الماء. و ثمة بعض الشيوخ ممن يتحايلون على بسطاء الناس، فمنهم من يحتفظ بحفنة من التراب في صندوق، حيث لكل نوع من التراب خاصية معروفة لنوع معين من الأمراض. كأمراض العيون مثلاً، و كذلك أوجاع المفاصل و داء الإمساك و الإسهال. و يستطيع المريض تناول هذه الأدوية و هي مذابة في الماء، لمعالجة الآلام الباطنية. و يمكن وضعها على الجسم أيضاً لتداوي البقع المصابة . و من الطبيعي أن تزيد و تشتد فعاليتها إذا إستعملت بعد فترة من القيام بالصلاة و الصوم تستمر سبعة أيام. و ضمن دائرة إستغلال مثل هذه المعتقدات، لم يكن الأمير إسماعيل جولو، و كان فضاً غليظ القلب لا ضمير له، ليتورع من إستغلال نوع من الخزعبلات بدعوى شفاء الأمراض. فمثلاً كان يخدع النساء من عشيرة جمال الدين الساكنة على الحدود الإيرانية التركية، و يدفعهن إلى شرب قدح من الماء كان قد بصق فيه، بحجة أن ذلك سيسبغ الشفاء على المريضة، و فضلاً على ذلك هو علاج للعقم، و يرجع إلى المهجورات أزواجهن، و كان من عادته إعطاء حفنة من التراب إلى طفل يعاني سكرات الموت، مدعياً بأنه قد حصل عليها من مرقد عبدالقادرالكيلاني الشهير، و لأجل تخفيف السخونة عن طفل مريض، كان يلف عنق الطفل أو إحدى يديه بخيط أحمر لشفائه. كل ذلك و كان على علم يقين بأن هذه كلها شعوذة و محض هراء، دون أن يرده عن ذلك وازع من ضمير. و أما دنابل القدم التي تظهر بنتيجة الإحتكاك مع بول الضفادع، فيجري شفاؤها في مرقد ملك ميران الواقع في بعشيقة، و يعتبر المكان العيادة الأخصائية للمنطقة. و كل ما هو ضروري لأجل العلاج عبارة عن مجرد إلقاء قشة من التبن بعد لفها بقطعة من القماش ، في مجرى ماء الينبوع، و الإنتظار لحين تعفن القش، كي يختفي النتوء و تزول الدنبلة نهائياً.

لا تشمل هذه الممارسات السحرية جميع ما يستعمله الكُرد، ذلك لأنه لا تعوزهم المعرفة التامة بالعلاج الطبيعي و الوسائل التجريبية التي تتميز بفاعليتها المضمونة. فلكل عشيرة طبيبها الخاص(حكيمي كرمانجي) الذي ورث المعلومات و تعلم المهنة بنتيجة التجارب و الممارسة. فأدرك الصفة الشفائية لكل دواء. و يتم جمع و إعداد تلك الأدوية من قِبل العجائز اللاني جربن فنونها، بنتيجة نقع بعض المواد و عصرها. و يعتبر المبشرون الأوائل في القرن الثامن عشر من فطاحل الأساتذة في هذا الفرع من العلوم الطبية. فبقدر ما يتعلق الأمر بهذا الموضوع، لقد أغنى الأب كارزوين المعروف بأب الكوردولوجي ثروة مفردات لغتنا و زودها بالمصطلحات الجديدة. و قام الأب كامبانايل بشرح الإستعمالات المختلفة للنباتات الموجودة في كُردستان. فيبين بأن السعد يقوى الأسنان و القصعين(الناعمة أو المريمية) تزيد من عملية التعرف و يمنع التخسر الدماغي، و حبوب نبات الحمل العفيف يؤثر في حيض النساء، و أوراق الشقار أو شقائق النعمان تساعد المرأة العاقر عل الإنجاب و نبات البنج يسبب النوم و الأحلام الهادئة، و تعدل أوراق الحماض نسبة الحموضة في المعدة و تقوي الشهية، و زنبق الماء(النيلوفر)الأبيض يبرد حرقة المعدة، و جذور السحلب تنمي القوة الطبيعية و بربينا أو رجل الحمام النادر تقريباً(كان معروفاً لدى الرومان) ، يستعمل في معالجة الطحال بصورة فعالة، و ذلك عوضاً عن الشوكران غير المعروف في كُردستان. و يستعمل المعدنوس الإفرنجي النادر كمنبه للقلب. و أما الأقسنتيين فهو متوفر جداً و يستعمل إكسيراً للمعدة، و ينمو نبات زيت الخروع بكثرة، و يستعمل في الصباغة و كمرهم لدلك الجسم لمعالجته من الألم، و كذلك لمعالجة المخص. و هناك إعتقاد بانه إذا وضعت قطعة صغيرة من النبات المسماة بالشجرة الجنوبية، و هو ضرب من القيصوم، بقرب الماء، ستزيل عنه السموم. و يستعمل رحيق اليتوع (فربيون) كدواء مسهل من قِبل الرعاة و ذلك بعد مزجه بالمسك أو بالخمر القطير. و يعوض عنه بالتفاح المر أو حب الدفنة(عود الغار) و كلاهما غير صالحين للإستعمال. و أخيراً هناك اليبروح أو اللفاح(نبات من الفصيلة الباذنجانية)الذي يجب جمعه بجذر، و هو عقار معروف لإثارة الشهوة الجنسية.

لا يعير علم تداوي الأمراض إهتمامه للنباتات الطبيعية فحسب. و يؤكد لنا ذلك الدكتور فرانسيس مركيس في مدوناته بأنه شاهد في عام ١٩٤٨ بام عينيه بعض العجائز الكُرديات اللائي كن على علم تام بالمنافع الموجودة في المادة العضوية التي تنمو على

الخبز. فكن يضعنها على الجروح و المواضع المصابة من الجسم و لاحظ ذلك في مختلف مناطق كردستان. و هكذا كن السابقات في معرفة فعالية البنسلين على العلم المعاصر. و أما الكوي للجراح فيجري غالباً بخليط من الملح و صفار البيض و الزبدة و العسل في حالة الغليان. و كان تجفيف قيح الجراحات بإستعمال الفتائل شيئاً معروفاً لدى الناس في كُردستان.

و يجرى كذلك كوي جرح الرصاص بإستعمال خليط من الأعشاب و البارود. و لأجل إستخراج طلقة يثقب اللحم، ثم تستأصل منه. و إذا وجد كسر في العظام، فيتولاه الجراح أو المجبر و يأخذ مسؤولية العمل على عاتقه. و بعض هؤلاء ماهرون جداً. و يتم التداوي بوضع لصقة على الجرح. و مثل هذه اللصقة عبارة عن سمكة صغيرة تترك على الجرح حتى تتعفن. و الإعتقاد السائد هو أن مثل هذا العلاج يلين العظام في حال وجود الشظايا في الكسر. و يمكن تكرار العملية إذا أحتاج الأمر لذلك. و لعلاج الأوجاع الناشئة من جراء السقوط من على ظهر حصان يوضع جلد الماعز المسلوخ حديثاً على موضع الألم. و يترك غالباً إلى أن يتحجر. و من الممكن مشاهدة قسم من الأطباء الهواة الذين لا يكلفون أنفسهم عناءاً للإهتمام بمرضاهم، حيث إلتقى غبطة ويطرام بأحد هؤلاء المشعوذين في بارزان و الذي إقترح على رجل إزالة الحبيبات المتراكمة وراء الحدقتين من جراء إصابته بمرض التراخوما بواسطة إمرار سيخ (سفود) أبيض حار عبر صدغيه! و عندما أراد رجل تجربة بندقيته، أطلق عياراً على ربلة ساقه(١)، و لكي يعالج الجرح، ملأ الفتحة بخليط من الزبدة و روث الأبقار. و تستعمل أحياناً اللصقات المصنوعة من مزيج القار و الروث لعلاج الحروق(٢).

بالرغم من التردد الذي لا زال موجوداً لدى بعض الفئات، أخذ الكُرد بالتدريج يلجأون إلى الإستفاد من الخدمات الطبية الحديثة و العيادات الطبية الرسمية، أو المرضات المؤهلات في المستوصفات الحكومية الموجودة في المدن الكبيرة ، أو يراجعون الأطباء الأخصائيين. و يحظى الطبيب بإحترام فائق، على شرط أن يكون لدوائه فعالية و تأثير، لا مجرد إسداء النصح و الإرشاد. لأن الأدوية لا تنفع إلا إذا كانت ذات مذاق سمج و طعم مر لاذع. ذلك لأن الكُردي يحتاج مزاجه إلى علاج عنيف. فمثلاً أن ثلاث جرعات من الملح الأنكليزي التي تكفي لإحداث المفعول عندما يتناولها فرد آثوري، لا تحدث أي أثر في المريض الكُردي إلا إذا أضيفت اليها جرعتان أخريتان . و على الحقنات الجلدية و زرق

الإبر طلب كبير، لشدة فعاليتها و سرعتها. و لن ينال الحكيم العشائري أجرة على عمله إلا إذا كانت معالجته ناجحة. و لكن المعالجة في المستوصفات العراقية مجانية بصورة عامة. و يكون الكُردي ممتناً لطبيبه و يشكر فضله إذا شفي من مرضه فيقدم إلى كل من قام بمعالجته. و يوجد عدد كبير من الكُرد في الدول العراقية و التركية و الإيرانية يواصلون دراسة الطب في جامعاتها . و منهم الأطباء يمارسون المهنة لأجل مصلحة أبناء جلدتهم. و ينتمي بعض من هؤلاء الأطباء، كالمحامين إلى العوائل المتنفذة، فيحافظون بذلك على مركز عائلاتهم و تأثيرهم بين العامة من الناس.

سراط يسلكه الجميع

مهما كثرت ثقته بالأدعية و التعاويذ و مهما بلغت منافع المعالجة و فضائلها فالكُردي كأي إنسان آخر ينتهي في هذه الحياة إلى الفناء و الموت أخيراً، و عند ذاك عوضاً عن الأغاني البهيجة تعلو صيحات العويل و البكاء. فالموت مع ما يصاحبه من مراسيم التعزية ترافقه التقاليد و الأعراف الخاصة به. و يستطيع الكُردي بخشونته المعهودة مواجهة الموت بشجاعة، أليست هناك الحكمة القائلة بأن(من يعرف جيداً أسرار الحياة لا يهاب من الموت)؟ أو(إذا قُدم كأس الموت إليك إرتشفه و لا تندم). إنما الموت فراق قصير عمن تحبهم. و لكن الكُردي يفضل الإستشهاد في ساحات الوغى على ميتة خنوعةٍ في فراشه. و كذلك يتمناه إذا نال منه مرض عضال طويل الأمد، حيث يقول بأن (الموت و لا الشيخوخة). و (لِمَ العذاب إذا كان لا بد من الموت)؟.

و على فراش الموت بين اليزيديين، على أخ المريض أن يعينه على تحمل عذاب الآخرة و هو يعاني سكرات الموت، و إذا إحتاج الأمر من الضروري مساعدته في عبور (النهر الرهيب) إن تلكأ الموت طويلاً. و عندما يفارق الحياة، يجري إرقاد جثته سريعاً ليغسلها ممتهن في غسل الجثث، أو الملا بنفسه أحياناً. ثم تدلك بأريج النباتات العطرة ذات الروائح الزكية العبقة. و تغلف بكفن أو عدة أكفان قطنية غير مخيطة . و سابقاً عند وفاة شاب كان أهله يضعون دمية في غرفته على شكل تمثال يسمى ب(داري شيني) أي شجرة النحيب. أو يضعون التمثال على ظهر جواد كان محبوباً لديه أثناء حياته، و ذلك في داخل الكوخ الذي تعقد فيه مراسيم المأتم. و يوقد مصباح لينور الغرفة لمدة ثلاثة أيام.

و يدفن الموتى في يوم حدوث الوفاة عادةً، هذا إذا لم يكن الموت بسبب القتل. حيث لا يدفن الميت في مثل هذه الحال، حتى يتم الثأر من قاتله بالقضاء عليه. ثم توضع الجثة على نقالة من دون إستعمال تابوت. و يحمل إلى مثواه الأخير في المقبرة بموكب من قِبل أقاربه و أصدقائه. و أما النساء فيتبعن العادات الوثنية في الولولة و البكاء و النحيب. و البعض منهن يصاحبن الموكب في عويلٍ مستمر. و إذا كان المفقود رجلاً معتبراً له شأن يلتحف حصانه بالسواد ليواكب صف المشيعين. و تكفن جثة الطفل بإستعمال سجادة الصلاة. ثم يدفن رأس دجاجة مذبوحة في القبر مع الجثة و ذلك لكي تتجنب العائلة حدوث المصائب المماثلة.

و يتم وضع الجثة في القبر على الجانب الأيسر لتواجه المكة المكرمة، و عمق القبر يوازي إرتفاع قامة الإنسان. ثم يقوم الملا بقراءة التلقين. و غالباً ما ترتل الترانيم(شين) أو مثوبة في مدح المتوفي. و أما بالنسبة لقبر شخص قتيل فتكوم عليه الأحجار (شكَير) على شكل تل صغير و تلقي المارة عليه الحصى لترتفع عالياً و ذلك إبقاءاً لذكرى مأساة وفاته.

تقع المقابر (طؤرِستان) خارج حدود المدن و القرى، عادة على تل أو سفح رابية و تغرس فيها أشجار الزينة مثل(أرخوان) اليهودا أو الزمزريق و لا وجود لشئ قاتم أو مكدر حول تلكم الأرواح الراقدة بهدوء غير ما يضفي عليها من الجمال و رونق الطبيعة الزاهية. و تختلف الأجداث حسب المناطق فترى قبباً مشيدة على قبور الأغنياء و لكل قبر لحدان (كيل) منصوبان على نهايتيه، و هما الزينة الوحيدة على هذا الرقاد الأبدي ، إذ لا يحفر عليهما أي كلمة، عدا ما يكتبه اليزيديون في الشيخان بالعربية و هو ان فلاناً قد توفاه الله برحمته في التأريخ الفلاني. و لكن نشاهد أحياناً على بعض القبور نقوش محفورة على أشكال الخناجر و البنادق ، و الصخور و الدوائر التي ترمز إلى الشمس. و ترسم هذه النقوش إذا كان القبر لرجل و بالأخص لمقاتل. أما تذكاراً لوفاة إمرأة فتحفر على قبرها الأزهار و الأمشاط و الأساور. و لبعض المهتمين لهذه النقوش و الرسوم آراء علمية حولها حيث يرون فيها بقايا من المذهب الزرادشتي. و توجد قبور يحفر فيها ثقوب صغيرة و تملأ بالماء لتشرب منها الطيور و الحيوانات ثواباً لأرواح الموتى. و غالباً تهدي الفتيات المخطوبات و الأرامل خصائل شعرهن لتعليقها على اللحود ، رمزاً للإخلاص تجاه من فقدن من الأحباب، كما يذكر كثير من المسافرين. و قد تُعلق يد حديدية على قبر رجل

صالح لتنتقل سيرته إلى الأجيال القادمة. و هناك طرائف أخرى تختلف في طريقة تبجيل موتاها، حيث توجد عند السنجابيين الكرد مقبرة تضم تماثيل غريبة. كأن نشاهد إمرأة في يدها طفلين ، أو رجلا كرديا يحمل بندقيته، و تحيط به الغزلان و الوعول الجبلية . و البختياريون يشيدون تماثيل الأسود لرجالهم الشجعان. و تروي مادام جاغنيان في كتابها(عبر أرمينيا السوفيتية ١٩٥٢) عن مدى دهشتها عندما شاهد في القرية اليزيدية (كانداكسار)صوراً طويلة الأبعاد لخيول هائلة صبغت بألوان مختلفة، كالبرونزية و الحمراء و السوداء و البيضاء. و الخيول مسندة على نصب تظهر و كأنها تعدو و حوافرها مشبوكة مع بعضها من الأمام و الخلف لتشكل هيئة تشبه الرقم ثمانية الإفرنجية. و لجام الخيول مشدودة بقوة بحيث ترقد رؤوسها على الصدور . و ترتفع ذيولها إلى الأعلى في شكل أقواس لتخلق إنطباعاً من القوة و العظمة. فكانت المقابر الكُردية تحوي رموزاً تذكارية ظلت على هذه الحال لوقت طويل حتى إندثرت على مر الأزمان و لم يبق لها أثر إلا القليل. و يمكن مقارنة تلك القبور بقبور النساء و التي عليها لحود بسيطة تحمل نقوشاً تمثل الأمهاد مما يضفي على ذلك المحيط مسحة عجيبة من سحر الجمال و رونقه.

و فترة المآتم تستمر من الناحية النظرية لمدة سنة، لا يبارح أهل المفقود خلال الثلاثة أشهر الأولى منها الدار لأجل إستقبال المعزين(سترخوشيدان). و تستعمل للتعزية عبارات تفيد بوجوب الخضوع لمشيئة الله، و تمني العمر الطويل و السعادة للباقين. فيقول المعزي على سبيل المثال: (أدعو من الله أن يمنحكم العافية و يلهمكم الصبر و السلوان) عندئذ يكون الجواب: (حفظكم الله و أطال الله في أعماركم و يحفظ صحتكم). و إذا كانت العائلة قد فقدت إبنها، يقال(عوظكم الله عنه ولداً). و ثمة عبارات كثيرة أخرى. أما في أرمينيا السوفيتية فقد ألغيت التعبيرات الدينية بالطبع فأصبحت المجاملات فاترة تتسم بطابع رسمي، كأن يقال(تقدم جماعة العاملين في جريدة الطريق تعازيها إلى(س) من ضمن الموظفين في الجريدة، و ذلك بمناسبة وفاة عمه(ص) أو (أ، ب، ج يقدمون تعازيهم إلى س، ص، ك و يعبرون عن صدق مشاعرهم). و تشاهد ظهور كلائش التعازي في الجرائد اليومية . و بالرغم من ذلك نرى كثيراً من التعابير و قد إحتفظت بشئ من نكهة التقاليد القديمة.

و لا يجوز الإشتراك في الحفلات خلال فترة التعزية(شين). و ترفع الأشياء الملونة ، و بالأخص الحمراء منها من المنزل. و الأقارب و الجيران يحاولون عدم طبخ الأرز، الطعام المفضل عند الكُرد، و يتم طبخ الطعام و تقديمه أثناء التعزية في اليوم الثالث و السابع و الرابع عشر، و يقومون بذبح خروف على القبر و يوزع لحمه على العابرين. و من العادات الجارية أن تشترك أهالي القرية جميعاً في المآتم. و يقوم اليزيديون في أمسية عيد نوروز بالتجوال في المقابر. فيعزف الموسيقيون على المزامير و يدقون الطبول. ثم يقفون على كل قبر لمدة عشر دقائق. و تنتحب أثناءها النساء و يضربن على صدورهن، ثم يوزعن الطعام على الفقراء و عابري السبيل ، و يتركن كمية على القبور. و من عادة النساء الكُرديات زيارة المقابر أيام الخميس و الجمع. و اللائي فقدن أعزائهن يسرحن في البكاء و العويل. و تستمر هذه الزيارات مدة خمس سنوات، ثم يطويها النسيان. و أما الأطفال فتنقطع الزيارة إلى قبورهم بعد أمد قصير.

الفصل الثامن

الكُرد في ظِلّ الهلال الإسلامي

الكُرد في ظلّ الهلال الإسلامي

من الأوفى و الأنسب في هذا البحث الإستهلال في ديانة الكُرد. فهم كما هو معروف يشكلون قسماً مهماً في العالم الإسلامي، و لا يعرف عنهم الكثير بصورة عامة. و يمكن تقسيم الشعب إلى غالبية يعيشون بين الشيعة في إيران و العلمانيين ضمن الدولة التركية. و السُنيين في العراق و سوريا. و على مفترق الطرق المؤدية إلى البلاد الإسلامية من الطبيعي أن نتوقع أن تكون لهذه الأُمة ميزاتها الخاصة، تختلف عن الشعوب المجاورة. و تجدر الإشارة إلى أن هنالك بضعة مئات في القرى المسيحية من المناطق الكُردية الإيرانية و العراقية، يسكن في معظمها الآثوريون، الذين يشبهون الكُرد كثيراً في عاداتهم و شكل ملابسهم. و يتكلمون هؤلاء الآثوريون بالإضافة إلى لغتهم اللغة الكُردية، فكّونوا العلاقات مع الكُرد بحيث تحالفت عشائرهم مع العشائر الكُردية و حاربت جنباً إلى جنب قبيل الحرب العالمية الأولى.

من الوثنية إلى الإسلام

كانت الديانة في الإقليم المسمى الآن بكُردستان، و المعروف سابقاً بالبلاد الميدية، عبارة عن الديانة المجوسية. حيث تذكرنا النقوش المحفورة على قبر دارايوش الموجود في بيستون و المعروفة لدى الإيرانيين اليوم بنقش روستم، بعظمة قوة آهورامازدا(السيد الحكيم) الذي مكن دارايوش بفضل قدرته من دحر الأقوام الكثيرة التي ذكرت أسماؤها على تلك النقوش. و لم يكن آهورامازدا بالاله الوحيد، بل كان هناك عدد آخر من الآلهة يعبدهم الكثيرون و منهم ميثرا(١)، إلَه الشمس و الإنقاذ، و أنا هيتا، آلهة المياه و الخصوبة و الإنجاب. و بالإضافة إلى ذلك كانت هنالك عبادة الطبيعة المتمثلة بتقديم الذبائح. و لم يكن من الممكن ممارسة الشعائر إلا بمساعدة (الإخوة المجوسية) المعروفين ب(ماطي أو الماجي) الذين ربما ينتمون إل أصل ميدي، فكانوا يتمتعون بالإمتيازات السياسية بشكل

عام و الإمتيازات الدينية بصورة خاصة. و كان مبدأهم يتكون من ركنين أساسيين، و هما الخير و الشر، أي(أهورا ـ مازدا) أو(أورمزد و أهريمان). و من عاداتهم عرض الجثث و إعداد المشروبات الروحية و من أشهرها (هؤوما) الذي كان الفرس يحتسونه في إحتفالاتهم الدينية. و كانت الإحتفالات تلك تجري إقامتها في الهواء الطلق، بالرغم من كونهم يملكون المعابد أيضاً. حيث كانت تشيّد على شكل أبراج مكعبة، لها طابق واحد يتكون من غرفة يسكن فيها مجوسي(ماطى) لمراعاة شؤون النار المقدسة.

و أجريت خلال الحقبة الإخمينية إصلاحات في الديانة(المازدية)(٢) على يد زرادشت الذي يعرفه الكُرد بإسم(زةردةشت). ولد هذا النبي الإيراني القديم، في ولاية(موكرى) الواقعة في قلب كُردستان سنة ٦٦٠ق.م. و عاش إلى حوالي سنة ٥٨٣ ق.م. و تم حفظ المذهب الزرادشتي ضمن(كاثاس) الموجود في كتاب (آظيستا) المقدس لدى الثارسيين. و هو مؤلف يتكون من منضومات شعرية تنقل آراء المصلح و مذهبه الذي نبذ فيه تقديم القرابين أثناء إحتفالات (هؤوما)، و لكنه إحتفظ بالنار المقدسة رمزاً للعدالة و شعاراً للكفاح ضد قوى الشر، أي عبادة (أومزد) أو (أهريمان). و إعتبرت معاملة الحيوانات برفق من الصفات الحميدة. تتألف الأسس الأخلاقية لمبادئ زرادشت من ثلاثية أبدية، و هي: الأفكار الخيرة، و الكلمات الجميلة، و العمل الصالح. و تلك هي الديانة الزرادشتية التي أصبحت الدين الرسمي للدولة أبان الحكم الساساني (٢٢٤ ـ ٦٥٢ق.م.) الى أن إستبدلت بالإسلام.

و لكن الإنتقال إلى الدين الجديد لم يجرِ دون صِدام، حيث بدأ المسلمون يتصلون بكُردستان من بعد أن تم لهم الإستيلاء على حلوان و تكريت في عام(٦٣٧)، و تقدم سعد بن أبي وقاص للهجوم على الموصل و الإستيلاء على المناطق الكُردية، و مناطق أخرى مثل ماردى و بني حدرا و حبنون و داسن...إلخ.

و لكن لم تفلح هذه الإنتصارات في إخضاع المنطقة الكُردية بأسرها للحكم الإسلامي، حيث تصادمت قوات الخليفة عمر بن الخطاب مع كُرد منطقة (أهواز). و تم الإستيلاء على(شهرزور) في عام ٦٤٣ بعد سكب الكثير من الدماء، و بنفس الحال على (بيرود) و (بالاسيان) في عام ٦٤٥. فتتجلى ذكريات ممارسة العنف و الشدة اللتين كانتا تمارسان في تلكم الأيام في نص قطعة شعرية، قيل بأنها قديمة، و لكن حامت حولها الشكوك حديثاً على أثر الآراء التي نشرها عنها حديثاً ساكانزي:

تهدمت معابد أورمزد و أصبحت خراباً.
و هرب الشيوخ و الرؤساء و إختفوا جميعاً،
حيث طرد العرب القساة الكُرد،
ففروا إلى شهرزور.
و أسرت الفتيات الحسان مع الأمهات،
و ذبح الأبطال في المواقع.
ففقدت قوانين زرادشت سلطاتها
لذا لن ينظر أورمزد بعين العطف إلى أحد.

و على أثر سقوط السلالة الساسانية في عام ٦٥٢ سارعت الديانة الشاهنشاهية (ملك الملوك) إلى الزوال و إنهار معها رعاياها من التابعين, و ساهمت، في مسرى الأحداث، الذرائع السياسية و الإجتماعية المتنوعة في تبديل ديانة عبادة النار بدين الغزاة. و نستطيع في الوقت الحاضر مشاهدة معالم آثار قلعة غريبة في (سُرداش) العراقية كان لملك (جلندى) الذي إدعى بأنه تحالف مع الشيطان لأجل صد هجمات جيش الخليفة علي بن أبي طالب. و في عام ٧٠٦ أرسل الحجاج أيضاً حملة تأديبية ضد الكُرد بحجة نهبهم منطقة فارس.

و لقد ساعد الكُرد الخليفة مروان الثاني(٧٤٤ ـ ٧٥٠) في حملاته ضد الخوارج. و رغم إعتناق عدد كبير من الكُرد الدين الإسلامي(لا الأكثرية) إلا أنهم قاموا بعدة ثورات ضد جيوش الخلفاء. و الجدير بالإشارة هنا أن أم الخليفة مروان كانت كُردية.

و في عام ٨٣٩ إنسحب جعفر بن فهاريس الكُردي إلى جبل درسيم بعد أن إنهزم في بادئ الأمر أمام جحافل الخليفة المعتصم في معركة(باباغاز). و إنظم كُرد الموصل عام ٨٦٦ إلى المصّور(و هو من الخوارج)، و إنحازوا في عام ٨٩٤ إلى جانب العربي حمدان بن حمدون الذي إستطاع أن يستولي على الموصل. و بعد ذلك قام محمد بن بلال من عشيرة(هزباني) في عام ٩٠٦ بنشر الخراب في منطقة نينوى، و لكنه أوقف عند حده، و هزم أخيراً مع أتباعه في جبل داسن، على أثر حملة قام بها عبدالله بن حمدان. و أما المغامر دسيم بن إبراهيم، و كان من أم كُردية، جند جيشاً يتألف من الكُرد بصورة عامة، و شن حملة على آزربايجان. فيتضح من جميع هذه الحقائق بأن الكُرد كانوا يؤيدون الخوارج بشكل عام منذ بداية مجئ لإسلام، و أدى ذلك ببعضهم إلى إعتناق المذهب

الشيعي. و لكن بالرغم من ذلك زحف الكُرد أخيراً نحو إعتناق الدين الدين الإسلامي بصورة عامة، لذلك يمكن إعتبارهم منذ ذلك الوقت من المسلمين، أكثريتهم ينتمون إلى المذهب السني.

الكُرد و الأركان الخمسة للإسلام

الكُرد المسلمون حنفاء يتمسكون بمبادئ مذهب الفقيه الشافعي(٧٦٧ ـ ٨٢٠). الذي من تعاليم مدرسته عدم الأخذ بالإجتهاد الشخصي، بل الإعتماد على الفقه المبني على التفضيل و القبول العامين(الإجماع). و ليس ضرورياً للإجماع بأن يصدر من قِبل الفقهاء الذين صاحبوا الرسول(ص) في المدينة، بل الفقهاء من جميع العهود. لذلك، يترك التفسير مفتوحاً على الدوام للإستناد على الآراء المقتبسة من القرآن الكريم و سنة الرسول، على أن يكون للتفكير مجال للتحليل و التمحيص، و هذا الأخير سمي(بالقياس).

و بعد أن إعتنق الكُرد الإسلام، إتخذوا ديانتهم بكل جد. فأنشأوا عدداً كبيراً من مدارس القرآن الكريم. و برز من بينهم العلماء الكثيرون، تعمقوا في علم اللاهوت و القانون و التأريخ و المجالات العلمية الأخرى. و على سبيل المثال نخص إثنين منهم بالذكر، و هما: مولانا محي الدين الأكلاتي، الذي ساهم في بناء مرصد مراغا الفلكي، و إبن الصلاح الشهرزوري، المشهور بمؤلفاته و دراساته في اللاهوت و الحديث النبوي الشريف و الذي إفتتح المدرسة الأشرفية (مدرسة التقاليد) المؤسسة عام ٦٣٠ في دمشق. و هناك ايضاً العالم الموسوعي (إنسايكلوبيدي)، حاجي خليفة الذي ذكر لنا بأن الأتراك العثمانيين إعتنوا بالعلوم حتى عهد سليمان الكبير(١٥٢٠ ـ ١٥٦١) فقط و بعد ذلك فإن الكُرد هم الذين أخذوا زمام الأمر من أيديهم لإزدهار الدراسات الفلسفية و العلوم الطبيعية. و أكبر برهان على هذه الحقيقة المكتبة التي أنشأها سلطان حسين، أمير بهدينان، عام (١٥٧٦) في داخل مدرسة كاهبان الواقعة في مدينة آميدي (العمادية). و هنالك مجموعة من الكُتب و المخطوطات أكبر من تلك و أكثر قيمة، لعبدل خان أمير بتليس، بيعت بالمزاد العلني في عام ١٦٥٥ لأنه لم يرضخ لوالي (ظان) المعين من قِبل السلطان العثماني. فلا عجب أن نجد كُردستان و قد ساهمت في إرسال عدد كبير من الأساتذة البارزين و المفتيين الرسميين إلى أستنبول ليتقلدوا الوظائف من السلطان في عاصمته. و

إضافة إلى ذلك نذكر بأنه، لا زالت جامعة الأزهر الشهيرة تحوي ضمن الهيئات التدريسية العليا عناصر كُردية في القاهرة.

فإذا كان هذا شأن علية القوم من الكُرد، فكيف كان وضع عامة الناس؟

يدخل الإسلام في الحياة اليومية الكُرد. و يظهر ذلك بمجرد أن يفتح الكُردي فاه ليتكلم. فهو يذكر الله في عبارات التحية و التمنيات، أما بالكلمات العربية، أو ما يقابلها في اللغة الكُردية(خدا ، خدآ). و حري بنا أن نذكر مثلين عامين يعبران عن إيمانه العميق بالخالق(يبني الله عش الطير الضرير) و (يرسل الله طعام الضيف). و هنالك مجموعة كبيرة من الأقوال و الأمثلة ندرجها هنا لما فيها من الجاذبية و الجمال و لما تحويها من الورع و التقوى اللذين يفيض بهما قلب الكُردي المؤمن. و كلها ترتبط بوشائج متينة مع بعضها، مع إحتمال أن تكون من صلب تقاليد المجتمع و عاداته الموروثة و المتبعة على الدوام. و مما يدل على هذه الحقيقة أن الكُرد في أرمينيا السوفيتيية لم يحذفوا تلك العبارات من كتاباتهم، و بالأخص من كتاب لمجموعة من الأساطير صدرت هناك.

و لأجل إعانة الكُرد و مساعدتهم في فهم و تطبيق الديانة الإسلامية و تعميق إيمانهم بمبادئها، كتب المتضلعون و الفقهاء كراسات باللغة الكُردية لتدوين تعاليمها. و نذكر على سبيل المثال، منظومة شعرية طويلة عن كيفية أداء الصلاة، كتبها شاعر مجهول عام ١٧٨٣ في بوهتان. و كذلك(مختصر المعتقدات الإسلامية) لمؤلفه الشيخ عبدالله الزهري، المتوفي عام ١٨٢٠و (الدروس في قوانين الشريعة) بقلم الأمير كامران بدرخان، في عام ١٩٣٨. و قام المؤلف نفسه بترجمة بضع مئات من الحديث الشريف إلى اللغة الكُردية. و نخص بالذكر أيضاً ترجمته للقرآن الكريم التي تم نشرها على نطاق ضيق. و قامت صحيفة (كُردستان) الطهرانية حديثاً(١٩٥٩ ـ ١٩٦١) بنشر مقالات عن الصيام و عن مطابقة الشرائع الإسلامية للقوانين الطبيعية التي يتبعها الإنسان.

و بعد أن تزود الكُرد بالتعاليم الضرورية التي تعتبر من واجبات الديانة الإسلامية، كان عليهم تطبيقها. فالإيمان بالله و رسوله فرض على المسلم إقراره بالشهادة، و عليه أداء الصلاة خمس مرات يومياً، أينما كان وجوده. و يعتبر الكُردي مخلصاً في إطاعته لفرائض الدين. و كذلك النساء، إن سنحت لهن الفرصة في خضم الحياة العصرية، و لكن الأطفال من الفتيات قلما يصلين. و يسبغ على صلاة الظهر في أيام الجمع وقار من نوع فريد. و لا توجد الجوامع إلا في المدن الكبيرة المهمة. و تحتوي القرى على مساجد

صغيرة(مزطقوت) . و تتيح عطلة يوم الجمعة للمصلي حضوره في الجامع لأداء الصلاة في ذلك اليوم المبارك. و أما منح الصدقات التي ينص عليها الدين الإسلامي (الزكاة) فهو واجب على كل كُردي قادر على ذلك. و لربما يعزى وجود أعداد كبيرة من المتسولين في البلاد الإسلامية إلى هذا السبب(٣). و يحظى الصوم(رؤذو) بإعتناء و إحترام كبيرين في أيام شهر رمضان المبارك. و ينبغي القيام بأداء فريضة الحج إلى المكة المكرمة أثناء الحياة مرة واحدة على الأقل. و يجدر بالذكر هنا، أنه في عهد السلطان عبدالحميد(١٨٧٦ ـ ١٩٠٨) عهد إلى الكُرد مهمة حراسة الطرق المؤدية إلى الكعبة الشريفة. و لكن، لا نشاهد الآن إلا عدداً قليلاً من الأشخاص الذين إستطاعوا تأدية مناسك الحج، لأننا لا نجد كثيرين يحملون لقب الحاج. و على النساء اللاتي قمن بأداء فريضة الحج في الديار المقدسة، تغطية رؤوسهن حتى و لو كان في حضور أزواجهن.

إن القيام بالواجبات التي ذكرناها يشكل الفرائض الخمسة للإسلام و لكن هنالك (السُنَة) التي على المؤمن أن يتبعها. فعلى الكُرد الذكور الرضوخ لعميلة الختان (الطهور). و يعتبر أكل لحم الخنزير حراماً عند الكُرد، مثل الآثوريين، و لكن هنالك نفر كبير لا يحجمون عن إحتساء الخمر في بعض المناسبات، و بالأخص (العرق). و هنالك طوائف يزيدية تبيح شرب الخمر. و يجري إتباع فريضة الوضوء بكل دقة. و إذا بالغ أحدهم في الإغتسال و أعاده يومياً، يصبح هدفاً للنكات من قِبل أقرانه. و لا يجوز للنساء دخول المساجد و المراقد و الأماكن المقدسة الأخرى في فترة الحيض، و لا لمس القرآن. و ذلك يفسر سبب تعليق هذا الكتاب المقدس داخل غرفة النوم و حفظه في حقيبة معطرة من القماش.

و يحتفل الكُرد بولادة النبي(ص) منذ زمن قديم يرجع إلى عهد صلاح الدين حيث كان مظفر الدين شقيق زوجة هذا القائد العظيم يسبغ على المناسبة نوعاً خاصاً من الإحترام و التبجيل. و قام عدد كبير من رجال الدين و الشيوخ بتنظيم أشعار دينية طويلة باللغة الكُردية تسمى بالـ(مولود) لإستذكار مناقب الرسول و سيرته لقراءتها أثناء الإحتفال بهذه المناسبة . و بعض هذه الأشعار قديمة و معروفة جداً، من بينها منظومات(ملا باتي ١٤١٧ ـ ١٤٥٩). و لكن توجد أشعار أخرى تم تنظيمها حديثاً من قبل عثمان أفندي(١٩٠٠) و أحمد رامز(١٩٠٤) و الشيخ محمدي خالاً في السليمانية(١٩٣٧) و الملا رشيد مفتي في أربيل(١٩٥٢). و نستطيع أن نقول بأن لكل

عام إنتاج من هذا النوع، و لكن لم يتم نشر أكثرها، و على الأغلب ستظل كذلك. و مما هو جدير بالقول في هذا الصدد بأن المطبوعات الدينية تمنع من الظهور بسبب ظروف الحياة العصرية في أغلب الأحيان، و كذلك ممارسات طقوسها و شرائعها. فلا يصوم الكُردي عندما يكون بعيداً عن الوطن خلال شهر رمضان المبارك. و يتناول المشروبات الروحية أيضاً إذا سنحت له الفرصة لذلك. و لكن ثمة أشخاص يستطيعون الحفاظ على أيمانهم في جميع الظروف. و بالرغم من ذلك، فتقوى الإسلام و تطبيق واجباته قد أصابهما الكلل و الضعف. و بالأخص في الأوساط الكُردية التقدمية، في ظروف هذا العصر و بين الذين يعيشون خارج البلاد على وجه العموم.

التصوف في كُردستان

إن أداء الواجبات الدينية و ممارسة طقوسها باللغة العربية تشكل صعوبة بالغة لأولئك الذين لا يملكون القسط الوافي من التعليم، لذلك تميل نحو التدهور أو إلى شكلية محضة، الأمر الذي يؤدي بالكُردي المؤمن بالله إلى البحث عما يعوضه. فلا يكون التعويض بتطبيق مراسيم الإسلام الدينية التي لا يمكن للكُردي إستيعابها إلا قليلاً، بل بالإلتجاء إلى التعاليم الصوفية، من صنع إخوان التصوف. فغرست هذه المعتقدات جذورها في كُردستان بسرعة فائقة، و تبعتها جماعات كبيرة من الطبقات الشعبية الفقيرة.

ظهر التصوف في كُردستان في وقت مبكر جداً حيث بلغ أوجه نشاطه خلال القرن الثامن عشر. شاهد المؤرخ المقدسي في عام (٩٨٠) عندما قام بزيارته إلى كُردستان أربعين من هؤلاء المتصوفين. عليهم قمصانٍ من الوبر يقتاتون على ثمار البلوط. و كان هنالك لص من قطاع الطرق أصبح مرشداً روحياً لكُرد(قاليني) سمي بأبي وفاء الحلواني(بعد عام ١١١٠). و كان أول من حظي في العراق بلقب تاج العارفين. فإستطاع جمع أربعين من الأتباع، سبعة عشر منهم من الأمراء. و كان هناك أفراد آخرون من المتصوفة في مناطق كُردستان في ذلك الوقت، حيث يوجد في كتاب (سيرة القديسين المسلمين) قائمة تضم عدداً وفيراً منهم. و لربما كان لوجود هؤلاء الزمرة الكبيرة من رجال التصوف في جبال كُردستان أثراً في إلتجاء الشيخ عادي إلى الإستيطان في حكاري،

إلى أن أصبح ذلك الشيخ الشهير، دون أن يكون في نيته التحول إلى يزيدي، كما سنراه فيما بعد.

و لم يكتف الكُرد الإتقياء الصالحون بحفظ القرآن الكريم عن ظهر قلب، ليستنبطوا منه علِم اللاهوت و علِم الكلام بالإعتماد على الفقه فحسب، بل إستخرجوا منه أنماطاً أخرى للتطبيق، بالإبتعاد عن الدراسات المجردة و المقيدة حرفياً بالشرائع، فأرادوا أن ينحوا بها صوب التأملات و الصعود إلى أعلى المراتب للفضائل الروحية، كي تصل بهم إلى الإتحاد الرباني و النشوة الروحية. فقاموا بشرح نضرياتهم التصوفية و أساليبهم في التقشف و النسك و الزهد في مضمون الأشعار الكثيرة التي قاموا بنظمها. لا يستطيع فهمها إلا الغارسون في هذا العِلم فقط. و كانت النظم بالطبع مجازية أو رمزية، و لكنها مفعمة بالشعور الإنساني و أحاسيس المحبة، لمخلوق دنيوي يشاطر خالقه العواطف النبيلة حينما يبتهل إليه في مضمون تلكم الأشعار. و تصح هذه النظرية بالنسبة إلى قضية ذكر (الشراب) في المنظومات، من حيث لونه الأرجواني الذي يرمز إلى النشوة الروحية. وأما عند إستعمال مفردات حانات الخمر. لا بد و أن كان في ذهن بعض هؤلاء المناصرين للدين و الناذرين له حياتهم، ميل حقيقي لإحتساء الخمر و للإنتشاء بحالة السكر، أكثر من ميلهم إلى إستعمال الإستعارة و المجاز الحقيقيين.

و تطورت في المدارس الصوفية تلكم العلاقات الموجودة بين المدرس و الفقهاء في النظم الأخرى بشكل سريع، إلى نظائر لها عند المتصوفين. و هي تتمثل في إيجاد نظام يتشكل من الشيوخ المعمرين(ثير)و المردين(شاطرد). و أسست (الأديرة) و(المناسك) و وهبت إليها الأموال، لإسكان الولي مع جميع أتباعه للقيام بالعبادة لمدد قصيرة أو طويلة. و يبدأ تلقين التصوف بتكسية المتجدد برداء خاص (خرقة) رمزاً لقبوله تقاليد المذهب في الخدمة و الإطاعة الربانية، و تقبله إرجاع مراحل إزدهار الدين إلى النبي(ص)(أربري). بعد ذلك إتحدت هذه المساكن (الأديرة) خلال القرن الثاني عشر لتؤلف جمعية دينية كبيرة، سميت(بالطريقة) و التي تعترف فيما بينها بمدرس مشترك، بغية تطبيق الشعائر و الأنظمة المتشابهة بين تلك المساكن. و يتم الإشراف على النظام في الوقت الحاضر و للأجيال القادمة من قِبل وارث للمؤسس الذي يقبل تعاليمه رؤساء الفروع الثانوية للمراكز المتعددة. و يسمى الوارث(بالخليفة). و هناك فئة قليلة من التبعة تسكن البيوت المخصصة للتعليم و ممارسة الطقوس الجماعية. وتسمى هذه البيوت(بالخانقاه) أو

(التكية). و أكثرية التبعة من المؤمنين البسطاء (المريدين)، الذين يتبعون النهج العادي في الحياة الدنيوية، و لكنهم يحضرون الشعائر الدينية الخاصة بهذا النظام من وقت لآخر. و يمكن التمييز بين الأنواع المتعددة لهذه الجماعات الدينية بإختلاف التفاصيل في تطبيق الشعائر أكثر من وجود إختلاف في مذاهبها.

و أقدم هذه النظم (القادرية) التي أسسها الكُردي عبدالقادر الطيلاني(١٠٧٨ ـ ١١٦٦). إنتشر سريعاً بين الكُرد، بحيث لا يزال القادريون يملكون أتباعاً كثيرين و لبعض عوائل شيوخهم من الطالبانيين في كركوك و البريفكيين في العمادية شهرة كبيرة و سلطات واسعة.

و أما النظام الثاني فهو (النقشبندية) الذي أسسه بهاء الدين البخاري (٣١٧ ـ ١٣٨٩) و إنتشر في كُردستان في وقت لاحق. كان وصول النقشبندية إلى كُردستان بفضل مولانا خالد، الكُردي المعدم من عشيرة الجاف الذي ولد في قرداغ سنة ١٧٧٩. سافر إلى المكة المكرمة على أثر حلم رآه في المنام، ليحج في مناسكها. فقابل هناك أحد الدراويش و كان ينظف جسمه من أدران القمل، كما شاهده في منامه، فأشار عليه الأخير بأن يسافر إلى دلهي، حيث سيجد هناك السبيل إلى إنقاذ الروح و خلاصها من الضياع. فسافر إلى هناك على أثر تلك النصيحة. و تعرف في دلهي على مدرسة الشيخ عبدالله. فدخل في مذهب النقشبندية. و بعد ذلك رجع إلى موطنه السليمانية سنة ١٨٠٨. فجابه هنالك معارضة شديدة من قِبل الشيوخ الآخرين. و لكن حالفه الحظ في النجاح لجذب الأعضاء إلى (طريقته) بفضل تعاليمه. و إستدرج أتباعاً من القادريين إليه، بحيث أصبح اليوم النقشبنديون أكثر نفوذاً. و يجدر بالملاحظة وجود شيوخ شمس الدين و الزهريين في كل من طويلة و بارزان. و لا تنحصر المنافسة بين المذهبين القادرية و النقشبندية في صلب التأملات النظرية و الأبحاث التجريبية فحسب، بل تتعدى في بعض الأحيان إلى ملابسات أخرى تؤدي إلى خلق مصادمات حقيقية بينهما.

و أما المذهب (التيجاني)، فهو أكثر حداثة، حيث أُسس في شمال أفريقيا من قِبل أحمد التيجاني(١٧٣٨ ـ ١٨١٥) و تبعه أفراد قليلون من بين كُرد الأناضول. و عانى هناك مثل المذاهب الأخرى من السياسة العلمانية على أيدي الأتراك بعد مجئ الأتاتُرك.

يبلغ تأثير الشيوخ على المواطنين الكُرد من المعدمين المتخلفين حداً لا يمكن تصديقه. و تتعدى الثقة العمياء التي يضعها(المريدون) في شيوخهم كل حدود المنطق و العقل. حيث

يقول أدموندس بهذا الشأن(نظراً لغياب السلطات الحكومية في المنطقة و إفتقارها إلى الإرشاد الضروري، يتورط أتباع النقشبندية من الكُرد بصورة عامة في أعمال شاذة وغريبة).

و مهما تكن الأوضاع، ينتاب خوف شديد في سوء نيات بعض الشيوخ الذين يستغلون بساطة أتباعهم و سهولة خداعهم للوصول إل مآربهم و تحقيق المنافع الشخصية منها. فمرجع ظهور الحركات المتعصبة بين حين و آخر الشيوخ هم الذين يثيرون أسبابها. و هذا ما حدث فعلاً أبان الحرب العالمية الأولى حينما نودي بالجهاد في مناطق أورمية. و يجدر بالذكر كذلك، أن معظم الحركات المسلحة و العصيان التي حدثت مراراً في العراق و تركيا أوقد نار جذوتها هؤلاء، و أكثرهم كانوا من النقشبنديين، و هذا الوضع ينطبق على الشيخ سعيد ثيران و الشيخ محمود في السليمانية، و الشيخ أحمد في بارزان، حيث لعبت المصالح السياسية المتعلقة بهذه الحركات دوراً أكبر و أهم من الدوافع الدينية(٤).

و ما هو باد للعيان أيضاً فقدان حوافز المذاهب التصوفية لدوافعها و قوة زخمها البدائيين، فضعفت الروحانية في أنشطتها. حيث ألف عن هذا البحث أحد الكُتاب المتصوفين التقليديين، و هو المؤرخ الأربيلي الشيخ محمد أمين الكُردي الشافعي النقشبندي المتوفي عام ١٩٠٤ كتاباً بعنوان(تنوير القلوب)، أعيد طبعه للمرة السادسة في القاهرة عام ١٩٢٩، يخيب فيه ظن القارئ و يقضي على ثقته بمثل هذه الجماعات، حينما يسرد أسلوب ممارستهم طقوساً تسمى بـ(زكر قليي). و يذكر(آربري) الذي إختصر محتوى هذا الكتاب، بأن المتصوفين في وضعهم الراهن، قد فقدوا سيطرتهم المعتادة على أفكار الناس و قلوبهم، و بالأخص أفكار الطبقات المثقفة، نتيجة لغياب أي نهج فكري في نظامهم بحيث أصبح المذهب غير واضح و غير محدد.فليس غريباً أن تشاهد مثل هؤلاء المتطرفين الأشذاد، في وسط تعوزه الثقافة و التعليم، دار في خلدهم بأنهم قد صاروا من أصحاب الرسالات، يرومون إصلاح المجتمع من النواحي الدينية و الإجتماعية. و تنتهي مهمتهم التي كتب لها العمر القصير بنتائج وخيمة. و نذكر القارئ في هذا البحث بالشيوخ في(تۆیزاوا) و (سەرگەڵو) العراقيتان، و إتهامهم، و إن كان ظلماً، باللاأخلاقية و ممارسة الأطوار الغريبة و تبنيهم لمذهب العري في نهج تطبيقاتهم الدينية.

الكُرد المنشقون عن الإسلام

إن الإنحياد عن المعتقدات التصوفية و تطبيقها بشكل صحيح، أدى إلى ظهور طوائف ضالة، إنتهت إلى الإنحراف عن الإسلام. و عانت في النهاية نوعاً من التغيير، أصبح بعد ذلك من الصعب تعيين مميزاتها و إنتسابها الحقيقي.

و أكبر هذه الطوائف المناوئة تتمثل في اليزيديين، أو عبدة الشيطان كما يدعون أحياناً. و هم إجماعاً من الكُرد. و عددهم يبلغ في الوقت الحاضر خمسين ألف نسمة، يسكن معظمهم العراق في وديان تملؤها الغابات حول نواحي شيخان و جبال سنجار. و يتواجدون أيضاً في بعض قرى الجزيرة و عدد من القرى الواقعة في جبال سمعان. و أما كُرد الإتحاد السوفييتي في مناطق إيريظان و تفليس هم أيضاً من أصل يزيدي. و لكون الدين تكتنفه الأسرار، فقد ظهرت النظريات المتنوعة من مختلف الأصناف في محاولة لتفسيره. و مما لا شك فيه بأن هذا الدين يتألف من ثنائية متكونة من الزرادشتية و الميثرائية التي تتمثل في وثنية بدائية كُردية، أو تفرع من المسيحية، أما الواقع فهو أن اليزيدية مشتقة من الإسلام بصورة مباشرة. و بغية التأكد من ذلك نحتاج إلى قليل من التأمل في معتقداتهم المذهبية و الإمعان في التقاليد و التطبيقات التي تظهر عليها المسحة الإسلامية الأصيلة التي تبرز في رموز الطائفة و مصطلحاتها و تقاويمها، و كذلك في تحريمهم رسم صورة الإنسان و ممارستهم عادة الختان. و نستطيع أن نضيف إلى كل ذلك تقديمهم القرابين، و وجود جمع من القديسين الأولياء، و الحج إلى ضريح الشيخ عادي، التقليد الواضح للحج عند المسلمين، حيث الطقوس التي تمارس هناك لأجل الحجاج بالكلمات العربية. و فضلاً على ذلك تشبع الأجواء بالممارسات التصوفية. و من المعلوم لدينا بأن الأولياء المقدسين لدى اليزيديين هم من المتصوفين المعروفين جداً، و تتطابق مراتبهم الدينية مع ما لدى الصوفيين من ترتيب الأصناف. و كذلك ترينا النصوص المتعلقة بالصلوات و نصوص أخرى متنوعة تشابهاً علنياً بالمعتقدات و الأفكار التصوفية. و حدة تشابه اليزيدية بالمذهب التصوفي تظهر في تطابق العواطف التصوفية الإسلامية للطائفتين، و يكون ذلك بادياً للعيان عند التأمل في المعتقدات القديمة عن أصل الكون و خلق الإنسان و البعث، ثم التقمص و تناسخ الأرواح، و بالأخص قصة تأهيل الإبليس(٥)، الأمر الذي أدى إلى إبتداع إسم مضلل خاطئ لليزيديين. فيتضح مما

سبق بأنه يتحتم علينا فصل تركيب مكونات الإسلام و تحليل وظائفه لكي نجد اليزيدية و قد إنبعثت من محتويات هذا الدين الحنيف.

و لكن كيف تسنى لمسلم مؤمن أصيل ان ينحاز بهذا الشكل و يحيد عن الإسلام و يصبح مؤسساً لليزيدية و معتقداتها؟ إن هذا الأمر يتمثل في واقع حدوث عملية تدريجية، عندما فتح باب الإلحاد من قِبل حيدر إبن أخ شمس الدين حسن(١١٩٧ ـ ١٢٤٦) مؤسس فكرة(زاويا). و بعد ذلك إنشق أتباعه إلى طائفتين. سافر قسم منهم إلى سوريا و مصر(قرافة). و ظلوا هناك على معتقداتهم الإسلامية الأصيلة و إيمانهم الراسخ، و أصبحوا معروفين(بالعدويين). و بقي القسم الآخر منهم يسكنون الجانب الشرقي لنهر دجلة في بلاد ما بين النهرين. و لم يتركوا جميع معتقداتهم التي تربطهم بنبي الإسلام محمد(ص) فحسب، بل إنفصلوا عن المسلمين من الناحية الدينية. و وصل بهم المطاف إلى خلق عداء مستحكم بين المسلمين و طائفتهم التي سميت باليزيدية. و أثرت المذابح التي حدثت منذ القرن السادس عشر بين آونة و أخرى على اليزيديين و إصرارهم على تقوية معتقداتهم المذهبية، حتى آلت إلى الغموض و أصبحت أشد غرابة و تعقيداً. بحيث نستطيع القول بأن اليزيديين لم يبقوا على عهدهم في الإيمان بالإسلام، بعد وقوع تلك الحوادث العنيفة، و لكن لا يمكن الإنكار بأنهم كانوا من المسلمين الحقيقيين في السابق.

بينما يمكن إرجاع أصول اليزيدية إلى المتصوفين السُنّة، نرى أن أتباع الخليفة يزيد الأول(٦٨٠ ـ ٦٨٣) قد إعتنقوا المذهب الشيعي، و هم طائفة كُردية أخرى، من المعتقد بأنهم ظهروا في لورستان و إنتشروا في شهرزور ـ هورامان، في أواسط القرن الحادي عشر بفضل مبارك شاه بابا خوسين، المرشد الذي كانت من بين مرافقيه السبعة أمرأة تدعى فاطمة، و هي نفس(بي بي فاطمة) ذات القوام الرشيق، أخت الشاعر الشهير و الذائع الصيت بابا طاهر الهمداني(٩٣٥ ـ ١٠١٠). و هنالك إعتقاد سائد بأن الطائفة أعيد تنظيمها من قِبل سلطان إسحق (أو سحاق)، نجل الشيخ عيسى البرزنجي و دايرارك خانم، بنت مير محمد رئيس عشيرة الجاف. قام سلطان سحاق في عام ١٣١٦ بتأسيس(نيازخانه)، أي دار النذور، في هورامان، و وضع مقره العام في(ثتردةظتر). و تألفت حاشيته من ثلاث مجموعات، الواحدة منها تضم سبعة أشخاص. و سميت الجماعات الثلاثة على التوالي بالخالدين السبعة و الطاهرين السبعة و الوكلاء السبعة. يجرى إنتخابهم من بين

إثنين و ثمانين من الشيوخ الزعماء، لتعيينهم كأدلاء. و ليس السادة الكاكيون الحاليون في العراق إلا أحفاد هؤلاء الأطهار. و أهل الحق يضعون علي بن أبي طالب(رضي الله عنه) في موقع إحترام و تبجيل عظيمين، بإعتباره مقدساً. و كذلك الحال بالنسبة لأحفاده من الأئمة، و لكنهم يحتفظون بعلاقاتهم الجيدة مع السُنة أيضاً. و كذلك يحترمون(بابا يادطار ١٥٩٦) و يحجون إلى مزاره، حيث يرفعون أيديهم بالدعاء إلى موسى و المسيح و الياس و الى داود بصورة عامة. و في إعتقادهم أن هنالك سبع أواله، تبدأ بالظهور بصورة متوالية بصحبة أربعة أو خمسة من الملائكة. و يؤمن أهل الحق بالتناسخ و تقمص الأرواح كالدروز و اليزيديين. و يسكنون في القرى الواقعة في منطقة طوران على جانبي الطريق بين خانقين و كرمنشاه، و قبائل لورستان يرجع أصلها إلى نفس الطائفة. و نخص بالذكر جماعة الـ(دلفانيين) الذين يشربون الخمر أثناء إقامة إحتفال كبير يقام في الإنقلاب الشمسي الشتوي. و ينتابهم أثناء ذلك تهيج مذهبي شديد، فيمشون على النار دون أن يمسهم ضرر. و يحتل الكاكيون ثمانية عشر قرية في لواء كركوك، و قرى أخرى عديدة في قضاء خانقين و قصر شيرين.

يعيش اليزيديون بصورة عامة في العراق. و أما الكُرد أهل الحق فعلى الحدود الإيرانية العراقية. بينما الـ(قزلباش). و هم يشكلون طائفة أخرى إبتداعية (هرطقية) يتواجدون في الأناضول حول مقاطعات سيواس و دياربكر و خربوط، و يتكلمون لهجة الـ(زازا). و تقع قلعتهم الحصينة، حيث يسكن الرئيس الروحي، في درسيم. و لربما يبلغ تعدادهم مليون نسمة. و يسكن بين ظهراني الأتراك عدا اليزيديين مبتدعون آخرون كالنصريين. و ينتمي القزلباش(ذو الرؤوس الحمراء) إلى طائفة من الشيعة المتطرفين المعروفين (بالعلويين). و يضع العلويون بين الخالق و عباده خمسة من الملائكة و إثنا عشر من الوزراء و أربعين من الأنبياء منهم(سلمان) المقدس لدى أهل الحق. و يدعى الرؤساء الدينيون المسؤولون عن الإرشاد و جباية المعونات ب(ده ده) أي السادة. و يقوم(المرشد) بزيارتهم مرة في كل سنة ليحضر الإحتفالات الدينية التي تقام فيها الصلوات، و لينير لهم الدرب لترسيخ المعتقدات المذهبية. و يصوم أهل عقيدة القزلباش لإثني عشر يوماً فقط و ذلك تيمناً بأئمتهم الإثني عشر، و كذلك لمدة ثلاثة أيام أخر قبل موعد عيد الخضر(خدر). و في إعتقادهم أن الصلاة واجب، يتحتم أداؤها مرة واحدة في اليوم. و

يعتقد بأنهم يعبدون الشمس في الغروب و الشروق و يبجلون النار و يقدمون إليها القرابين قرب منابع الأنهار. و لا يملكون كتاباً مقدساً خاصاً، بل يؤمنون بالإنجيل و التوراة.

إن المعلومات التي جمعها المسافرون عن القزلباش مربكة و متناقضة أحياناً. و قد يكون مرد ذلك إلى وجود طوائف ثانوية عديدة تعيش بينهم. و يدعى قسم من هؤلاء المسافرين بأنهم إكتشفوا نوعاً من المعتقدات للديانة المسيحية تمارس من قبل هذه الجماعة. و هناك صفات كثيرة تجمعهم(البكتاشيين) الذين يشكلون نظاماً للدراويش. و هو النظام الدراويشي الوحيد الموجود في تركيا من الذين ينادون بالمذهب الشيعي بصورة علنية. و الجدير بالذكر ان الجماعتين تزوران نفس الأماكن لأداء واجبات الحج بصورة متشابهة.

و بالإضافة إلى تلكم الطوائف التي لها إعتباراتها المهمة الخاصة، هنالك أيضاً مجموعات صغيرة منشقة، تختلف عن بعضها قليلاً أو كثيراً، و لكنها تتشابه في إسلوبها في الممارسات المذهبية، و تتميز جميعها بالميل إلى التشيع المتطرف، مما يستوجب الإمعان فيها بصورة مقتضبة. و من هؤلاء (الشبك) في ضواحي الموصل، البالغ عدد نفوسهم عشرة آلاف نسمة. و يظهر بأنهم يشكلون حلقة الوصل بين اليزيديين و المتطرفين من الشيعة، و كذلك يوجد الـ(سارلي) الذين يعيشون على ضفاف نهر الزاب. و يتصلون بالكاكيين و الباجوراين الساكنين في المناطق الواقعة على الحدود الإيرانية. و أخيراً يوجد الشمسيون المدعوون بهذا الإسم لكونهم يمارسون عبادة الشمس. و ظهروا إلى الوجود في ماردين منذ بداية القرن الرابع عشر. و يبدو أنهم الآن إضمحلوا نهائياً. و من المحتمل بأنهم تحولوا إلى مسيحيين يعقوبيين، و ذلك في مظهرهم الخارجي على الأقل.

الفصل التاسع

على هوامش الدين: الخرافات

على هوامش الدين: الخرافات

لقد قمنا مراراً بوصف العادات و تقاليد الزواج و الولادة و المناسبات العديدة الأخرى، من غير التي لها علاقة بالدين. و مع ذلك تجري مراعاتها من قِبل الجماهير بكل دقة، كما لو كانت طقوس دينية. و الواقع أن ما ذكرناه من الطوائف تشكل جماعات منحدرة عن الإسلام و لكنها إنشقت عن التعاليم الإسلامية الأصلية. و ذلك لأنها أتاحت الفرصة لرؤسائها في تطبيق ما يتعلق بالطقوس الدينية بحرية. و من المعلوم أن الممارسات الدينية و تطبيقاتها تحتاج إلى الدقة في التعبير ، و لها ميزاتها الخاصة، و بعكس ذلك ستلعب الشعوذة و السحر دوراً رئيسياً فيها. فالكُردي ليس متديناً بالسليقة(١). و يتفق على ذلك المسافرون الكثيرون الذين زاروا المناطق الكُردية. و لكن الكُردي مغرم بالخرافات، و دليل ذلك إنتشار المعتقدات الخرافية بين جماهير الناس بشكل عام، و كثرة وجود الأدعية و التعاويذ و السحر و الطقوس الغريبة، بالإضافة إلى العادات التي قد تكون من بقايا الوثنيين و عبدة الأصنام، كما يتخيلها بعض المختصين.

المعتقدات الخرافية

إن الكُردي الذي يمتلك بالفطرة روحاً شاعرية، يتأثر بجمال الطبيعة التي تحيط به. و يحس بسحرها و مفاتنها، و يشعر كأنها تمتلئ بالمخلوقات من عالم آخر، تبعث فيه الحيوية و النشاط و هو يعيش على أرض هذه الدنيا الفانية. فهنالك الحوريات عند العيون و المياه المتدفقة من الجبال، و الجن في كل مكان، يعتقد بوجوده الكُرد و الآثوريون معاً. فيهم الأخيار و الأشرار، و الأكرمون و الورعون، و الهزليون أحياناً. فالأكرمون و الهزليون يغطون رؤوسهم بطاقيات حمراء كي لا يراهم أحد، ثم يحومون في أعماق الوديان السحيقة و يختفي أشرار الجن في الشقوق و الأجواف بين الصخور و المغارات. و برغم أن أشخاصاً شجعان من ذوي القلوب الفولاذية قد حاولوا بدافع الفضول الوصول إلى تلكم

الأصقاع النائية و النفوذ إليها، إلا أنهم رجعوا خائبين، فاقدي الشعور. و أصابهم الجنون أحياناً كنتيجة حتمية لمساونهم. و تعتبر عتبة الأبواب مساكن لطيفة، يفضلها الجن، فعلى المرء أن يكون حذراً، لا يسكب الماء هناك لئلا يؤذي الأرواح الخفية. و بالرغم من أن الجن مخلوق من النار، إلا أن عليه أن يقتات على الطعام ليبقى على قيد الحياة. هذا و قد أفلح أحد شيوخ اليزيديين في سنجار في إجتذاب جنية، فكانت تتبعه أينما كان يذهب. و كذلك نجحت إمرأة آثورية في إستدراج جنية أخرى، فصارت تعينها في إنجاز أعمالها البيتية. و ثمة أفراد من الجن يتزوجون العفاريت، فيؤكد لنا التأريخ بأن الأمير محمد(حاكم بوهتان المتوفي عام ١٧٥٠) قد تزوج من حورية و أنجب منها أطفالاً عديدين. و قام رجل فقير من معدمي اليزيديين في سنجار بعمل مماثل في هذه الأيام. و لكن المسكين قد خانه الحظ، ففقد عقله و أصبح تائهاً معتوهاً يدور في الفيافي و القفار، و ثمة شيوخ قد ذاع صيتهم نسمع عنهم في الآفاق عن قدراتهم في السيطرة على الجن و فرض سلطانهم عليهم، و ما على المرء للحصول على التعاويذ و الرقيات إلا أن يلتجئ اليهم و يطلب مساعدتهم.

و يفسر بعض الظواهر الطبيعية حسب معتقدات غريبة. حيث يعلم الكُل في كُردستان، كأعراب البدو، بأن الخسوف يسببه حوت ضخم أو تنين يحاول إبتلاع القمر. و لطرد مثل هذا العفريت العملاق يستوجب إحداث أكبر قسط من الضجيج وإثارة الضوضاء بإطلاق البنادق و طرق الأواني النحاسية. و أما الزلازل فيعود سبب حدوثها إلى كون الأرض ترتكز على ظهر ثور أحمر اللون، يرفع أذنيه أحياناً، أو يهز ذيله. و ثمة مدرسة فكرية أخرى، تدّعي بأن هنالك ذبابة تحوم حول الثور، فإذا حدث و بلغت إحدى أُذني الحيوان، يرد هذا طرفه، فتهتز الأرض. و أما إذا وقعت على ظهر الثور عندئذ يرتعب، فيرتعش، و يعم الخراب في العالم. و يبعث الله سبحانه و تعالى الأمطار، فيأمر جل قدرته بذلك النبي سليمان، الذي يحكم الحيوانات جميعاً، ويعمل كوسيط لنقل الأمر إلى(هوماي) الطير الخرافي كالعنقاء. فيدعو هذا الطير الطيور كلها لتجميع مياه البحار و المحيطات. فترتفع الطيور بعد ذلك في الأجواء و تقوم برش تلك البقعة من الأرض التي يراد هطول الأمطار فيها. و حينما نرى قطرات صغيرة تسقط مع أخرى أكبر منها، فذلك لأن الطيور ليست كلها متشابهة في أحجامها. فحينما أنظر إلى السماء أرى أن للكُرد معتقدات جد غريبة عن الإجرام السماوية، و الظواهر الطبيعية الأخرى. فالشمس

و القمر، عندهم، شقيقان، أخ و أخته، في ملاحقة مستمرة. فالقمر يتبع الشمس لأنه وقع في غرامها. و يحدث الكسوف من جراء تصرفات الأخت المتغنجة التي تبدي الدلال. فتغطي وجهها عن أخيها المحبوب، لتثير لوعة الغرام. فيشتاق إليها مرة أخرى. و يعتقد الكُرد كذلك بأن لكل فرد كوكب خاص، يشع في كبد السماء. فإذا ما مات صاحبه يكف عن اللمعان. و يعتبر الكُرد الكسوف و الخسوف و ظهور المذنبات نذير شؤم يخبر بحدوث النكبات.

و للنساء عقيدة راسخة في فنون العرافات و قراءة الطالع(ديرى). و لهن في الغجريات ثقة عمياء عندما يستعملن عظاماً لأكتاف مختلف الحيوانات كالخرفان و غيرها، و كذلك الأساليب التي يلجأن إليها بكل وقاحة للرجم بالغيب.

و من المعتقدات التي رسخت في الأذهان بعمق، الإيمان بالعيون الشريرة. فالمرأة كالشرقيات الأخريات، تهاب مثل هذه العيون، و لكنها خلافاً في للإعتقاد السائد في الشرق عامة، لا تعتبر العيون الزرقاء مؤذية، لأن هنالك مثل يقول بأن(العين الصفراء شريرة). و من هو أكثر عرضة للضرر من العيون تلك هم الأطفال، و النساء اللواتي هن على وشك الولادة، و كذلك المرأة التي لم يمر على مدة إنجابها للطفل أربعون يوماً، فعليها عندئذ أن لا تزور إمرأة أخرى أنجبت حديثاً. لأن لتلك الزيارة مصيبة قد لا يمكن درؤها. و إذا حدث و ان قابلت إمرأتان بعضهما البعض و لم يمر على إنجابهما يوماً، فعليهما القيام بتبادل طفليهما و كذلك تبادل الأبر، ثم تستطيعان بعد ذلك الرجوع إلى الدار، دون أن تسبق إحداهما الأخرى.

الأدعية و التعاويذ

إنه لمن الضروري، وفقاً لما سبق، و درءاً للعيون الشريرة، و ضماناً لإبعاد السحر، و كذلك جلباً للحظ و الفأل الحسن، اللجوء إلى سلطان الطبيعة التي يكتنفها الغموض دائماً، و يتمثل ذلك في الإستنجاد بالأرواح و إستعمال التعاويذ، التي ظهرت فعاليتها و صدق براهينها في التأثير.

لذلك توجد تعاويذ صنعت من الجواهر الحقيقية من قِبل الحرفيين في محلاتهم، تركب على القلائد(بەرموره) أو (ملوانكه). و فضيلتها في لونها الأزرق الذي يدرأ الأذى، عن

مالكتها. و على تلك القلائد أصداف على شكل أجراس صغيرة، ذات رنين. و ترصع بالعقيق الأحمر و اليشب و العقيق اليماني. و ثمة تعاويذ أخرى توضع في أكياس معطرة يصنعها الباعة المتجولون و تتركب مثل هذه الأدعية من قصاصات ورق تحوي مربعات عليها رسوم بالحبر الأحمر، ينقش فيها(الساحر) صوراً و كلمات. و هنالك نقوش على الوجه الآخر، في صورة سيف مثلاً. أو مجرد نقاط حمراء بسيطة. و بعد ذلك تطوى الأوراق على شكل مثلثات صغيرة غالباً مع إبرة تم كسرها في الوسط. و توضع هذه المحتويات في كيس صغير. فإذا أضيف إليها شئ من الشعر لرجل متزوج ستضمن الزوجة حبه. و يوجد نوع خاص من هذه التعاويذ تحمي صاحبها من الرصاص (گولەبەند). و لا حاجة للذكر بأن هنالك شيوخ مختصين في تركيب مثل هذه الأدعية و التعاويذ التي يصممونها حسب الغاية المتوخاة من أجل الإستحواذ عليها.

و يصلح كل شئ لصنع التعاويذ بشرط أن يكون ضمن الحاجات غير المستعملة على نطاق واسع، مثل: أسنان الذئاب و جذور اللفاح(اليبروح) و قطع أخشاب معينة، و الأحجار و اللؤلؤ و بالأخص الوَدَعة(٢).

و أجسام الأطفال الصغار تغطيها التعاويذ و الأدعية، و تعلق على طاقياتهم و أكتافهم و حول الأذرع...الخ و كذلك النساء لا يستغنين عنها بالطبع، و حتى قسم من الرجال أيضاً، في القرى على وجه خاص. و لكن المثقفين سواءاً أكانوا في القرى أم المدن فهم يرفضون مثل هذه الخرافات.

الطقوس السحرية

لن يكفِ حمل الرقية، أو التعويذة على الجسم وحده، بل يستوجب أيضاً القيام بأعمال إيجابية من نوع معين، تكون على الأغلب غريبة. و تكون الغاية منها الحصول على ما لا يدركه الإنسان إلا بالأساليب المعروفة لدى المتمرسين في هذا الموضوع. و تتمثل كلها في طابع السحر بجذافيره، فمثلاً هنالك إمرأة تعتقد بأنها ستسيطر على زوجها بصورة مطلقة إذا إستطاعت إطعامه قليلاً من مخ حمار، و ذلك بدسه سراً في طعامه. و تمارس البدويات العربيات هذا العمل، و الكرديات بصورة قليلة جداً.

و توجد ظاهرة غريبة بين الكُرد و هي إستعمال الدائرة السحرية. إذ من المعروف جداً أن هناك كثيراً من الناس يباركونها و يظنون بأن لها صفات سحرية ترمز إلى الحماية، فضلاً عن أنها طريق للدخول إلى الآخرة. فسادت الأفكار هذه في كُردستان أيضاً منذ أقدم الأزمان بالطبع. و هكذا، بعد أن يرسم الكُردي دائرة حوله يكون في مأمن، فيستطيع أن ينام في أي مكان أثناء الليل، بعيداً عن كيد الكائدين و الشياطين و الأرواح الشريرة. و إذا سكب شيئاً من القار أو القطران حول نفسه، سيلتصق الشيطان به، و يتم القبض عليه. و عندما ينعكف المتصوف المتقشف على خلوته القاسية يرسم حول معتكفه دائرة(مندار) يرسمها بدم خروف ذبح من أجل النذور، بذلك يمنع الشياطين و الجن من التدخل في وظيفته و القيام بإزعاجه. و يصطف الشيوخ المؤمنون بالسحر عند تلاوة الأدعية و الصلوات على شكل دائرة، و اما اليزيديون، فهم أيضاً يؤمنون بالدائرة و قوة سحرها، فإذا حدث و إن حُبس أحدهم في داخل دائرة، لأجل الدعابة فقط، سيظل هذا المنكود الحظ جاثماً في مكانه إلى أن يأتي شخص و يزيل الخطر من حوله، وإلا فلن يتجاسر على مغادرتها و الهرب من الحلقة الدائرة حوله حتى و إن لُعن الشيطان أمامه.

و هناك طقوس يقوم بها الكُرد لجلب الأمطار، أو إيقافها. فعند حدوث الجفاف، لن يكتفوا بتلاوة الصلاة فحسب، بل يقومون بمراسيم أخرى خارج المدن أو داخل القرى. فحسبما يذكر توفيق وهبي، تقام الصلوات التي تسمى ب(نويژه بارانه)في الأماكن التي تتواجد فيها مساكن الدراويش(ديوانه). حيث يزور هؤلاء قبراً قريباً لشيخ من المشاهير (پير) بعد أن يلطخوا وجوههم بالسواد، لأداء صلاة المطر، ثم ينهمكون في ما يسمى بالـ(زكر) و هو رقص الدراويش. و تقوم النساء أيضاً بدورهن في محاربة الجفاف، بالذهاب إلى ينابيع المياه و سكب الماء على قريناتهن. أو يربطن أنفسهن بمحراث و يسحبنه إلى جدول. ثم يشرعن في حرث مجرى الماء. و هكذا، بعد أن يتزينَّ بأحلى ثيابهن، يتوجهنَّ جماعات و فرادى إلى ضواحي المدينة أو خارج القرية، إلى ظلال شجرة غائرة في القدم تقدسها الناس، فيتعسكرن تحتها و بجوارها و بصحبتهن الحاجات الضرورية للطبخ. و هناك يبدأن بالرقص حول قدر وضع على النار، و يداومن على الرقص إلى أن يكمل طبخ الطعام. و عندما ينتهين من تناوله يبدأن بسكب الماء على من منهنَّ تلبس أجمل الثياب. عندئذ ينتظرن هطول الأمطار. و إذا لم تمطر السماء قبل رجوعهن، يعاودن سكب الماء على ثياب إمرأة أخرى.

ثم يعدن إلى بيوتهن و قد إنتقعن بالماء من أعلى رؤوسهن إلى أخمص اقدامهن.

و في كركوك تجتمع النساء في الشارع تحت مزراب لتوزيع الطعام على الفقراء و يبقين تحته إلى أن تتبلل جميع ثيابهن و تتنقع و يتقطر منها الماء. و أما أهل الريف فيلقون برجل تقي في بركة من الماء. و يكتفي الآخرون في أماكن أخرى بإلقاء حجر في بركة، بعد أن يأتوا به من مرقد أحد الأئمة(پير) . و يبقى ذلك الحجر في قعر البركة إلى أن تهطل الأمطار. و يشترك الأطفال في تلك الأدوار بملء قلوبهم، فيضعون دمية خشبية مؤلفة من جزئين في شكل صليب تسمى(بوكه بارانه) أي عروس المطر، فيضعون عليها الثياب، و عمامة على رأسها، فيمسكها من ذراعيها طفلان، و يبدأون بزيارة البيوت، من دار إلى دار، و بصحبتهم أصدقاؤهم، يغنون أنشودة المطر.

و يطمس الأطفال الدمية في برك ماء البيوت، و تسكب سيدة الدار سطلاً من الماء عليها، ثم توزع عليهم الحلويات. و لإيقاف المطر خوفاً من إتلاف المحاصيل، يقوم الأطفال بعرض دمية مشابهة و بنفس الطريقة. و يغنون(كدو كدو) ليتلقوا هدايا. و ثمة طريقة أخرى أكثر تعقيداً من ذلك، و هي تتألف من لف حبل بسبع أو تسع عقد، ترمز كل عقدة إلى رأس اصلع ، ثم يلقى في النار. و يغني الأطفال أثناء إحتراق الحبل أنشودة(أشعلنا النار في رؤوس صلعاء، فلتحرقنا الشمس بأشعتها). و أحياناً يكتبون أسماء أربعين شخصاً من ذوي الصلعة على ورقة مشدودة بحبل، ثم يعلقونها بمزراب متجه صوب المكة المكرمة. و يمكن تسهيل العملية هذه بكتابة أسماء ذوي الصلعة على وريقة و تعليقها على جذع شجرة.

هل هناك طوائف لا زالت تعبد الأصنام

ليست المعتقدات الخرافية و الممارسات السحرية مقتصرة على الكُرد وحدهم، بل إنها موجودة إلى حد ما بين الشعوب المجاورة التي تسكن في الأناضول و قفقاسيا. و يوجد نوع آخر من الممارسات عند الكُرد من المعتقد بأنهم توارثوها عبر القرون.

إذا إفترضنا بأن ديانة قدماء الكُرد كانت عبارة عن المذهب الزرادشتي، يؤدي هذا الإفتراض ببعض المستشرقين و بعض الكُرد أنفسهم إلى الإعتقاد بأن عبادة النار و الشمس تركت بقايا لها بين الكُرد بصورة عامة، و بين اليزيديين بصورة خاصة. و لكن هذا

الرأي لا يعتبر من الحقائق الثابتة و لا يمكن إسناده بحقيقة كون اليزيديين و الشمسيين يتجهون نحو الشمس أثناء الشروق و الغروب، لأن هنالك كثير من المسيحيين يتجهون نحوها أيضاً. و أما بالنسبة لعبادة النار نفسها، فهناك ما يجدر الإشارة إليه، حيث لا يمكن إنكار حقيقة كون الكُرد يعتبرون الموقد شيئاً مباركاً. فدوام إشتعال النار في الموقد رمز لإستمرار الأسرة. و يذكر(مود موكري) بأن لرماد مواقد بعض المتصوفين من أهل الحق في كُردستان خصائص دينية ـ سحرية، في إعتقاد بعض الناس . و تؤكد المدام شانتر هذه الحقيقة أيضاً و تضيف إليها تفاصيل أخرى، مسهبة و مفيدة. فكتبت بأن الكُرد يكنّون لمواقد الأسلاف إحتراماً كبيراً. و كذلك لمواقدهم الشخصية في داخل البيوت، و لما يحتفظ بها الشيوخ. فالموقد الذي يتألف من الأحجار التي بني منها، مع النار المشتعلة بداخله، يعتبران عنصران نقيان خالصان، حيث تدور الوالدة مع ولدها حوله، و تدور الفتاة المقبلة على الزواج حول ناره قبل أن تغادر دار أبيها إلى بيتها الجديد. و توقد الأم النار في البيت الجديد لإبنها المتزوج حديثاً بجزوة تأتي بها من دار أبويه. وأما الجار فيمتنع عن أخذ النار من بيت لجاره، لأن ذلك نذير شؤم، و يجلب ما لا يحمد عقباه. و يجري الإعتناء بالنار ليل نهار في فصل الربيع حتى يحين وقت ولادة النعاج. و لا يحبذ حمل جذوة نار من تحت قدر أثناء تسخين اللبن، و لا المرور من بين خرفان القطيع عندما يحمل شخص ناراً مشتعلةً في يده. و ينتشر تبجيل النار كذلك بين اليزيديين و القزلباش، مع عدم وجود أي وشائج تربطهم مع عبدة النار، و لا وجود لمؤشر في مضمون تلك العادات و أساليب التطبيق ما يمكن أن يؤدي إل تشكيل طائفة متميزة بالمعنى الصحيح. فليست هناك صلاة معينة، أو حتى أدعية بسيطة خاصة بها. و لا هناك أي ظاهرة لتقديم القرابين. و يجدر بالذكر أن أحد الضباط القوقازيين إعتقد بأنه عثر في الحرب العالمية الأولى على آثار قوم كانوا يعبدون النار. حيث وجد داخل أحد الخيام قدراً وضع على مرجل ثلاثي القوام مربوط بسلسلة صدئة، و أحد أطرافه معلق بقرني وعل، و طرفه الآخر تحت القدر. و كانت الأحجار الملقاة حول الموقد تحمل رسوماً و علامات و أحرف. و لم يكن هناك أحد يسكن في تلك الخيمة، بل يحرسها أهل المخيم جميعاً، و يقومون بزيارتها في مناسباتهم الهامة حيث يقوم شيوخ الطائفة المتقدمين في السن بتقديم القرابين على الأحجار(نيكيتين). فهل يعتبر هذا المشهد دليلاً على وجود مذبح هناك، أو هيكل للعبادة؟ أليس من المحتمل أن تكون هذه القرون التي سودها الدخان و المبعثرة هنا

و هنالك بين أحجار الموقد، مجرد بقايا لفضلات وجبة طعام تناولها الرعاة؟ إذ لا تقدم الأحجار التي تحمل النقوش أي دليل مادي، و لذلك لكثرة آثار الأطلال في هذه المناطق التي تستخدم أحجارها في مختلف الأغراض. و هذه الحقائق كلها تجعل المؤلف في موضع شك بالنسبة لهذه المسألة. فعلى أي أساس يبني الناقد الأرمني رأيه عندما يذكر بأن الخيمة كانت عبارة عن مذبح؟ كان الوضع بالطبع يتغير لو تسنى للذين سكنوا في الخيمة تقديم شرح عن سبب وجودهم حول ذلك الموقد!

هناك شواهد أخرى بالنسبة لعبادة قوى الطبيعة. فمن المعروف أن الأقوام القديمة في العالم كانوا جميعاً يعتقدون بان الأرواح الشريرة و الخيرة تسكن في نوعين معينين من الأشجار، و كذلك حول بعض ينابيع المياه. و إختفاء هذه المعتقدات لم يحدث بصورة فجائية. و نعرف كذلك بأنه توجد أشجار كثيرة في كُردستان مع الينابيع المتعددة التي تعتبر مباركة. فكتب المستر درايفر مع عدد آخر من الباحثين حول هذا الموضوع، ذاكرين بأنه إذا إعتبرت مثل هذه العادات من صلب العبادة الصرفة، عندئذ لا تكمن العبادة في نفس الشجرة، بل إنما في الأرواح التي تسكن فيها، ذلك لأن الأشجار المقدسة تتواجد عادة في الأماكن القريبة من مراقد الأتقياء(پير).

و غالباً ما تدعى مثل هذه الشجار بإسم معين. فمثلاً، يدعو اليزيديون شجرة من أشجار التين الموجودة في قرية بعشيقة بست نفيسة، و توجد في (خرابك) شجرة توت مباركة. و العابر بقرب مثل هذه الأشجار يعلق على احد أغصانها قطعة من القماش كنذر. و يفعل مثل ذلك أيضاً عندما يزور المكان لأجل الدعاء لصحته. و لمدام هانسن رأي جدير بالملاحظة حول هذا الموضوع حينما تقول بأن الخرق المعلقة على الأشجار تختلف عن القطع التي تعلق على المساند بجوار المزارات، لأن النوع الأول يعتبر من مخلفات عبادة الأصنام، بخلاف النوع الأخير و توجد ينابيع مقدسة حول المراقد و التكيات، و غاية الحج إلى تلك المزارات هي الحصول على الشفاء. و يعتقد اليزيديون بأن عين الماء في (كانى زركى) أو العين الصفراء الواقعة في منطقة شيخان تشفي مرض الصفراء كما يدل عليها إسمها، و لا حاجة لذكر عين(زم زم) عند مرقد الشيخ عادي الذي يتصل منبعه مباشرة بالمكة المكرمة. و تستعمل الأخيرة لتعميد الأطفال. و تحتوي هذه المياه أكثرها على الأسماك. و تعتبر الأسماك هي الأخرى مباركة أيضاً، فلا يجوز صيدها. و من الأمثلة

الأخرى حول الينابيع، عين(باهزاني) في شيخان بجوار مرقد الشيخ(بيكو)، و عين الشيخ عبدالقادر في (ترنده) على جبل سيمان.

و تعتبر الكهوف و الصخور(الدولمنية)(٣) و الينابيع النقية المملوءة بالأسماك، و الأيك في المقابر القديمة و الأشجار المقدسة التي لا يجوز قطع أغصانها، حتى اليابسة منها، كلها مسكونة بالأرواح التي تحرس النباتات و المياه. و جميعها موجودة بكثرة في كُردستان. و تحظى بالإحترام بنفس المستوى الذي كانت عليه منذ أقدم الأزمنة في عصور عبادة الأصنام.

و عندما جاء عهد عبادة الأولياء القديسين الذي ربما قد حل محل عبادة قوى الطبيعة، لم يتم إجتثاث جذور تلك العبادة القديمة من قلوب كتل الجماهير البشرية رغم التعاليم الإسلامية و إرشاداتها الحكيمة الصارمة.

الفصل العاشر

الآداب

الآداب

قد يدهش هذا الفصل قراءاً لم يروا في حياتهم كتاباً كُردياً قط، أو يتعجبون من مشاهدة مثل هذا الكتاب. لا ريب أن مثل هؤلاء خاطئون. و الواقع انه هناك من يذهب إلى حد إنكار اللغة الكُردية، بالقول أن الكُرد يتكلمون لهجة مختلطة، مركبة من أنواع المفردات المنتقاة من العربية و الفارسية و اللغات الأخرى السائدة في المنطقة كالأرمنية و الكلدانية. و لكن هذا القول هو محض هراء و أوهام. فاللغة الكُردية موجودة بشكل تام. و إن ما قدم حولها من الدراسات المستفيضة خلال أكثر من قرن من قِبل المختصين الذين أدركوا و إعترفوا بكنيتها المنفصلة، يقدم برهاناً ساطعاً على هذه الحقيقة. و يكفي أن نذكر للقراء أسماء أحدث المتضلعين في هذا الموضوع، مثل ئـي. ان. ماككارس في الولايات المتحدة(١٩٥٨) و دي. ان. مكنزي من أوكسفورد(١٩٦١ و ١٩٦٢) و كذلك أي. تسكرمان في ١٩٦٢ و كردو عام ١٩٦١ من الإتحاد السوفيتي. و لقد قام الأخير بنشر قاموس كُردي ـ روسي يحتوي على ثلاثين ألف كلمة.

و لنذكر في بادئ الأمر شيئاً قليلاً عن اللغة الكُردية قبل الأطناب في تقديم آدابها الشعبية و آدابها غير المدونة. و بعد ذلك سنبحث في نتاجها العلمي المدون.

اللغة الكُردية

يتكلم الكُرد بلسان(إندو أوروبي)(١) يتصل بالفارسية الحديثة، و لكنه يختلف عنها في المفردات و النطق و القواعد. فهنالك لهجتان رئيستان في اللغة الكُردية، الكرمانجية في الشمال و الغرب، و يتكلمها كُرد تركيا و سوريا و الأقطار السوفييتية و شمال العراق، و الكرمانجية الجنوبية، و لا تزال معروفة بالسورانية، و تستعمل من قِبل كُرد إيران و شرق العراق. و تشكل البلاد الواقعة في حوض الزاب الكبير حدوداً فاصلةً للتباين الموجود بين اللهجتين. و أما بعض الكُرد، و من بينهم الزازا فيتكلمون لهجة خاصة و هي الگورانيه.

و تحوي اللغة، فضلاً عن كل هذه اللهجات، إختلافات كثيرة، بحيث نستطيع القول بأن لكل عشيرة و كل وادٍ لهجة خاصة. و هذه ظاهرة تشترك فيها جميع الشعوب الساكنة في الجبال. و ليس هنالك على كل حال لحد الآن ما يبعث على الدهشة، لأنه، إذا إستعمل العرب لهجاتهم الشعبية مثلا، فيكون من الصعب للمغاربة فهم اهل العراق، و المصريون فهم اللبنانيين بصورة جيدة. و تتكون مفردات الكلمات الكُردية من(الإيرانية) من حيث الأساس، و لكنها تأثرت بالعربية و الفارسية و التركية، و بالأخص من المفردات الخاصة بالدين، لأن الكُرد يعتنقون الإسلام و يعتبرون لغة القرآن أساساً متيناً للتعبير.

إستعمل الكُرد منذ البداية، كالأتراك و الفرس، اللغة العربية لتدوين كتاباتهم. و لكن الحروف العربية التي تصلح للغات السامية بشكل جيد، لا تناسب اللغات الأخرى التي يستعملها المسلمون و التي هي ليست خالية من الأصوات العربية القوية فحسب، بل فيها أيضاً أصوات إضافية تنطق بالشفاه، و هي غير معروفة في اللغة العربية. لذلك أضاف الفرس إلى الأبجدية العربية حروفاً جديدة، ترمز إلى فونيم معين. فمثلاً(ذ) و (ظ) لا توجدان في لغة القرآن. و يتعذر التدليل على الأصوات اللينة(Vowel)بالكتابة العربية. لذلك، أضاف الكُرد، و بالأخص في العراق، علامات أبجدية معينة. و هذا مما جعل المفكرين الكُرد، و منهم أمير بدرخان بشكل خاص، لا يحجمون عن تتبع خطوات كمال أتاتُرك، رائد الشعب التركي، و ذلك بإستعمال الحروف اللاتينية في أبجديتهم، فأستعملوا علامات مفردة لكل صوت معين، بحيث يمكن لهذا الصوت أن يرسم كتابة بالعلامة نفسها. و يشكل هذا النظام أبجدية صوتية جيدة و بسيطة، برهنت على كفاءتها خلال أكثر من أربعين عاماً. و نستطيع القول بأن للنظام قوة القانون بالنسبة لكُرد سوريا و لبنان و تركيا.

و لأجل كتابة اللغة الكُردية يفي إستعمال(٢٦) حرفاً لهذا الغرض. إذ هنالك خمسة حروف مخصصة للأصوات اللينة(A,E,I,O,U) و إثنان شبه ساكنان(H,X) و تسعة عشر للأصوات الساكنة(Consonts) و هي (B,C,D,F,G,H,J,K,L,M,N,P,Q,R,S,T,V,X,Z) (٣). و تحمل ثلاثة أحرف لينة الإشارات(Ê,Î,Û)، و حرفان ساكنان يحملان السديلة(Ş,Ç). و إثنان آخران يحملان إشارة(H,X). و لهذه الأحرف نفس الألفاظ في اللغة الفرنسية تقريباً ما عدا الحرفان(E,A) قصيرتان جداً و A = I الساكنة و OU = U. و أما بالنسبة

إلى الحرفين الساكنين(S,C) فهما صلبتان دائماً و C = ج و C = ش و = ض و X = خ،غ.

و لقد إستعمل كُرد الإتحاد السوفييتي الأحرف اللاتينية بعد إجراء بعض التبديلات في الأحرف. و قبل بدء الحرب العالمية الثانية بقليل إستعملوا الأبجدية السيريلكية(٤) مع إجراء بعض التعديلات عليها. و يعتبر هذا النوع من الكتابة أسهل و أوضح من الطراز العربي الذي إحتفظ به في العراق لحد الآن. و من المؤمل بأن يتفق الكُرد جميعاً على تبني الأحرف اللاتينية التي ستجعل الكتابة و القراءة سهلة بالنسبة للأطفال ، لأن تحقيق مثل هذا العمل سيساهم بلا شك في توحيد اللغة و أفكار الشعب.

الأدب الشعبي و الآداب الشفوية

كما هو شائع عند الشعوب التي لا تملك الآداب المدونة المتطورة، نجد الأدب الكُردي غير المدون(الشفوي) واسعاً و غنياً بشكل كبير. و يمكن التعرف على ضخامته في الجزء الخاص بالأدب الفولكلوري (فلچيفسكى). و لأجل إستيعاب ذلك بصورة جيدة، علينا الرجوع إلى المجموعات الواسعة للوثائق التي تم نشرها من قبل الباحثين الأجانب مثل: رابا و ليرض و شرايم و سوسن و ماكاس و مان و هادانك و نيكيتين و ليسكوت و مكنزي.....الخ. و بعض هذه النصوص قديمة نسبياً، منها ما يرجع إلى الوراء كثيراً لحد القرنين الخامس عشر و السادس عشر. و مع ذلك شرع الكُرد أنفسهم، بالإضافة إلى ما سبق، في إجراء بحوث كثيرة* عن الموضوع، و بالأخص في الإتحاد السوفييتي حيث أخذوا خلال ثلاث أحقاب مضت يدونون ما أمكن جمعه من أفواه المتقدمين في السن و من اصحاب الذاكرة القوية و القصاصين المتجولين. و كذلك قاموا بتدوين الأغاني و الأساطير القديمة و الحكايات الشعبية. فإستطاع كل من حاجي جندي و أمين أفدال و جاسم جليلي من إنجاز أعمال باهرة في هذا المجال.

و تظهر غزارة الفولكلور قبل أي شئ آخر في الأمثال الشائعة و الأقوال الحكيمة و الأحاجي و الألغاز و الأغاني و الحكايات، و بالتالي في الملاحم الشعرية.

فالأمثال الكُردية الكثيرة غالباً ما تكون لاذعة و مفعمة بالحيوية. و لقد إستشهدنا ببعضها في سياق هذا الكتاب. و الواقع أن الكُردي يشتاق إلى تلطيف أقواله و تزيينها

الأغنية عند النظر إليها أول وهلة، عن المنظومات الأخرى العاطفية، حيث نجد التكلف المعتاد(عواطف المحبة غير المتبادلة، و الفراق و اللقاء في منتصف الليل، و المناجاة بين حبيبين) و لكن الأساس و الإطار اللذين بنيت في مضمونهما القصة، يشكلان عاملاً يضيف إليها خصوصية تتسم بالتوافق في اللحن و الموسيقى،. فيبدأ كل مقطع بنظرة خاطفة إلى مناظر الخريف التي تعكس الأفكار القاتمة للشاعر. فعلى الجبال يسدل الضباب، و تفيض السيول بمياه المطر المبكر، فتنحدر إلى الوديان و تهدر. و تكسو الثلوج القمم الشاهقة، نذيراً بإقتراب الشتاء. عندئذ تترك القبائل الرحل مراعيها في ديار الصيف، و تحمل خيامها نحو السهول. و ها قد ولت الأيام الخوالي. و إنتهى الغزل و مواعيد اللقاء و ما كاد لها أن تبدأ. و حلت لحظات الفراق ، ثم الوداع مع حبيب ملأ قلبه الحزن و الأسى. و لكن مع ذلك لا يتجاسر أن يبوح بمكنوناته و مشاعره.

و اما الأغنية التالية، فقد عثر عليها المؤلف قبل ثلاثين عاماً، و فيها تغني (ميرموك) أي المريم الصغيرة، أنشودة الحب بغنج و دلال و ترينا ذكاءها الحاد في كيفية التعامل مع معجب وقح. و هي عبارة عن ثنائية بين حسناء و جواهري، تطلب فيها من الصائغ أن يصنع لها وردة ذهبية لتضعها في منخرها الأيسر، كما تفعل النساء الكُرديات.

- إصنع لي أستاذ حنا وردة ذهبية،
و لكن لا تلويها بكلابة،
لا تضعها على سندان،
و لا تهوي عليها بمطرقة.
إحلف بالله، سوف لن تندم.

- ساصنع لك الوردة الذهبية،
و لا ألويها بكلاب،
و لا أضعها على سندان،
و لن أضرب عليها بمطرقة.
سوف لن أندم على شئ،
لو منحتني قبلتين.

ـ ليكن ذلك، و لكن لا تضع رجاءاً على قبلاتي،
إن لم تعطني عوضاً عنها،
سبعة قطعان من الخرفان،
و سبعة قطعان من المعز شعرها معقص،
و سبع قطع من الأرض،
و سبع طواحين،
و سبع معاصر للخمر تحركها الدولاب،
و سبعة أكواب تحوي حليب الطيور.
فما أجودها من صفقة مربحة،
لن تخسر فيها شيئاً!

لا يقل التراث الفلكلوري الكُردي ثروة في القصص(چيرۆك) عن ثروته في الأغاني. فالأطفال يحبون الحكايات، و يظل غير المثقف طفلاً في مشاعره يتوق إليها. فلا شئ يستهويه أكثر من حكاية لطيفة تنسيه متاعب عمل شاق قضى فيه يومه الطويل لقاء الحصول على لقمة العيش.

و هكذا، نرى الحكايات و القصص العجيبة عن غرائب الطبيعة، و عن تفسير أصل الصروح و التماثيل العجيبة. كحكاية أمير بهدينان الذي أمر بدفن(دەلالی) في بنيان جسر زاخو، لأنه كان سينهار بدون تقديم ضحية بشرية. وثمة أسطورة أخرى من (بنطول) البركة المؤلفة من ألف بحيرة. و كذلك أسطورة البحث عن ينبوع ماء الحياة الذي يخلد البشر. و نذكر بهذا الخصوص أن آر. هليكوت قد نشر في عام ١٩٤٠ مجموعة كاملة تحوي قصصاً مختلفة مليئة بالمغامرات و المصاعب و الأهوال، من ضمنها حكايات القرع(اليقطين) و (كەچەلوك) أو الاصلع و (سلێمانی زیندی) و (هرزم ذو الأذنين الطويلتين) و (الحاج بيرم).

و يتلذذ الكُرد بالحكايات لمجرد سردها. و تتألف أنواعها من القصص التي تحتوي على النوادر. و الكُرد لا تنقصهم روح الدعابة. كما يشهد على ذلك المسافرون الذين شاهدوا كُردستان. حيث هنالك فكاهيون ظرفاء يستغلون مواهبهم و قابلياتهم في تأليف

القصص الهزلية يتفكهون بها حتى على أنفسهم و على هفوات الذين يعيشون معهم، أو لهم صلات متينةلابهم. و النقد الذي يوجه أحياناً يكون غالباً بطابع جميل. و تذكر الحكايات، التي هي من هذا النوع، القارئ بالقصص الخرافية الشائعة في أوروبا. و أما الهجاء فيجد له هدفاً سانغاً في شخص رئيس القبيلة و أمراء القبائل المجاورة. و كما هي العادة في جميع أنحاء العالم، تطلق على كل مدينة أو قرية إسماً فتشتهر به. و قد يكون الوصف عادلاً أو غير عادل. فتبعاً لهذه الصفات، تشتهر بعض العشائر في كُردستان بالشجاعة، و تتعرض بعضها للسخرية و الإستهزاء، من جاراتها التي تحيك لها الأقاويل و ينتاب المرء الشك في تصديقها، و لكن لا أهمية لذلك، مادمنا لا نجد بين جموع الضاحكين من يحمل أي ضغينة أو حقد.

و هناك نموذج آخر للقصص، ينال فيه الكَرد قصب السبق و هو يتمثل في أقاصيص الحيوانات التي تظهر فيها مخلوقات من كل الأنواع، فتعج بالحياة و الحركة مثل الحيوانات المحملة على ظهر سفينة نوح. فتظهر الأفعى و تتأبط الشر بتحريض من الشيطان لتمثل دورها في الفردوس على الأرض. و تتجلى في القصص صفات الدب و الذئب و الأسد و طبائعهم. و في الإمكان جمع موسوعة قصصية كاملة يكون القائم بالدور الأساسي فيها الثعلب وحده. فنراه في صراع دائم مع الذئب أو الأسد أو الديك أو الحمار أو البوم أو الغراب أو اللقلق أو الفأر أو السلحفاة أو الأفعى. و يحاول الثعلب الماكر في جميع هذه القصص التغلب على خصمه في كل الظروف و قد يفلح دائماً، و لا تسير الأمور كما يشتهي. و ما أكثر ظهور الملك سليمان على مسرح الأحداث ليستفسر من الحيوانات عن أحوالها و ما قامت به. و للطيور فضائلها و رذائلها. فإذا أراد الإنسان أن يعرف من يخلص له من بين هذه الأجناس، لا يجديه نفعاً الإتكال على الزرزور أو اللقلق أو الكركي(الغرنوق) و حتى على الحجل، بل عليه الإعتماد على غراب العقعق، ذلك لأنه لا يطلق جناحيه للريح وقت الشدائد. و جميع هذه القصص تحوي دروساً أخلاقية بإسلوب الكاتب القصصي لافونتين(٧).

إقتصر البحث لحد الآن على النماذج الأدبية الصغرى كمنظومات الأغاني الوجيزة المؤلفة من أبيات سهلة للإستذكار تغنيها جماعات تشكل الفرق الغنائية، و على الحكايات القصيرة التي لا تشبه ما قام بنشرها آر. هليكوت. و لكن الواقع هو أن الأدب الكُردي أعلى مكانة و أوسع أبعاداً من ذلك. إذ بينما يتسنى للمرء الإستماع إلى

أغاني الحب و الأقاصيص و الحكايات الخيالية، نرى الحوادث الواقعية تؤخذ بإهتمام أكبر. فتوضح الحروب و المعارك في مضمون أشعار غنائية. فنشاهد الحقائق في الملاحم الكُردية العظيمة متداخلة و متشابكة مع إطار الأساطير ينشدها مغنون يتمتعون بمكانة مرموقة في المجتمع، و لكن بات من النادر الإلتقاء بهم مع مرور الزمن. و يقوم هؤلاء القصاصون الرواة(چيرۆكبێژ، دەنگبێژ، ستراناڤان) بسرد القصص في ألحان غنائية. و عند قراءة الملاحم يبدأ الراوي بعرض مجريات أحداث القصة نثراً و غناءاً و يعلو بصوته منشداً في نثر ملحن لتقديم أشخاص الرواية. و عندما يكون هناك عدد كاف من المغنين، يستلم أحدهم دور الإلقاء، و الباقون ادوار أشخاص الرواية. و يبدأون بالغناء حسب هذه الأدوار. و يتم نظم القصص (چيرۆك) و الأساطير(چرِ چيرۆك)عادة في نثر مقفى، و تتخلله هنا و هنالك أبيات شعرية. و يجري أداء النثر المقفى بلحن هادئ، حيث يبدأ (دەنگبێژ) بتقديم الأوصاف في منظومة شعرية. إلى أن يصل إلى نقطة يقف عندها. و تتوافق القوافي في لحظات الوقوف، كلما يكف المغني عن غنائه. و عندئذ يعاود المغنون غناءهم(كامران بدرخان). كان هناك في الماضي مدارس للغناء و أخرى لتدريب المغنيين يساندها الرؤساء و الآغوات و المتنورون و يقدمون المساعدات إليها، و لكن الأوضاع قد تغيرت الان، فأصبح المغنون المتجولون القدماء يأخذون بالزوال.

لقد تم نشر نصوص كثيرة تؤلف مصادر للمعلومات و تأريخ العشائر مع تقاليد و عادات الكُرد القدماء التي أتاحت إكتساب معرفة كبيرة عن الطقوس و المعتقدات و الخرافات و عبارات القسم و أسماء الآلات الموسيقية القديمة، و الأمثال التي تلقي الأضواء على مختلف الأوضاع. و يذكر نيكيتين عن هذا الموضوع بأن(هناك مناظر للصيد و المعارك و وصف للطبيعة عن السيول الجارفة و الأعاصير، و عن اليأس في الحب و الحقد و سكب اللعنات عليه، و كذلك الصلوات الموجهة إلى الطيور و الخيول و الثلوج. و التناقض في الطبائع بين أهالي الجبال و السهول). فبالإستطاعة الحصول على قدر كبير من أنواع المعلومات المتباينة جداً حول المواضيع التي تستحق العناية لتزويدنا بالمواد و المعطيات اللازمة للبحث و الدراسة. فهنالك في هذا التراث مخبأ حقيقي لكنز مهيأ للإستخراج يصلح إستعماله بمثابة مقدمة لما يتمتع به الشعب الكُردي من الروح الفياضة.

لا ننوي بالطبع درج جميع ما نشر من الأساطير، بل نقتصر على الإشارة إلى أكثرها شهرة، لأن القصص الأسطورية غالباً ما تكون طويلة جداً، و لكن من الممكن تجزئتها إلى عدة أصناف:

توجد أساطير الأعاجيب، حيث يحلم المتسول البائس وسط شقائه و نكد حياته، بتحقيق ما يتمناه في أن يأكل ملء بطنه و يرمي بأسماله القديمة و يلبس ثياباً فاخرة. ثم يجعل من كوخه قصراً تنفتح أبوابه على نسائم الجنة و يحقق مشاريعه فيتزوج فتاة أحلامه، و يرزق أطفالاً من ذوي الخلق و الجمال. و لكن الواقع غير ذلك، أنه قاس مرير. فعليه أن يقتنع و يصغي إلى حكاية فقط، عن المصاعب و الأهوال التي صادفها بطل، فأفلح في الحصول على ما كان يرنو إليه و يطمح فيه، و لم يكن ذلك ليحصل لولا فضل الحوريات من ذوات الحسن و الجمال و القلوب التي يملأها الحب الصادق و العطف و الحنان. فها هو ذا البطل ينعم بالحب وسط جنائن الفردوس. تصطف أمامه أطباق الطعام الشهي، يأكل منها ما يشاء، و يرتدي من الملابس أحلاها و أندرها، من الحرير و الدمقس المرصع بأنفس الجواهر و المزين بالنقوش و الفسيفساء. و يجد في قصره ما لذ و طاب. و فيه الذهب و النفائس و ما تشتهيه الأنفس و حوله ضحكات من ذوات الأتراب الحسان من أجمل ما خلق الله من النساء. و ذلك يتوفر كله حينما يتم للبطل النصر بعد أن يتغلب على العقبات التي يضعها القدر أمامه. و يستطيع أيضاً القضاء على الشرور و الآثام التي تطبّع عليها و إنقاد وراءها.

و نستطيع إدراك المكونات المادية لأساطير الأعاجيب من هذا الطراز، بدراسة مضمون الكلمات المدرجة فيها، حيث نشاهد تنوعاً لا نهائياً في تعدد مواضيعها.

و توجد بين أيدينا أسطورة شائعة جداً لـ(مم و زين) التي يرجع تأريخ نسختها الشعبية القديمة إلى القرن الرابع عشر أو الخامس عشر. و هنالك أيضاً أسطورة (سيف حاجي) و (هوزيك)...الخ.

و نشاهد أيضاً أساطير ريفية من نوع بسيط نموذجي نظمت بأسلوب شاعري عن الغزل. و الكُردي المعجب بحكايات الحوريات، و القصص التي تدور أحداثها حول الحصول على الثروة و الغنى الفاحشين بوقوع معجزة أو بمحض الصدفة، لتحقيق السعادة التي لا يحصل عليها في هذه الدنيا، تستهويه بالطبع كذلك الحكايات التي تحوي مغامرات أقل إثارة، من النوع الذي يعبر عن المشاعر الإنسانية بإسلوب أجود و أقوى. فيصف هذا

النوع الشجاعة التي لا تلين و الكرامة التي لا يمكن هدرها. و تتميز كلها إختصاراً بالحب المثالي الذي لا ينقطع ذكره في مكونات منظوماتها الشعرية و مواضيع حوادثها العاطفية. و هكذا يصغي المستمع الكُردي بكل قريحته إلى الروايات الغرامية عن حب زليخا و فاتول و مجنون ليلى و سيامند و خجي و خورشيد و خاوەر و شيرين و خسرو......الخ و توجد جميع هذه القصص في الآداب الشعبية الفارسية و التركية و الأرمنية أيضاً.

و أخيراً هنالك الملاحم المبنية على الأحداث التأريخية. فبينما نجد الفرد الكُردي عاطفياً أحياناً، نراه محارباً شديد البأس يتفاخر بالمآثر التأريخية و الأعمال الخارقة التي قام بها الأبطال من الإيرانيين الذين تبنى هو مفاخرهم. حيث لا يزال يتمتع بالإصغاء إلى سماع صوت قعقعة السلاح، لأنه كان لكل غزوة و كل معركة عشائرية شاعر خاص يبجل بطولاتها و ينشد عظمة منجزاتها. و أولئك هم القصصيون (دەنگبێژ) الذين ذكرناهم سابقاً. لكن بالرغم من الأعمال الجليلة التي قام بها كل من الشيخ محمود و ملا مصطفى البارزاني لم تثر المنشدين ليتغنوا بها لأن من سجايا الكُرد الإلتفات إلى الوراء لتأليف الملاحم الغارقة في القدم. و مع ذلك نجد حرب التحرير (شەڕی آزادي) التي تم نشرها في بيروت عام ١٩٦٤. و تعتبر ملحمة دمدم واحدة من أشهر تلك المآثر التي تروي قصة حصار القلعة الحصينة و تفاني الكُرد في الدفاع عنها عام ١٦٠٨، عندما هاجمتها قوات شاه عباس الأول. و يعتبر (كۆر أوغلو) كذلك بطلاً أسطورياً لأنه كان يحمي الضعفاء و المساكين. و أما(جلندي))، الملك الخرافي، فيقال بأنه تحالف مع الشيطان ليصد الغزاة المسلمين في القرن السابع. و لرستم صولات و جولات مع (زۆراو) و(جيهانگير) أو (زردهنگ). و بالإضافة إلى ذلك يمكن أن نقرأ عن بطولات(جوثيل) و شجاعته، عن فرسان مريوان الإثني عشر، و عن أعمال عبدالرحمن بابان. و بالنسبة لغيرها من الأعمال الحديثة، يمكن الإطلاع على(ايزدنسر بدرخان) التي تتألف من الأغاني التي يأتي ذكرها في بعض الملاحم الخاصة. و ثمة قائمة طويلة للملاحم الأسطورية و أخرى للوقائع التأريخية المطعمة بالأساطير. و تظهر فيها شخصيات تأريخية كالخلفاء و السلاطين و الملوك مع البطولات و المغامرات المنسوجة من الخيال و المستوحاة من عالم الأعاجيب و النوادر. لقد قام دي. ان. مكنزي مؤخراً بطبع مجموعة شيقة من هذه الأساطير التي تحتفظ بفحواها الشعبي الأصيل، ويشعر القارئ بالمتعة في قراءتها لما فيها

من الحقائق المتعلقة بعلم الإجتماع. و أما الكُرد السوفييت فيعيدون سبك الملاحم القديمة أثناء المناسبات بروح المفاهيم السوفييتية. فليس من المتوقع أن يكون لمثل هذه الأعمال أي تأثير إجتماعي أو سياسي على المستوى الدولي، و لن يخلق تجديداً في الأدب الكُردي و لا إضافة شئ قيم إلى تراثه الشعبي.

لا شك أن إنتشار الثقافة و التعليم سيحدث شللاً في الآداب الشفوية التي تتعرض دائماً للتعديل و التصحيح، فتفقد أخيراً طراوتها على حساب كسب الجودة في الأسلوب و الدقة في واقعيتها، لتصبح حتماً أقل حيوية و إبداعاً. و أما إنتشار أجهزة الراديو و الترانزستر في كل مكان و كل كوخ، فقد قضى للأبد على وظيفة المغنين المتجولين. و تلك هي النتيجة الحتمية للتقدم الذي لا يمكن منعه، و لا جدوى للندم بشأن ما قد حصل بسببه.

الآداب المدونة الحديثة من بدئها إلى الحرب العالمية الأولى

إن غزارة الأدب الشفوي (غير المدون) يجب أن لا يدفعنا إلى غض النظر عن ثروة الآداب المدونة التي ظهرت إلى الوجود بفضل جهود ثول أي. رابا، القنصل الروسي في أرضروم. و إستمر عليها إجراء الأبحاث منذ ذلك الحين لتوسيع آفاق المعلومات حولها. و لقد جُلب إنتباه المؤلف إلى وجود بحث حديث عن هذا الموضوع كتب في موسكو، و لكن لحين صدوره سيبقى كتاب(تأريخ الأدب الكُردي) لمؤلفه علاءالدين السجادي، من أكمل ما يمكن العثور عليه حول هذا الموضوع. نشر هذا المجلد الأخير في بغداد عام ١٩٥٣ باللغة الكُردية، و يتألف من موسوعة كبيرة مكونة من ٦٣٤ صفحة، يتحدث المؤلف فيها، بعد مقدمة عن كُردستان و أهلها، عن مراحل تطور الأدب الكُردي و عن أصنافه. و يتبع ذلك بملاحظات شاملة عن أربع و عشرين شاعراً و مجاميع أعمال(٢١٢) مؤلفاً آخر، مع جميع الشعراء الكُرد في إيران و العراق من المتوفين. و لكنه لم يقم فيه بمعالجة الأعمال النثرية المدونة لكونه قد أرجأ هذا العمل إلى مجلد آخر سيقوم بنشره في المستقبل. و ليس في نية المؤلف الكتابة عما هو محض هراء، حيث لا يمكن أن يوجد بين القراء من لا يندهش من كثرة عدد رجال الدين بين الصفوف الطويلة للأدباء بهذا الشكل البارز في الكتاب، و لكن من الطبيعي أن الدين و العلم و الشعر قد تقدمت

جميعها بنفس المستوى و بموازاة بعضها البعض، و هذا مما يفسر واقع تعدد رجال الدين بين الأدباء. هذا و بالرغم من عدم ذكر الكنية الدينية لهؤلاء الكُتاب، بمقدور القارئ أن يلاحظ من بينهم ٣١ شيخاً و ٥٠ شخصاً من الملالي و ٥ مولانا و ٤ فقهاء. و بالإضافة إلى ذلك هناك ٩ خان و ٣ أمراء و ١١ بيگا و خمسة نساء.

إن اصل الأدب الكُردي غامض لا يعلم عنه الكثير و المؤرخون لا يتفقون في الواقع حول تواريخ بعض الشعراء، و كذلك يميل المؤلفون الكُرد على الأكثر إلى إرجاع الأعمال الأدبية إلى الماضي السحيق، فلا يمكن و الحالة هذه تثبيت الوقائع بصورة مضبوطة دائماً. و لكن واقع الأحداث يكفي أحياناً للتدليل على بعض الأشعار. فمثلاً، وفقاً لما يذكره سوسين، إن الملا أحمد باتي(١٤١٧ ـ ١٤٩٥) هو الذي ألّف ملحمة دمدم. و هذا شئ مستحيل لأن الحوادث التي تشير إليها الملحمة حدثت في وقت متأخر عن هذا التأريخ، في حوالي عام ١٦٠٨ تقريباً. كذلك لا يمكن لـ(فقي تيران) أن يكون قد عاش بين عامي ١٣٠٧ و ١٣٧٥، ما دام هو الذي ألف مرثية عن موت أستاذه(ملاي جزيري) الذي توفي عام ١٤٨١. و من الصعب الإقرار بأن (علي جرموكي) الذي يمثل (رونسارد)(٨) في الأدب الكُردي قد عاش في القرن الحادي عشر. و لا علم لكثير من المؤرخين بهذه الحقائق، لأن الذين يشيرون إلى التواريخ التقليدية يرددون ما كتبه الآخرون. فالدراسة الجدية لمفردات الشاعر و إسلوبه هما اللذان يحسمان مثل هذه المواضيع، لأن النصوص الأصلية لهذه الأشعار قد ضاعت أثناء قصف مدينة برلين. و مما يضيف إلى الصعوبات بصورة أكثر، إن بعض الناشرين الكُرد لا يترددون في ترجمة نصوص أعمال الكُتاب الأقدمين إلى اللهجات الحديثة لتسهيل فهمها من قِبل القراء المعاصرين. و بذلك يضعون حجر عثرة في طريق الدراسات النقدية. و بالرغم من أن الرباعيات الصوفية الأربع لبابا طاهر الهمداني مكتوبة بلغة قديمة و بلهجات مختلطة، إلا أن الكُرد يعتبرونها جزءاً من آدابهم، كمن يقول بأن أغاني (دي طيست)(٩) تؤلف جزءاً من الأدب الفرنسي. و لأجل الإلمام بهذه الرباعيات من الضروري للمرء إجتياز دورة تدريبية لإستيعابها. و نؤكد بأن بعض الشعراء الكورانيين من أمثال الشيخ أحمد تختي(نحو ١٦٤٠) و الشيخ مصطفى بيَساراني(١٦٤١ ـ ١٧٠٢) و عدداً آخر منهم ينتمون إلى نفس المدرسة، من حيث الغموض المتفاقم حول تواريخهم.

و مهما إنتابتنا الشكوك حول بعض المواضيع، فالعصر الكلاسيكي للأدب الكُردي قد بدأ في القرن الخامس عشر، و ذلك بفيض من الشعراء المتازين الذين لمعوا في سماء الأدب كالنجوم، و على رأسهم يبرز ساطعاً و يتفوق عليهم جميعاً، الشيخ أحمد نيشاني المعروف بلقبه(ملاي جزيري ـ ١٤٠٧ ـ ١٤٨١). و يبحث ديوانه(المتعذر فهمه جداً من قبل غير المتضلعين) عن المواضيع المستقاة من التصوف الفارسي. و يتبعه من مدرسته الملا أحمد باتي المذكور سابقاً. و إشتهر الأخير بتأليفه(مولود نامه) المعاد طبعه مراراً. و كذلك علي حريري(١٤٢٦ ـ ١٤٩٥) و مير محمد مكسي أو فقي تيران المعروف بمؤلفه(تأريخ شيخ السنا) و (تأريخ الحصان الأسود).

و بعد كسوف دام أكثر من قرن، ظهر نجم جديد في سماء الأدب الكُردي، ألا و هو أحمدي خاني(١٦٥٠ ـ ١٧٠٦) الذي ينتمي أصله إلىحكاري و هو المؤلف لما يستحق أن يدعى بالملحمة القومية الكُردية(مقم و زين) التي يعالج فيها موضوع(مەمی آلان)، بعد تحويره لينسجم مع القواعد الأدبية التقليدية و مع مفاهيم الروح الإسلامية. و جمع تلميذه إسماعيل بايزيدي(١٦٥٤ ـ ١٧٠٩) قاموساً عربياً فارسياً في أبيات شعرية تحت عنوان حديقة الأزهار(گولزار). و هناك شاعر آخر من معاصريه يدعى ب(سياپوش).

و لم يك للقرن الثامن عشر لمعة خاصة، و لكن رغم ذلك في الإمكان ذكر حكاري شريف خان جلميرگی(١٦٨٨ ـ ١٧٤٨) و مراد بايزيدي(١٧٣٦ ـ ١٧٧٨) و ملا أريقاني الذي ألف عام ١٧٩٠ رسالة طبية قد تكون الوحيدة من نوعها كتبت بلسان كُردي. و إزدهرت في الفترة نفسها منظومات دينية باللهجة الكورانية في أشعار (خانەی جنادي ١٧٠٠-١٧٥٠) تحت عنوان (سلوه نامه) وهناك شاعر آخر يدعى (محزوني ١٧٨٣).

و خلال القرن التاسع عشر فصاعداً و حتى بداية الحرب العالمية الأولى، نجد الكثير من الشعراء الذين سلكوا إتجاهين مختلفين. الإتجاه الأول يتمثل في تيار ديني تصوفي، يواصل التقليد لكتابات الشيوخ و الملالي المتحمسين إلى نقل التعاليم الصوفية، في منظوماتهم(دواوينهم) التي لا تخلو من التقليد و التكرار الكثيرين. و يظهر فيها تأثير الأشعار التقليدية الفارسية بوضوح. كان يكتب مولانا خالد(١٧٧٧ ـ ١٨٢١) الذي أورد المذهب النقشبندي إلى كُردستان، و الشيخ معروف نودي(١٧٥٥ ـ ١٨٣٧) المشهور بإنتاجه الديني المؤلف من عشرين مجلداً و (ملا خالد ١٨٣٠) و (مديحي مزوري) مستشار ميركوّر الرواندوزي(١٨٢٦ ـ ١٨٨٩) و(نورالدين بيفركي) المتوفي عام ١٨٤٦ و

(أقدربهام أحتيسي ١٨٨٤) الذي قلد(خاني) و كتب في مدح الرسول(ص)، و تغنى بمجد كُردستان كذلك. و ثمة جماعات كبيرة من شيوخ السليمانية و منهم سالم(١٨٤٥ ـ ١٩٠٩) الذي يندب بؤس الحياة الدنيوية و محوي النقشبندي (١٨٣٠ ـ ١٩٠٤) الظهير القوي لنظرية التأملات الصوفية، التي يقلد فيها(حريق) و ملا صالح (١٨٠٨ ـ ١٨٨١) في منظوماته البالغة عشرين ألف بيت. و هناك المتضلع في اللغات (فتاح جبارو ١٨٠٦ ـ ١٨٧٦) الذي دون كتاباته بأربع لغات و هي الكُردية و العربية و الفارسية و التركية. و نجد المستحدثين مثل(ملا رحيم تيواگوزى) المعروف ب(مولوي ١٨٠٦ ـ ١٨٥٢)، صاحب المفاهيم العصرية، و الرائد الأول في نظم الأبيات التي تتنوع فيها القوافي. و أخيراً يجدر ذكر(دفتر) و (قلم) من أهل الحق المتصوفين(تيمور قولي)المتوفي عام ١٨٥٢. و خلفه كل من(تيفور) و الدرويش (نوروز، نحو١٨٧٥). و نحن مدينون إلى الملا (ويلاوخان نحو ١٨٧٦ ـ ١٨٨٥) لملحمته الكُردية عن ليلى و مجنون، و إلى(أحمد بيك كوماسي ١٧٩٥ ـ ١٨٧٦) لمرثيته المؤثرة جداً عن وفاة زوجته.

أما الإتجاه الثاني فبرز في القرن التاسع عشر، مع إزدهار الأشعار الغنائية و ظهور الروح القومية و تركيز أفكارها نهائياً. و نستطيع أن نذكر بإختصار عن هذه الفترة، (پرتو حكارى ـ ١٨١٠) و (محمد آغا الجاف) المعروف بتغنيه بمحاسن الصداقة و الحب. و كوردي(مصطفى صاحبقران ١٨٠٩ـ ١٨٤٩) و سالم(عبدالرحمن صاحبقران ١٨٠٠ ـ ١٨٦٦). و كذلك مفتي(ميرزا رحيم ١٨٣٦ ـ ١٨٩٢) و ايدب لطيف(عبدالله بك مصباح ١٨٥٩ ـ ١٩١٢) و كلاهما معروفان بالأشعار الغنائية الوطنية التصوفية. و نالي(ملا خضر) و حاجى قادرى كۆيى ، المتبني لمفاهيم اللا أدرية(١٠)، و الذي ملأت جوانحه التفاعلات الحادة المنبعثة من إيحاءات التقدم العلمي، حيث كان يناوئ الجمود الفكري لدى الشيوخ و الملالي، و يوجه النقد إليهم لعدم تكيفهم مع الحياة العصرية، فيتهمهم بالأنانية و الكسل الذهني المانع للإنطلاق في التفكير. فلا تزال أشعاره تثير حماس شباب العصر و تؤثر في روحية الجماهير، بالرغم من فلسفته المادية، و أحياناً بوساطة تلك الفلسفة نفسها. هذا ، و من الواجب ذكر الشيخ رضا الطالباني(١٨٣٥ ـ ١٩١٠) على إنفراد لإتسامه بشخصيته الغريبة، حيث ينتمي أيضاً إلى اللا أدرية. و كان مع ما يملكه من الحماسة و التعصب، ذا موهبة و إبداع عظيمين، ليس في لغته الكُردية فحسب، بل اللغتين التركية و الفارسية أيضاً، بنفس المستوى من الإتقان و

الكمال. و تتسم أشعاره القصيرة الهجائية بسحنات حادة تغلب عليها النكات اللاذعة الجذابة، ذات الطابع غير المحتشم أحياناً. و للشاعر تفكير عميق و بلاغة منقطعة النظير مع ما نجد لديه من الحجج و التنوير. و لكنه، عندما تستهويه المنازلة في التقريع، يتناول عصاه الغليظة بخشونة، فيتهكم بمرارة العلقم و يهاجم بضراوة. و مهما كان الأمر، فهو لا يزال إلى اليوم من الشعراء البارزين الذين يتمتعون بالشعبية الواسعة في العراق.

العصر الحديث: من عام ١٩٢٠ إلى الوقت الحاضر

إن نهاية الحرب العالمية الأولى و تجزئة الإمبراطورية العثمانية و تشكيل الدول الجديدة جلبت معها تغييراً إلى الشرق الأوسط و لم تأل جهداً في التأثير على الأدب الكُردي، فكانت إستنبول مركزاً لتجمع الكثيرين من مفكري الكُرد الذين لم يكونوا بأقل أهمية من غيرهم في مجال نشر أعمالهم و إنتاجاتهم. و بعد زوال ذلك العهد، أصبح العراق و بالأخص عاصمته بغداد مركزاً للإشعاع و نشر الفعاليات. و لم يكن العراق المكان الوحيد الذي تبنى هذا النشاط، بل تدفق الزخم من أماكن أخرى، على أثر جهود جماعات كثيرة قاموا بطبع مجلات دورية دون مقابل و دون أن يكون لهم مصلحة ذاتية فيها. فتوفر بذلك المجال لظهور أعمال الشعراء الأقدمين. و تمكن الكُتاب المعاصرون من إستغلال مواهبهم و قدراتهم في هذا المجال. و أخذت المطبوعات الكُردية و مجلاتها الدورية، بعد إيقاف المعارك الحربية، تظهر و تنتشر و تتطور في المراكز العراقية المهمة مثل بغداد و السليمانية التي أصبحت مركزاً للإشعاع الفكري و القومي الكُردي. و حذت رواندوز و أربيل حذو السليمانية أيضاً. و لا فائدة من عرض جدول كامل للجرائد و المجلات لأن معظمها صدرت لفترات وجيزة و أوقفت من بعدها. و لكن لا يمكن غض النظر عن جريدة(زين) أبداً لقيمتها الأدبية و الإجتماعية و التي ظهرت إسبوعياً في السليمانية منذ عام ١٩٢٤. و هناك مجلة(هتاو) التي بدأت بالظهور في أربيل منذ عام ١٩٥٤. و في مدينة يريڤان السوفيتية تشاهد مجلة(ريا تازه) و هي تصدر منذ عام ١٩٢٩. و طلعت إلى النور(كُردستان) و إستمر ظهورها من(١٩٥٩ إلى ١٩٦٣). و أما الإخوة البدرخانيون فقد قاموا بإصدار(هاوار) من (١٩٣٢ إلى ١٩٣٥) و من(١٩٤١ إلى ١٩٤٣)، و ظهر منها ٥٧ عدداً. و كذلك (روناهي) من(١٩٤٢ إلى ١٩٤٥) بـ(٢٨)عدداً. و صدرت في

بـيروت (روذا نـو) مـن(١٩٤٣ إلى ١٩٤٦) بـ(٧٣) عـدداً. و كـان حـزب كُردسـتان الديمقراطي يقوم بنشر (خبات) منذ عام ١٩٥٨ على فترات منقطعة. و أما الآن فنجد مجالاً لظهور الأدب الكُردي في كل مـن العراق و الإتحاد السوفييتي ، مـن دون وضـع العراقيل الكبيرة في سبيلها. و لنلقي فيما يلي نظرة على مكونات هذا الأدب.

النثر

كان النثر ضعيف الأوصال لمدة طويلة، و لم يصل إليه التقدم إلا بحلول الحرب العالمية الأولى بفضل خلق الوشائج مع الآداب الأجنبية، و ظهور نصوص مترجمة بشكل واسع في اللغة الكُردية، مما ساعد في إغناء المفردات و تجديدها و تحويلها إلى نمط عصري. و أصبح القارئ الكُردي مطلعاً على وقائع الأسفار التي قام بها الأجانب إلى كُردستان من أمثال ريض و ملنطتون و هوبارد و لورد كرزن و فرايا ستارك و الآخرين الذين كتبوا مقالات علمية و بالأخص الطبية منها. و كذلك نشروا الصفحات عن الأدب العالمي. و مع ذلك لم تكن التراجم الروسية و الأرمنية السوفييتية لتقتصر إلا على مقتطفات صغيرة ذات أهمية محدودة حتى وإن كان البحث يدور عن ماركس و لينين و ستالين. لذلك لا نرى إلا صفحات قليلة عن أعمال پوشكين و ليرمنتوف و تولستوي و كوركي و تومانين، و الكُتاب الآخرين للشعوب السوفييتية المختلفة. و لكن نشاهد في لبنان مقتبسات عدة عن كتابات فيكتور هوغو و دودي و لامـيني. و أكملت ترجمة نصوص كثيرة في العراق من العربية و الإنكليزية. و كان المترجمون أكثر جرأةً و قابلية، إذ لم يكتفوا بتحويل عدد قليل من المقتطفات القصيرة، بل حاولوا تقديم ترجمات كاملة طويلة. و الأمثلة على ذلك ترجمة المسرحيات، كالعاصفة لشكسپير، و زاديك لفولتير، و المعطف لكوركي. و أيضاً ترجمة حياة صلاح الدين لجورجي زيدان. و لاريب أن لتلكم التراجم الطويلة أهمية بالغة و قيمة ثقافية أكبر.

و ثمة حقل كان للكُرد فيه الباع الطويل، و يتمثل ذلك في التأريخ. و الواقع أن المؤرخين السابقين من الكُرد من أمثال إبن أثير الجزيري(١١٦٠ ـ ١٢٣٤) و إبن خلكان الأربيلي(١٢٠٩ ـ ١٢٨٢) و أبو الفداء(١٢٧٣ ـ ١٣٣١) من أسرة صلاح الدين، قد كتبوا جميعاً مؤلفاتهم عن التأريخ العام باللغة العربية، و ذلك نظراً لطبيعة الأوضاع

آنذاك. و كتب من ناحية أخرى(شرف خاني بتليسي) موسوعته(شرف نامه) في عام ١٥٩٦ باللغة الفارسية. و يتضمن المجلد تأريخ الكُرد و لم يترجم إلى العربية إلا مؤخراً في بغداد عام ١٩٥٤ من قبل الكُردي (رۆژ بیانی)، و في القاهرة بين الأعوام(١٩٥٨ - ١٩٦٠) من قِبل محمد عوني(١٨٩٢ - ١٩٦١). و لقد قام الكاتب الأخير بترجمة أعمال تأريخية كُردية أخرى إلى العربية. و لم يهمل الكُرد حقول مثل هذه الدراسات التأريخية، إذ يكفي ذكر ثلاثة من المؤلفين العراقيين الذين ألقوا الأضواء الساطعة على تأريخ الكُرد و كُردستان، و هم حسين حوزني موكرياني(١٨٨٦ - ١٩٤٧) و محمد أمين زكي(١٨٨٠ - ١٩٤٨) و رفيق حلمي(١٩٦١)، الذين كتبوا عن أحداث ثورة الشيخ محمود. و كتب كل من الدكتور نوري درسيمي و العقيد عزيز ياملكي عن تأريخ درسيم باللغة التركية و عن حوادث الثورات الكُردية في عام ١٩٥٧. و قام الكُرد فضلاً عن ذلك بالكتابة عن حركات البارزاني، و من أمثالهم بريفكاني(١٩٥٣) و جياوك(١٩٥٤) و حسن مصطفى(١٩٦٣). و كتب في إيران المؤرخون الكُرد رشيد ياسيمي(١٩٤٠) و إحسان نوري(١٩٥٥) و محمد مردوخ كُردستاني مؤلفات تأريخية بالفارسية، كملت ترجماتها في وقت متأخر جداً. حيث قام الدكتور مفتي زاده بترجمة الكتابين الأولين إلى الكُردية، و الثالث إلى العربية من قِبل محمد فدا (١٩٥٨). و لأجل المقارنة نذكر هنا بأنه قام محمودوف أخيراً بترجمة كتاب عن الشعب الكُردي إلى اللغة الأرمنية و ذلك في مدينة يريڤان في عام(١٩٥٩). و الدكتور تجدر الإشارة إلى الدراسات الدينية السوسيولوجية التي نشرها الكُردي محمد موكري عن أهل الحق باللغة الفارسية.

و قام عدد من الكُرد بحملات إستكشافية إلى قلب كُردستان و نشر رواياتهم عن مشاهداتهم هناك، فبات في إستطاعتنا قراءة ما يتكلم عنه(علي سيدو) في عام (١٩٣٩)، و علاء الدين السجادي في (١٩٥٦). و لكن عبّر گوران عن مشاهداتة، خلال سفرة قام بها إلى هورامان في منظومته الكُردية عام(١٩٣٣).

و أما في أرمينيا السوفييتية فيتكلم كاتبان سيرة حياتهما بإسلوب لا يخلو من الدعاية المبطنة المعهودة، و مع ذلك لا يخلو أيضاً من الطراوة و الحيوية. و نجد عرب شمو و كتابه(الراعي الكُردي ١٩٥٨) بعنوان بيرةنط(الشفق). و كتب هذا المؤلف أيضاً(الحياة السعيدة ١٩٥٩). و كتب وزير نادر المتوفي عام(١٩٤٧) مؤلفاً مشابهاً بعنوان(نتعنم

تحت طائلة الفقر). و أما ني اظدال الذي ألف كتاب(أخلاق كُرد ترانسقوقازيا و عاداتهم) كتبه باللغة الأرمينية في عام(١٩٥٧)، و ذلك مما يؤسف له.

يتصل النقد الأدبي إتصالاً وثيقاً بتأريخ الأدب، فغالباً ما يأخذ شكل المقالات و الملاحظات المقتضبة، و لكن لا ينطبق هذا الوضع على الكتابات التي تحمل المميزات الأصيلة كالتي يسطرها المؤلفون القديرون مثل جلادت بدرخان(١٨٩٣ ـ ١٩٥١) و يونس رؤوف(١٩١٧ ـ ١٩٤٣) و جميل بندي روز بياني الذين أولو إهتماماً خاصاً بأعمال الشعراء و الكُتاب من أمثال زنگنه و كلهور، مع الكتاب و الشعراء من العشائر. لقد ساهم م. خزندار في كتابة المقدمات لمختارات شعرية، و نشر دراسة عن الشعر الكُردي. و بدأ في الإتحاد السوفييتي إثنان من النقاد الشباب بالظهور للقراء، و هما إيريك سردار و أورديخان جليل. مع ذلك علينا منح إكليل الغار في هذا المضمار إلى العراقي علاء الدين السجادي بإعتبار كتابه (تأريخ الأدب الكُردي ١٩٥٢) صرحاً شامخاً للبحث و التثقيف، و قد ورد إسمه سابقاً في هذا البحث و بالرغم من كل ذلك، لا يخلو هذا العمل الجيد أيضاً من النقائص و الهفوات، و لكن الكاتب مهد فيه السبيل إلى الآداب الكُردية و جعله مصدراً للمعلومات عنها. و يهمنا هنا ذكر الأسلوب الذي درج عليه المؤلف في تقديم العمل. حيث يبدأ بالثناء على من هو مدار بحثه، و ذلك بأسلوب شعري منثور ، ثم تقديم شئ وجيز عن حياته، مولياً إهتمامه بالتسلسل الزمني و الأحداث التأريخية، و كذلك تفاصيل التواريخ و الأماكن. و يورد في المرحلة التالية نصوصاً مسهبة عن أعمال الكاتب، و بالأخص ما تم نشرها. و يتبعه بتعليق قد يكون أحياناً ترجمة للهجة إذا كانت غير دارجة في العراق كالكورانية مثلاً. ويختم قوله، حين الضرورة، بذكر إسم طبعة الكتاب المنشور من قبل المؤلف.

و سنعرض فيما يلي أعمالاً أصيلة من الأدب المنثور، نشرت أغلبها في مجلات ظهرت فيها مواهب الشباب و قابلياتهم. إن القصص و الحكايات القصيرة تلهم أذهان الكُرد بشكل كامل طبيعي، فيتفوقون في أدائها جيداً. و لن تنحصر غايتنا هنا على عرض جدول لبيان مقدرة الكُتاب البارزين في هذا الحقل من الأدب. حيث لا ريب أن هناك أسماء كُتاب كثيرين غير معروفين لدى القارئ، و حتى المؤلف نفسه. و لكن بوسعنا الإشارة، من بين كُرد العراق إلى م. م. أمين و م. ج. وردي و ك. ط. بابان و ج. أ. نهبز. و يعتبر الأخير مترجماً ممتازاً و من المعروفين لدى المؤلف أكثر من غيره. و من

الكُتاب المساهمين في المجلات التي ظهرت في لبنان م. ي. بوطي مؤلف بعض الحكايات اللطيفة عن الحيوانات و التي تحمل الدروس الأخلاقية. و قدري جان الذي يرشد ذهن القارئ إلى أفكار جديدة. و الدكتور نورالدين يوسف جزا الذي كتب في لوزان رسالة دكتوراه عن شخصية مونيير، و تمتلئ قصصه دائماً بالنكهة القومية. و تجدر الإشارة بصورة خاصة إلى عثمان صبري الذي كتب مقالات تاريخية عن صلاح الدين و نابليون، و لكن عند عرضه المغامرات لا نجده يثق بنفسه كثيراً إلا حينما يصف تقاليد قومه و عاداتهم و أعرافهم. و تتصف حكاياته حول الصيد و القنص بجاذبية خاصة في عرض بسيط لأسلوب تكثر فيه الحيوية و النشاط. و نرى فيه كاتباً من أجود الناثرين في الوقت الحاضر. و نشر جگەرخوين، الذي سنشير إليه لاحقاً كشاعر، قصة طويلة في عام ١٩٤٦ عن مجريات الأمور العادية لزوجين شابين(ژەم و گولپەری) و لكن من العبث إعتبارها رواية. و من المؤسف أن نرى النثر ضعيفاً في أرمينيا السوفييتية، مع أن في وسعنا ذكر أسماء مثل. جندي الذي ألف(الصباح الجديد ١٩٤٧) و (حكايات الشعب الكُردي ١٩٥٩) و عبدالرحمن الذي ألف(السيدة خاتى ١٩٥٩) و ربما (الصحو ١٩٦٠) كذلك. و أما الفريد من نوعه بين هذه المؤلفات هو الكتاب المعنون(رشتەی مرواری) أي عقد اللآلئ، لعلاءالدين السجادي، المؤلف الخصب الذي قدم مقالاته في ثلاثة مجلدات(١٩٥٧ ـ ١٩٥٨) تتضمن التقارير الأدبية و الحكايات و القصص القصيرة الممزوجة بالآراء و التأريخ و الفلسفة. و يبدو للمدقق مما سبق، حقيقة واضحة و هي غياب الرواية عن الأدب الكُردي رغم وجود بعض المدونات غير المهمة. و على نفس المنوال نستطيع الجزم بخلوه من الدراما(المسرحيات) كذلك. و لكن على أثر التشجيعات الكثيرة بذلت محاولات مختلفة، لم تبلغ في نجاحها آفاقاً بعيدة، ليس بسبب ندرة المواضيع الملائمة الصالحة للروايات و التمثيليات، لأنها متوفرة في صلب التأريخ للشعب الكُردي و الأساطير و الملحمات و الإعتبارات و التقاليد و الأعراف القديمة كحقوق الإقطاع و مهر النساء و ما شاكل ذلك. و بدرجة أكبر في المسائل العاطفية و الصراعات غير المادية المنبثقة من القضايا النفسية و الإجتماعية الحديثة. و لكن مسألة نقل هذه الوقائع المادية و المعتقدات الأسطورية و تطبيقها بشكل منطقي في إطار فني مبدع دقيق التصوير تتطلب من المؤلف بذل جهود أكبر في الفن و المهارات التقنية من مجرد نظم بضعة

أبيـات شـعرية أو رباعيـات موزونـة. و إسـتمر هـذا بإعتبـاره نقـصاً شـاملاً إلى وقتنـا الحاضر. و تنطبق الملاحظات هذه على المسرحيات العربية كذلك.

الشعر

من الخطأ الإعتقاد بأنة مـادام النـاشرون أخـذوا بـإحتلال مـسرح الأدب الكُـردي صـار الشعر في طريقه إلى الزوال، لأن ذلك شئ بعيد عن الواقع. و إذ ما بـرح الـشيوخ دائـبين على نظم القوافي الصوفية، فقـد خلـق المتـضلعون و الأسـاتذة نوعـاً مـن التـوازن في هـذا الشأن بتوجيه الأذهان إلى مواضيع شعرية أخرى تحوي مفاهيم مختلفة. ففي الفترة الواقعة بين عـامي(١٩٢٠ و ١٩٣٩)، و بالأخص في العراق، أُنجـز نـشر أعمـال شـعرية تعـود إلى القرن التاسع عشر،و التي كانت متروكة على شـكل مخطوطـات. و هكـذا تم نـشر اعمـال الشعراء أمثال مولوي(١٩٢٢) و طالباني(١٩٣٥) و أديب (١٩٣٦ و ١٩٣٧) و حريـق و مولوي(١٩٣٨ و ١٩٤٠). و تجدر الإشارة إلى أن شعراء الكُرد يطلقـون علـى أنفـسهم أسماءاً مستعارة فيها طابع معبر. و ظهرت أثناء الحقبات تلك مختارات من الشعر القديم بفـضل كُتـاب مثـل أمـين فيـضي(١٩٢٠) و علـي هيمـال بكـر(١٩٣٨) و مـلا عبدالكريم(١٩٣٨) و رفيق حلمي(١٩٤١ و ١٩٥٦).

و يتطور الشعر الكُردي أيضاً، شأنه في ذلك شأن أي شئ آخر. فلقد قدم م. أ. خزنـدار في عـام(١٩٦٢) دراسة ممتازة يؤكد فيها بوجه خاص على موضـوع القافيـة و الإيقـاع، و يقارن بين القريض القديم (الكلاسيكي) الذي يتبع نظماً معقدة، كالشعر الفارسي والشعر العربي المليئين بالقواعد و الأسس، و بين الـشعر الحـديث الـذي يتمتـع بالحريـة في بحـوره و أوزانه و مقاطعه، أكثر من إتباعه للقافية. و الشباب بطبيعـة الحـال يفـضلون الإسـلوب العصري الحديث.و مهما يكن الأمر، إن كان للأشعار الصوفية الـصرفة أن تـصبح نـادرة، فلم تختف مع ذلك عن الوجود، حيث لا زال كاكه حمه ناري(١٨٧٤ ـ ١٩٤٤) يتغنى بحب الله و وحدانيته. و بجانبه شعراء آخرون يضربون على أوتار تختلف عن ذلك، سواءاً أكانوا في العراق أو سـوريا أو الإتحـاد الـسوفييتي، فعنـدما يحلـو لهـم الأمـر ينـضمون الأشـعار العاطفية الغنائية أحياناً و الأشعار الوطنيـة أحيانـاً أخـرى. لـذلك مـن العـسير ترتيـبهم حسب الأصناف.

لقد أشرنا سابقاً إلى المعلمين، ممن نشروا الحكايات الخرافية، غالباً عن الحيوانات، كما فعل عثمان صبري. و يقوم بذلك الشباب السوفييتي أيضاً، حيث يكتبون بذلك الأسلوب و في أذهانهم تلامذتهم لتعليمهم الدروس الأخلاقية. و لن تشكل مثل هذه المنظومات أشعاراً ممتازة، و لكنها غالباً تتسم بالطراوة و حسن البيان و السهولة.

و يقدم الشعراء الفطاحل أشعاراً غنائية، فينشدون عن الحب و العائلة و الطبيعة و الأمجاد و الحياة اليومية و العمل، حيث هناك في العراق(پيرەمێرد) رئيس الشعراء. و إسمه الحقيقي حاجي توفيق(١٨٦٧ ـ ١٩٥٠)، إستطاع أن يلهم قلوب الشباب و أذهانهم بحب كُردستان و تأريخها المجيد. و يهتم عبدالله محمد(زێوەر ١٨٧٠ ـ ١٩٤٨) ايضاً بالشباب، و يحرك مشاعرهم بكل عمق عندما يطري سحر الطبيعة و يمجد أرض البلاد. و أما(كاني) و هو الشيخ عبدالقادر المولود في عام(١٩٠٠) فيصف العديد من مناظر الوطن الخلابة، ضمن سلسلة من عناقيد شعره، تفوح عناوينها بأريج العطر لتملأ القلوب بهجة و سروراً. و من تلكم العناوين(جنائن ورود مريوان ـ ١٩٥١)و (سهول كرميان ـ ١٩٥٥). و لِكاني شخصية غاية في التفاوت مع ما لفائق عبدالله (بێ کەس) من النفس البائسة و الروح المعذبة و الذي عاش جل حياته مثل (فيرلين)(١١) لأجل الشعر فحسب. و لكن بالرغم من تعاسته الخُلقية و الخَلقية، لم يأل جهداً، في حث الشباب على نصرة الحق و إحقاق العدالة و التزود بالمفاهيم الصالحة للوطن. و أما بعض الشعراء الأكثر شباباً، فيتبعون خطوات أسلافهم، كما يفعل شاكر فتاح و نريمان(مصطفى سعيد أحمد) المولود في كفري عام(١٩٢٤)، و رسول بيزار گردى المولود في عام(١٩٢٦)، و كذلك يفعل كامران.

و يوجد في أرمينيا السوفييتية جماعة ممتازة، شمروا عن سواعدهم، لجمع الأساطير القديمة و أعمال الكُتاب و الباحثين. قبل أن يهموا بالشروع في نتاجاتهم الفردية. فكان كل من. جندي المولود في عام(١٩٠٦) و أمين أبدال(١٩١٠) يمارسان مهنة التدريس. لذلك تتسم أشعارهما بمسحة تعليمية. و الظاهر أن ميخائيل رشيد أكثر شباباً و حيوية. و مقطوعته الشعرية(فؤادي ـ ١٩٦٠) تفيض رقةً و بهاءاً. و في منظوماته تنوع للأنماط الفنية. و ثلاثياته فيها ظرافة تملؤها العواطف الهياجة. و لكن أشعاره عبارة عن إنحياز محمل بالأيديولوجيات الشيوعية على العموم. و بالرغم من ذلك هناك شاعر ممتاز كقرينية يدعى جاسم جليل و هو مولود في عام (١٩٠٨) و يعمل محرراً للتقاويم كاتباً

لمختارات المؤلفين السوفييت الكُرد. و تظهر فيها بطبيعة الحال أعماله، و بالإضافة إلى ذلك يملك أكثر من مجموعة من الأشعار، منها(آغوز ـ ١٩٥٤) و (أيامي ـ ١٩٦٠). و من الشيق المقارنة بين الطبعات المختلفة لهذه الأعمال، لما نالها من التبديل حيث أعيد طبعها أكثر من عشرين مرة. و في ذلك دليل قاطع على ما يملكه من إحساس فني متطور رائع. و ثمة مجلدان آخران من أعماله يقدم فيهما محاولات نشطة للإبتعاد عن المألوف برغم ما فيهما من النقص لإكمال حسن النظم و الجودة في الفن الحِرَفي للشعر.

و نقدم الأبيات التالية بعنوان(عن الحبيب) كمثال لأشعاره:

أنا زهرة برية لم تتفتح أوراقها،

إن لم تلمسني،

لن أتفتح.

إن لم تلمسني،

لن أفوح عطراً.

أنا زهرة برية، زهرة الجبال،

نأيت عنك.

فتودد لبراعمي و داعبها!

ألِن التربة حول جذوري بالحب.

إن لم تلمسني،

لن أتفتح.

إن لم تلمسني لن أفوح عطراً.

أنا الزهرة البرية، زهرة الجبال،

بعيدة عنك.

أيها البستاني إكترث،

تعال، إقطفني، و أحملني فوق الجبال.

إن كنت شجاعاً و حملتني بعيداً،

سأضع البهجة في قلبك، كالعروس، حين زفافها.

كتب الأمير كامران بدرخان، إضافة إلى أعماله اللغوية و نشاطه السياسي، أشعاراً بديعة، و نشر مؤلفات كثيرة مثل(أطفالي ١٩٣٢) لتلامذة المدارس، و (ثلوج النور

١٩٣٥) الذي ترجم إلى الفرنسية و الألمانية. و كتب كذلك(رباعيات الخيام ١٩٣٨) ملأها بالأقوال الظريفة و الفكاهات. و لقد كتب هذه المنظومات الغنائية التي يعالج فيها عواطف الحب بشعور رقيق و بأحاسيس غاية في الأصالة و الدقة في التصورات، و بقلب مفتوح على التعبير المشحون بالغبطة و السعادة.

و لكن بجانب هذه الأشعار التي تعتبر من النوع الغنائي، يجب أن لا نستغرب إن عثرنا لديه على أعمال ذات إتجاهات إجتماعية، ذلك لأن الشاعر يؤدي وظيفة المعلم بإستمرار، فيلقي مواعظاً بنهج جديد يتوافق مع الروح العصرية. فيوجه النقد إلى مساوئ الماضي إدراكاً منه بتوقع السعادة و الرفاه في المستقبل. و أما المواضيع التي تشغل بال الشاعر السوفييتي فهي عبارة عن الإستذكار بضرورة تحرير المرأة قبل كل شئ، و وضع نهاية للإستغلال الإقطاعي، و العمل من أجل إستئصال الممارسات الدينية و معتقداتها إذ ليس في الإمكان الإلتقاء بأي مجموعة لا تضع ثقلها على جوهر هذا الموضوع. فنجد عطار شارو يبحث في جميع رباعياته دون إستثناء عن أوضاع الكُرد في الأيام الماضية. فيصف ما كانوا يعانونه من الجهل و الفقر و المظالم، و يبحث مراراً و تكراراً عن عادة المهر و يصفها بقيد الإستعباد، و يوصي برفعها. و يعيد ذكر هذه المشكلة شعراء عديدون آخرون، فيستنتج القارئ من ذلك بأن هذه العادة غارقة في القدم و يصعب إجتثاثها. و يصف يوسف بيكو الأوضاع الإجتماعية المتدهورة التي يكون فيها الفقير دائماً ضحية أبدية لا حول له و لا قوة حيال جشع التجار و نهم الأثرياء. و يؤيد(جندي) شن الحرب الطبقية ضد الظلم الذي لا يمكن رفعه إلا بهذه الطريقة. و يصب جام غضبه على الإقطاع و يتوق إلى إثارة الردود من جانب المظلومين. و ذلك فحوى قصيدته الطويلة(گوليزار) التي يتغلب فيها الحب في نهاية الأمر على إستغلال الإقطاع و على عادة الأخذ بالثأر و على قضية المهر التي تعتبر من العادات المبتذلة الشائعة. و كل ذلك النجاح يتحقق بفضل الحرب الجماهيرية و صراعها من أجل تحقيق الحرية كما يصفها(وزير) في مغامرات(نادو و گوليزار)العاطفية. و في العراق جدد(عبدالله گوران ١٩٠٤ ـ ١٩٦٢) إقبالاً على الشعر باسلوب عصري لا مثيل له. فكان رائداً للشعر الحر و داعياً متحمساً له، و من المنادين بحرية الحياة و تحرير الأفكار، و إجراء الإصلاح الجذري للبنية الإجتماعية لأن ذلك بمفرده سيتيح للكُرد العيش الأنسب و الإنفتاح على الحياة العصرية. و دفعت به مثل هذه المفاهيم ليكون من رواد سجون بغداد. و هناك كان

تأليفه للقصيدة المسماة(الرابع عشر من رمضان في السجن) كتبها وسط ضجيج تلكم الأيام التأريخية الحافلة بالمظاهرات الشعبية التي كان من المفروض لها أن تكون بادرة لإقبال الكُرد على عهد جديد. و كتب (جگرخوين)و هو الشيخ موسى حسين المولود في عام(١٩٠٣) باللهجة الكرمانجية، و يعتبر رئيساً لفرقة من الشعراء الشماليين. و يعتنق معتقدات (گوران) بعينها، و لكن بإندفاع زائد نحو التطرف. فيؤمن بمبادئ الحرية و يدعو إليها في منظومته(ثورة الحرية ١٩٥٤)و يقول بأن الخلاص آت من الشمال، أي من الإتحاد السوفييتي . و ذاق هو أيضاً طعم الإعتقال و الحبس في زنزانات سوريا.

و يحدو بنا القول إلى بحث الأشعار الوطنية. ذلك لا مفر منه بالتأكيد، لأن مثل هذه الأشعار كثيرة العد، ولا حصر لها. وهي من النوع السهل الممتنع، الذي يكون فيها تقليد منظومات(ديروليد)(١٢) الرديئة أيسرمنها بالإتيان بأبيات تضاهي كلمات أشعار ڤكتور هوگو النارية. فاحتفظت أشعار حب الوطن و أهل كُردستان بصفاتها النبيلة منذ دهر طويل يعود إلى أيام أحمدي خاني نفسه. و دأبت على هذا النهج حتى ظهرت في الأبيات الشعرية لنالي و حاجي قادري كويي المتسمة بالحماسة و الغيرة القومية. و إحتفظ العراق بهذا التقليد بفضل ملا أحمدي صاحبقران(١٨٧٦ ـ ١٩٣٦) و أحمد مختار(١٨٩٧ ـ ١٩٣٩) بسيرهما على غرار علم القروض المتبع في نظم الأشعار. و برز أبان عهد جمهورية مهاباد المستقلة (١٩٤٦) من الشباب اليافع شاعران إشتهرا بالحمية الوطنية و هما م. هيمن و بالأخص عبدالرحمن هذار المولود في عام(١٩٢٠). مع ذلك يستوجب منح إكليل الغار في هذا الحقل إلى جكرخوين لقاء ديوانه الأول(١٩٤٥) ذي نفحة الإلهام للشعر النقي الصادق من الطراز الذي يعج بحماس الوطنية، حيث كانت تلازم الملا الشاعر غير المعمم أفكار مقلقة عن وطنه الضائع، ذلك الوطن الذي ينبغي للمرء البحث عنه، حتى يعثر عليه مجدداً. إذ كان يجاهد في تلكم الأشعار التقليدية المفعمة بالأساليب الحديثة، للإستحواذ على سلاح يستطيع بوساطته إنقاذ وطنه من ذلك الضياع، لكي يقوم بترميمه و بنائه مرة أخرى بشكل حديث. و يحث كذلك الرؤساء في أشعاره على الولاء للقضية القومية، بتوحيد الأطراف العشائرية و تحالف الفئات الدينية، و تحقيق المساواة في التعليم بين الذكور و الإناث و ذلك ضماناً للخروج من الجهل و الفاقة. و يلاحظ أن جكرخوين، كما أسلفنا، قد إجتاز مثاليات مرحلتي القومية و الوطنية، و صار الآن يصبو إلى تحقيق الإصلاحات الإجتماعية قبل حدوث أي شئ. و

أصبح دائماً يرمي إلى عرض أفكاره بإسلوب يتسم بطابع من الماركسية، بالرغم من أنه لا يملك شيئاً من التجارب عن الشيوعية، أو بالأحرى لا يملك إلا قليلاً عن أي نوع من مثل هذه التجارب و حقائقها. و لكن توجيه الدعاية المحكمة بإسلوب متقن قد تعمي أنظار أشد الأذكياء.

يقترب جكرخوين، على كل حال، في إتجاهاته الحديثة من الشعراء السوفييت الكُرد كثيراً و ذلك بالرغم من عدم وجود أي إحتمال لإتصاله بهم أو حتى القراءة عنهم. و إذا فرضنا أنه قد قرأ عن هؤلاء الشعراء، حينئذ تزداد دهشتنا أكثر، لأن الشعراء الكُرد خلف الستار الحديدي، يتكلمون في الواقع عن وطن الآباء و الأجداد، إلا أنهم لا يعنون بذلك غير غير أرمينيا، و هي بلاد غريبة بالنسبة لجميع الكُرد و عندما يتكلم الشعراء الكُرد السوفييت عن الوطن الكبير يقصدون بذلك الإتحاد السوفييتي. و تلك هي أيضاً صلب مواضيع(كاضار مراد ـ ١٩٥٨) الذي يبجل في أشعاره(البلاد الحمراء) و يعتبر أول مايس و أيام أكتوبر التأريخية من المناسبات الوطنية. و هكذا تتكرر و بدون إستثناء نفس الأفكار التي تهيمن على المجموعات الشعرية المطبوعة في مدينة يريڤان لتحتل مكانة المقدمات بصورة إجبارية، في كل موضوع. فتغدو الكتب متعبة و مملة، و بالأخص عندما يدفع الكاتب إليها دفعاً لكتابتها، فلا مفر لهم عندئذ من الإعادة و التكرار، فيخاطرون أخيراً بالوقوع في درك إستعمال إسلوب ممسوخ لا تجديد فيه و دون وضع حساب لخط الرجعة و النكوث عما صرحوا به في السابق فتصبح أشعارهم مليئة بالطيش بالقدر الذي فيه من الإخلاص النابع من صدقهم و نقاوة صدورهم.

يتفق ظهور إسما ستالين و لينين في قوافي الأشعار التي يرد فيها ذكرهما، و لكن الآن فقد إختفيا و توقف تداولهما، و مزقت الصفحات الكثيرة التي ذكر فيها هذان الإسمان و توقفت عن النشر. و لكن السوشيالية لا زالت مستمرة. و مات الرجال، حتى الأبطال منهم، و لكن الحزب باق. و نذكر لأجل الملاحظة بأن كلمة كُردستان لا تظهر مطلقاً، و لا تشغل حيزاً في أي مكان حيث لا تعني وطن الكُرد، فلم يعثر المؤلف على هذه الكلمة حتى و لو لمرة واحدة بالرغم من مطالعته آلافاً مؤلفة من الأشعار، لذا تعتبر قومية كُرد السوفييت دولية. فلا مكان لإنتعاش تلك القومية هناك و لا يمكن سماع مثل هذه الأبيات لينشدها شاعر بحرية:

أن أموت من أجلك يا كُردستان، ما أبدع ذلك!

أو أكون سيد بيتي، أغني بكل فخر عن كُردستان.
و أحتفل في ضؤ لمعان السلاح،
بهذا الشعب العريق، و بأرضنا المصونة.
لأكن حراً، أحب و أفكر و أموت.
أسأل الينابيع، تخبرك،
بأن في خريرها ألف حسرة،
و ألف دمعة، و ألف إنتفاضة و أمل!

الفصل الحادي عشر

القوميّة الكُرديّة

القوميّة الكُرديّة

إن ما سطرناه سابقاً من الكلمات ستذكرنا، إن حل بنا واقع من النسيان بأن للقومية الكُردية وجود و زخم حيوي. فإن أنكر ذلك أي إمرءٍ، لا شك بأنه فاقد البصيرة. فالشعور القومي و حب الوطن و أرضه و تأريخه مع المعتقدات و التقاليد صفة تعم كل الشعب الكُردي، مثل كافة الشعوب. و هذا شئ عادل بالنسبة للشعوب، شريطة أن لا يقود هذا الإحساس إلى محاولات السيطرة على الأقوام المجاورة و التسلط على حضاراتها و ثقافاتها. فالكُرد يملكون اليوم إحساساً عميقاً بقوميتهم، و لم يظهر مثل هذا الوعي إلى الوجود بصورة مفاجئة، بل إنه دافع طبيعي قديم كقدم هذا الشعب، جاء ليؤكد واقعاً راسخاً كوجود القومية العربية مثلاً منذ عهد بعيد. فالشعب الكُردي أعرق من جميع شعوب الدول الأفريقية المختلفة التي شكلت حديثاً. و ليس هناك من يلتقي بكُردي لا تحركه العواطف الجياشة من المردودات السياسية السائدة المتعلقة بوطنه. ونحن لا نحاول أكثر من عرض الخطوط العريضة لهذه الظاهرة و إعطاء فكرة عادلة عن التقدم الحاصل في مكنون هذا الشعور و مدى عمقه.

التاريخ القديم للشعب الكُردي

نستطيع القول بأن تأريخ السكان الكُرد في المنطقة التي تسمى الآن بكُردستان كان متصلاً منذ سقوط نينوى في عام (٦١٢ق. م)، حتى إعتناق الكُرد للديانة الإسلامية، بمجريات الأمور في الإمبراطورية الفارسية. و يدرك الكُرد هذه الحقيقة حق الإدراك حيث يسندون إلى أسلافهم الأساطير الملحمية التي ورد ذكرها في كتاب (شاهنامة)، سيرة الملوك، فيعتبرون روستم و حاتم و عدداً آخر من أمجاد الفرس أبطالاً للشعب الكُردي. و تجدر الإشارة إلى حقيقة، و هي إن كانت كُردستان مسكونة منذ ذلك العهد القديم من قبل أسلاف الكُرد و أجدادهم، فلا بد لسيرة هذا الشعب و عاداته أن تنحاز إلى الجهة

الشرقية من وطنهم. حتى ظهور الإسلام، بخلاف الوضع السائد الآن بالطبع. و نستطيع الجزم في القول بأن الكُرد نادراً ما سكنوا البلاد الواقعة غربي و شمالي نهر دجلة في العهود السابقة للقرون الوسطى، إلى أن ظهر حكم الخلفاء و تم إنشاء المعسكرات على الحدود البيزنطية . عند ذلك إمتد التقدم نحو الغرب إعتباراً من القرن الحادي عشر، تحت ضغوط الحشود التركية.

و لم تكمل عملية التحول إلى الديانة الإسلامية دون وقوع الإضطرابات و المنازعات الناتجة عن الإختلافات العرقية و الدينية، و لكن الكُرد إمتزجوا مع الحضارة الإسلامية بالرغم من ذلك تدريجياً. و لم يقمع الإسلام بلا ريب الشخصية الذاتية للشعب الكُردي بصورة كاملة، حيث إستطاعت ممالك كُردية صغيرة أن تنفصل في فترات(العهود الإيرانية) لتتمتع بالإستقلال عن السلطات العربية القوية في يد الخلفاء، كما يذكر لنا ذلك مينورسكي. فظهرت سلالات كُردية عديدةخلال القرنين العاشر و الحادي عشر من أبرزها الشادادين(٩٥١ ـ ١٠٨٨) في ترانسقوقازيا، في مقاطعتي دبيل و كانجا بالذات. و السلالات هذه كانت مؤلفة من عناصر منورة جداً. فإنتشرت في بلاطها الثقافات الفارسية. و إستوت على الحكم أيضاً سلالة(حسن واحد ٩٤١ ـ ١٠١٤)في جبال خوزستان، و وسعت سلطاتها نحو همدان و نهاوند و كرمنشاه حتى منطقة شهرزور. و إشتهر من هذه السلالة(بدر ٩٧٩ ـ ١٠١٤) وتميز بالعدالة في توزيع المال و حماية الفلاحين و تشجيعه للثقافة. و شغلت من بعده مركز السلطة السيدة (بانوعيار) أو (بانوعناز ٩٩١ ـ ١١١٧). و لكن من أشهر السلالات الكُردية المريوانيون(٩٩٠ ـ ١٠٩٦) الذين أسسوا الحكم في أدييش و آميد و ميا فركين و حسن كيف. و بنوا لأنفسهم الدوائر و المؤسسات على نمط ما للخلفاء في بغداد. و بقي على دفة الحكم منهم (أبو ناصر ١٠١١ ـ ١٠٦١) مدة طويلة. إزدهرت التجارة في عهده و أنشأت البنايات بأشكال هندسية و نماذج تدل على مدى رقي الحضارة و الفن في ذلك العهد القديم. و كان بلاط ذلك الملك يعج بالشعراء و الإشراق و التنوير و يحظى بغنى واسع و ثروة طائلة حيث كانت من بين حريمه ثلاثمائة جارية. وأكتُسحت تلك الممالك جميعها من قِبل السلجوقيين.

و هل هنالك حاجة للذكر بأن صلاح الدين(١١٣٧ ـ ١١٩٣) ذلك الفارس المغوار الذي لم يدخل قلبه الخوف و الوجل و باني مجد الأيوبيين، الذي صار بطلاً للمسلمين و إستطاع أن يوحد صفوفهم، كان كُردياً أصيلاً؟ أحاط هذا القائد المشهور نفسه بقوات كُردية

مكونة من العشائر الحكارية و المهرانية و الهضبانية. و لعبت قوات الطوارئ هذه، التي كان عدد أفرادها أكثر من الأتراك و العرب أنفسهم، دوراً حاسماً في الحروب ضد الصليبيين، و بالأخص في عكا و في إنتصارت حطين(١١٨٧). بذلك إستطاع الكُرد أن يبرهنوا بأنهم أنداد معاصريهم، قادرون على تشكيل جيش من جنود أشداء، و من أشراف القوم ومن الرجال الماهرين المطيعين للنظام و المحبين للفن و الإعمار. و مع ذلك لا نستطيع القول بأنهم أسسوا أي دولة كُردية. حيث كان الحال في الشرق شبيهاً بنظيره في الغرب، من طغيان الديانة المسيحية على جميع المفاهيم و الأفكار القومية كالشرقين الأدنى و الأوسط. فامتصت المعتقدات الدينية شعوب المنطقة و حولتها إلى أجزاء تشكل المقاطعات التابعة للإسلام فيها، أجزاءً لا تملك خصائص قومية، عدا هوية رؤسائها. و بعد سقوط الأيوبيين تبعته إحدى أظلم الحقبات في تاريخ الشعب الكُردي حيث زحفت الجحافل المغولية على بلاد كُردستان برمتها، و حلت المصائب و النكبات بأهل المناطق التي تم إكتساحها، مثل شهرزور في عام(١٢٤٧)، و دياربكر في (١٢٥٢). و عاث هولاكو الفساد في كرمنشاه و أربيل في عام (١٢٥٧)، نهب منطقتي حكاري و الجزيرة في عام(١٢٥٩)، و قام بحصد أهاليها بالسيف. و بالرغم من كل ذلك فقد أبدى الكُرد خلال قرنين و نيف(١٢٦٠ ـ ١٥٥٢) مقاومة عنيفة ضد مظالم المغول الإيلخانيين و كذلك إستبداد تيمور لنك و أخلافه. و كان يعينهم في هذا الصراع الأرمن و حتى القرقونيلو من التركمان الذين إستوطنوا في المنطقة قبل ذلك بقرنين. و ما أن مرت العاصفة الهوجاء تلك حتى إنهمك السكان الكُرد المحليون في ترميم الخرائب و إعادة الأوضاع التجارية و الصناعية إلى سابق عهدها، خلال بضع سنوات.

الإقطاعية و القوميّة

قد يعود سبب التقلبات السياسية في الشرق، خلال أربعة قرون ، إلى كسوف حدث للشمس، ليتقرر على أثره مصير الكُرد. ذلك إن المنجمين فسروا للسلطان العثماني فالاً حسناً من جراء حدوث هذه الظاهرة الطبيعية. فكانت الشمس رمز الإمبراطورية الفارسية و قد حجب ضؤها أمام الهلال، رمز الإمبراطورية العثمانية. و صادفت الواقعة يوم ٢ رجب سنة ٩٢٠ الهجرية التي تقابل ٢٣ آب سنة ١٥١٤ ميلادية. و حدث كذلك

إن أطلقت أفراد قوات شاه إسماعيل مؤسس الأسرة الصفوية الساق للريح أمام مدفعية السلطان سليم الأول المعروف بالسلطان الرهيب، و ذلك في معركة چالديران التي وقعت بعد يوم واحد من ذلك الكسوف. و بعد ذلك الإنتصار أسس السلطان الداهية خمس إمارات كُردية مستقلة، و الغاية منها محابات الشعب الكُردي و مجاراتهم، و كذلك خلق حاجز بين الأتراك و الكُرد السُنة من جهة و بين الفرس الشيعة من جهة أخرى. و قام السلطان بهذا العمل على أثر النصائح القيمة التي أسداها إليه الرئيس الديني الكُردي الشهير، حكيم إدريس البتليسي. فقام من بعد ذلك رؤساء تلك الدويلات، المنتخبين من الأسر المحلية الحاكمة، بسك النقود. و ألقيت خطب المساجد بأسمائهم. وتتألف تلكم الدويلات التي صارت وراثية بعد ذلك من إمارات بتليس و حكاري (جولة ميرط)و بادينان(العمادية) و بوتان (الجزيرة) و حسن ـ كيف. و أصبح الكُرد أسياداً لبلادهم، عدا ما كانوا يدفعونه من مبلغ ضئيل يهمل تقديمه في أغلب الأحيان. و فضلاً عن ذلك قد تم تأسيس ثمانية (سناجق) في إقليم دياربكر وفقاً لنفس النظام. و إضطر من بعد ذلك شاه إيران إلى أن يحذو حذو السلطان، فخص أمراء أردلان بالحقوق الواسعة. فسارت الأمور على هذه الشاكلة، بين ما كانت تحدث من المعارك و الصراعات بين الأتراك و الإيرانيين حول مسائل الحدود المشتركة، حيث كان الكُرد فيها دائماً من المضحين الأوائل الذين يدفعون الأثمان الباهضة.

و بدأ السلاطين في أوائل القرن السابع عشر ينقمون على الدويلات التي صارت تحد من سلطاتهم. و أخذوا يقمعون الأمراء الكُرد و يبدلونهم بحكام من الأتراك وأعادوا سياسة اللعب على وتر المنافسات العشائرية، و لكن سرعان ما أخذ الوهن يدب في عظم الإمبراطورية من جراء الحروب في أوروبا. فضاع على أثر ذلك ما كان لهم من السطوة و البأس. و تجدر الأشارة هنا ، إلى إنه كان هناك في القرن الثامن عشر، كُردي من عشيرة زند، في إيران و هو المعروف بكريم خاني زند(١٧٥٠ ـ ١٧٧٩) الذي إستطاع أن يضع نهاية للفوضى الضاربة أطنابها بعد زوال حكم نادر شاه(١٧٢٢ ـ ١٧٤٧) ، فنظم البلاد و أسس عاصمةً له في شيراز و حولها إلى جوهرة نادرة. و أما في الطرف الآخر، الدولة العثمانية، تجدد الصراع فيها بحدة منذ بداية القرن الرابع عشر لأجل القضاء على المراكز الكُردية المستقلة، و لكن أمراء الدويلات دافعوا مع شعبهم عن الحرية في كل مكان. و هكذا ، نشاهد عبدالرحمن بابان (١٧٨٨ ـ ١٨١٢) يثور في السليمانية عام ١٨٠٥. و

ثار مثله كل من محمد باشا المعروف بمير كور في منطقة رواندوز، و في الجزيرة قام بدرخان أمير بوتان. و لم يكن الأخير لينهدحر لولا المؤامرات التي حيكت ضده، حيث كان آخر أمير مستقل في تركيا . و كان الشيخ عبدالله النهري قد إستقطع لنفسه إقطاعية مستقلة من الدولتين الإيرانية و التركية و لكنه إضطر إلى الإستسلام أخيراً. فتحول الصراع منذ ذلك الحين إلى قضية إقطاعيات تحاول الحصول على الإستقلال. و إستمرت دول الإحتلال تشدد قبضتها على الحكم المركزي في صراع مميت. و تبنت سياسة السيطرة و التحكم و خنق الحريات و إختلاق الخلافات القومية و طمس حقوق الشعوب و الصيرورة إلى العبودية العامة الشاملة. أما أبناء الرؤساء المقهورين و احفادهم فقد توافدوا على إستنبول حيث إستقبلوا بالترحاب و أرسلوا الى المدارس لتعليمهم و تلقينهم ثقافة أبعدتهم عن إقطاعياتهم القديمة، فأنحازوا أخيراً مضطرين إلى تأييد السلطات المركزية. و لأجل تحقيق هذا الغرض قام السلطان عبدالحميد في الأعوام الواقعة بين (١٨٨٩ و ١٨٩٢) بتأسيس (الحميدية) المؤلفة من عدة فيالق تضم قوات خفيفة من الخيالة تحت قيادة رؤساء العشائر كمتنفس للقابليات الحربية الكُردية. و أخذوا بإرسال هذه القوات إلى سوح المعارك في جميع الجبهات بغرض إبادتهم عن بكرة أبيهم، أو حثهم على محاربة الأرمن في الحرب العالمية الأولى تحت شعار مزيف للسلاطين يتمثل في إدعاء الجهاد في سبيل الدين الإسلامي. و لكن الكُرد سرعان ما نبذوا هذا الشعار عندما أدركوا زيفه. و صفوة القول إن الأتراك قاموا بكل ما في وسعهم لسحق القومية الكُردية التي كان للنظام الإقطاعي فضل في تعميدها و تربيتها و تطورها ، و لكن الممارسات التعسفية هذه خلقت مردودات عكسية ساهمت في خدمة إنعاش الروح القومية الكُردية و إثارتها و تقويتها من جديد.

القومية الكُردية في ظل القوانين الدولية

من الممكن إعتبار الحركات الإقطاعية الكُردية و ثوراتها ضد الباب العالي نداءاً لإثارة النعرة القومية، و لكن هذه الحركات كانت تعوزها وضع الخطط الموحدة و الأهداف الواضحة المشتركة ، حيث لم يحاول أي رئيس الإحتفاظ بسلطاته الوراثية ، أو إستقطاع ولاية ليبسط سيطرته عليها. و اما قضية تحقيق الإستقلال لكُردستان الكبرى فإنها لم

تكن قد أينعت و أثمرت بعد،لأن الفكرة هذه قد راودت الأذهان بعد ذلك بفترة طويلة، في أعقاب إنتهاء الحرب العالمية الأولى حيث جمعت زخمها مع قضايا أخرى مثل إستقلال البلاد العربية. و لأجل تحقيق هذا الهدف إستخدم الكُرد الوطنيون أسلوبين(تكتيكيين) يتمثلان في إستخدام الطرق الدبلوماسية و القيام بالإنتفاضات الكبيرة.

كانت لجمعية الفتاة التركية (١٩٠٨) تأثير كبير في إثارة الحماسة بين جميع الشعوب في الأراضي الواقعة تحت سيطرة الأتراك، فصارت تتلهف للحرية. و إعتقدت الأقليات الدينية و العرقية من العرب و الكُرد و الأرمن بأن ساعة الخلاص قد دنت. و لم يكن الكُرد بأقل منهم تلهفاً، فحاولوا الإستفادة من الظروف الجديدة التي خلقتها الأوضاع الدولية. فأُسست الهيئات السياسية و الجمعيات الثقافية بحلول عام (١٩٠٨) في إستنبول بفضل التآزر و الجهود المبذولة من قِبل كل من الأمير بدرخان و الجنرال شريف باشا و العضو البرلماني عبدالقادر الشمديني، حيث قاموا بإصدار جريدة (كُردستان) كلسان حال لتلك الهيئات. و إفتتحت مدرسة لأطفال الكُرد من قِبل المؤسسة التعليمية المنبثقة عن الهيئات في إستنبول ، و لكنها سرعان ما أُغلقت أبوابها من قِبل الإتحاديين في عام (١٩١٠)، و أُلغيت الهيئات أيضاً. فأضطرت إلى القيام بممارسة نشاطها سراً. بعد ذلك بادرت جماعة من الطلبة في نفس العام بتكوين هيئة حركية تحت شعار (هيڤا كورد) أمل الكُرد، و أصدرت صحيفة شهيرة بإسم (رۆژا كورد) يوم الكُرد، و إستبدل عنوانها بعد ذلك إلى (هتاوي كورد) شمس الكُرد.

بعد أن تعاون بعض الكُرد مع القوات المتحالفة بالوقوف الى جانبها أثناء الحرب ، ألقت السلطات التركية القبض على القادة و نفذت فيهم حكم الإعدام. و كان من بينهم خليفة سليم البتليسي. عند ذاك شعر حسن الشيخ عبدالقادر بالخطر و رأى أن من الحكمة الإلتجاء إلى مكة المكرمة ليبقى هناك بجوار الشريف حسين، في حين أن نجله السيد عبدالله قام بتأسيس جمعية من أجل السعي لإستقلال كُردستان. في الفترة نفسها، بذلت جماعة من قادة الكُرد جهوداً مضنية في سبيل تحقيق إتصال مع الروس للحصول على عطفهم و تأييدهم للقضية الكُردية، بعد أن فقد الكُرد بصورة عامة كل ثقتهم بالأتراك، خاصة عندما أدلى بعض الضباط الأتراك بتصريحات جد مناوئة أثناء فترة إستيلائهم على منطقة تبريز الإيرانية، و قيامهم بنهب القرى الأرمنية و ذبح سكانها. حيث ذكر هؤلاء الضباط : (بمجرد الوصول إلى هذه البقعة أكملنا إبادة (زو) أي الأرمن

، و عندما نغادرها سنتخلص أيضاً من(لو) أي الكُرد). و أصدر بالفعل أنور باشا أمراً بإبعاد سبعمائة ألف كُردي إلى الولايات الغربية في وسط أتون الحرب تحت ذريعة إخلاء السكان أمام القوات الروسية المتقدمة. فقضى أكثر هؤلاء المبعدين نحبهم بعيدين عن الأوطان. و تلبية لنداء السلطان، من ناحية أخرى قام فئة من الكُرد بإسم الجهاد بذبح الأرمن الذين كانوا قد أبعدوا عن ديارهم أيضاً مثل الكُرد أنفسهم. بعد التوقيع على هدنة (مدروس ٣٠ تشرين الأول ١٩١٨) و بمجرد أن وضعت الحرب أوزارها أعيد تأسيس الجمعيات مرة أخرى. فقام الأمير ثريا بدرخان(١٨٨٣ ـ ١٩٣٨) بإنشاء (جمعية إستقلال كُردستان). و في إستنبول نفسها أسس كل من أمين و كامران بدرخان مع العضو البرلماني عبدالقادر إتحاداً لإعادة إصدار صحيفة كُردستان. فبرز خلال وقت جد قصير (الحزب القومي الكُردي) و (الجمعية الكُردية) و غايتهما تحقيق إصلاحات إجتماعية من خلال فروعهما المنتشرة في جميع أقاليم كُردستان. و لكن بإحتلال إستنبول من قِبل قوات مصطفى كمال إضطر هؤلاء المنظمين إلى الهروب و اللجوء إلى خارج البلاد. و مع ذلك لم يتركوا النضال القومي بل دأبوا على الكفاح من أجل الحرية كغيرهم من أعضاء الجمعيات العربية المجاهدة في سبيل الإستقلال. فإجتمعوا في (كاهتا) بقرب مالاطيا لتنظيم حركات المقاومة للكمالية بقوة السلاح إذا إقتضى الأمر، و لكن الكولونيل بيل من الإستخبارات(١) أثناهم عن عزمهم هذا عندما أوصاهم بالعدول عن هذا الأمر مؤكداً لهم بأنه لن يهمل طموحات الشعب الكُردي و أمانيه في نصوص معاهدة السلام. و إعترفت معاهدة السلام(٢) فعلاً وللمرة الأولى في التأريخ ، ضمن وثيقة دولية رسمية، بالقضية الكُردية.

ناضل الشعبان الأرمني و الكُردي التواقان للحرية لأجل الإستقلال ، و لكن الطرفان كانا يدعيان ملكية نفس الأقاليم. حيث كانت ولايات بتليس و دياربكر و خربوط موضوعاً للبحث على أساس عائديتها لكلا القوميتين. و لأجل درء الأخطار الناجمة عن حدوث أي سوء تفاهم قد يؤدي إلى إضعاف قضايا الطرفين في مؤتمر السلم، وافق الطرفان على إبرام إتفاقية بين الشعبين الأرمني و الكُردي في باريس. و تم التوقيع عليها في (٢٠ أيلول ١٩١٩) من قِبل الجنرال شريف باشا نيابة عن الكُرد و بوغس باشا عن الأرمن. فكان لهذا الإنجاز الدبلوماسي الناجح نتائجه الباهرة، فأثمر عن معاهدة سيفر المعقودة بتأريخ (١٠ آب ١٩٢٠) بين الحلفاء و الأتراك و التي نصت على إنشاء دولتين

في أرمينيا و كُردستان(الجزء الثالث، المادتـان ٦٢ و ٦٤). فإستقبل الكُرد هذا القرار بحماسة كبيرة، و لكنه أثار أيضاً معارضة شديدة مع موجة إحتجاجات من لدن الفرنسيين المتطرفين المؤيدين للأتراك في داخل جمعية دووثليي. و صار مصطفى كمال من طرف آخر ضده. و أخيراً إستطاعت قواته المنتصرة التي ألقت باليونانيين في البحر، أن تجعل من تلك المعاهدة مجرد قصاصات من الورق. فصدرت من بعدها (معاهدة لوزان) بتأريخ(٢٤ حزيران ١٩٢٨) التي أبطلت مفعول معاهدة سيظر السابقة. و هكذا خانت الدول الأوروبية الأرمن و الكُرد معاً، و تركت البلاد الأرمنية في يد جلاديها مرة أخرى، كما أكد على ذلك أستاذ القانون الدولي(ليفر).

و رغم كل ذلك لم تنتهي مسألة الكُرد بعد، حيث أثيرت مرةً أخرى مع قضية ولاية الموصل داخل عصبة الأمم، لكون الأكثرية من سكان هذه الولاية هم من الكُرد. فعندما كان العراق تحت الإنتداب البريطاني كان كل من الأتراك و البريطانيين يطالبون بهذه الولاية، لذلك أسلت لجنة دولية لتقصي الحقائق في المنطقة. و بناءاً على توصيات تلك اللجنة قررت عصبة الأمم ضم ولاية الموصل إلى العراق، و ذلك في جلستها السابعة و الثلاثين المنعقدة بتأريخ (١٦ تشرين الثاني ١٩٢٥)، مع إدخال شروط تنص على توفير الضمانات لحقوق الكُرد. و يهمنا إقتباس بضعة أسطر من تقرير لجنة تقصي الحقائق حول كُرد ولاية الموصل:

((إذا بنينا إستنتاجاتنا على القضايا القومية فحسب، سيؤدي بناء ذلك إلى إصدار تصريح رسمي بإنشاء (دولة كُردية مستقلة) لأن الكُرد يشكلون (٥\٩) من سكان المنطقة. فإذا إرتأينا هذا الحل، سيكون من الأنسب إضافة السكان اليزيديين الكُرد المنتمين للمذهب الزرادشتي إلى هذا العدد[1]، و كذلك إضافة الأتراك الذين يسهل إستيعابهم مع العنصر الكُردي. و على هذا التقييم سيشكل الكُرد (٧\٩ من مجموع السكان)).

و أما الحكومة العراقية فكانت في الفترة نفسها تحاول كل ما في وسعها بمعاونة البريطانيين لبسط سيطرتها على الكُرد مع إعطاء الوعود الكثيرة المتكررة و البيانات

---

[1] اليزيدية ديانة مستقلة، ولاينكر الباحثون وجود علاقاتها مع الزرادشتية والسلام اثناء البحث عن الجذور. المترجم

التي تنص على وجوب إحترام حقوق الشعب الكُردي. و من الأمثلة على تلك الوعود إعلان (١١ تموز ١٩٢٣) و بيانات رئيس عصبة الأمم في (٢١ كانون الثاني ١٩٢٦) و منشور وزارة الداخلية في (١٨ شباط ١٩٢٨). و كلها تقرر تدريس اللغة الكُردية في المدارس و إستعمالها في المحاكم و الإدارات و تعيين الموظفين من الكُرد، أو الإلمام بتلك اللغة عند تعيين غيرهم في المناطق الكُردية.و حاول البريطانيون أن يجعلوا هذه النظم فعالة، ولكنهم أنهوا الإنتداب بتوقيع المعاهدة الأنكلو ـ عراقية في (شهر حزيران ١٩٣٠)، دون أن تحوي أي مادة تنص على الإعتراف بحقوق الأقليات الدينية و القومية. و كان لهذا الحذف و الإهمال نتائج سيئة بالنسبة لجميع الأطراف.

تصادم القومية الكُردية مع الحركات القومية المجاورة

نستطيع القول بإختصار، أن السياسة الدولية بعد الحرب العالمية الأولى مما خلا بعض الأمال التي سرعان ما تبددت، نجحت فقط في جعل وضع الكُرد أكثر قلقاً و تزعزعاً. فبينما كان الكُرد يعيشون قبل حرب(١٩١٤) في بلدين فقط، تركيا و إيران، أصبحوا الآن موزعين بين تركيا و إيران و العراق بالإضافة إلى أقلية جد مهمة في سوريا و أقلية أصغر منها في أرمينيا السوفييتية. فلم تنل تجزئة كُردستان بهذا الشكل رضا الوطنيين الكُرد أبداً، لذلك توالت الإضطرابات و الإنتفاضات لتهدد صلب كيان الحكومات المحتلة.

هنالك ألاعيب محفوفة بالأخطار من النوع الذي يمارسه الأطفال، كإشارة حيوان بطعام يلح عليه بأكله، ثم يمنعه عنه. عند ذاك عليه أن يلوم نفسه إن آذاه هذا الحيوان. و ينطبق ذلك على السياسة أيضاً. أن تبهر أنظار الكُرد بأمل كبير في عهد يسوده الإستقلال، ثم تجعل المعاهدات التي تنص على هذه الشروط و الحقوق مجرد قصاصات من الورق! ثم تعد الشعب الكُردي بالتمتع بحقوقهم القومية، في اللغة و الثقافة و في حق إنشاء دولة، و يأتي فجأةً الرفض القاطع و إنكار لهذه الحقوق. تلك لعمري سياسة مخيبة للآمال. و هي في الواقع مصيبة كبيرة، تتحول من بعدها إلى قلب الأوضاع و عدم الثبات و تكدير السلام في منطقة الشرق الأوسط، التي تفتقر إلى الهدوء دائماً. و أصبحت اللعبة أكثر خطورة، عند منح حق الإستقلال و الحكم الذاتي بعد الحرب العالمية الثانية إلى شعوب تعتبر بشكل عام أقل تطوراً من الكُرد. فمن السهل علينا أن نتصور

بأن الكُرد من الطبيعي أن يشعروا بأنهم قد وقعوا فريسة للخداع و الغش، و هذا ما يدفعهم للبحث عن وسائل أخرى تمكنهم من العيش تحت الشمس كغيرهم من الناس.

و لندقق الآن في أوضاع ثلاثة أقطار رئيسة يسكن فيها الكُرد، و هي تركيا و إيران و العراق. ليست هناك مشاكل في أرمينيا السوفييتية بالنسبة للأقلية الضئيلة من الكُرد لإقرار حقوقهم الثقافية هناك و لإختلاطهم بالتفوق السكاني للأرمن و ثقافاتهم و مجتمعاتهم. و يمكن قول الشيئ نفسه عن سوريا، مبدئياً. فإذا كان الكُرد لا يملكون هناك مثلاً المدارس الخاصة بهم، فهم يتمتعون بنفس الحقوق السياسية و المدنية لجميع المواطنين الآخرين.

الكُرد في تركيا

نبدأ البحث بهذا البلد لأن أكبر عدد سكاني من الكُرد يعيشون فيه. أي من خمسة إلى ستة ملايين نسمة(٣). و هناك أيضاً كلفتهم الإنتفاضات التي تحولت إلى حركات عسكرية أثماناً باهضة من الرجال و الأموال، حيث تمثلت أول بادرة إستياء في تمرد الشيخ سعيد پيران عام(١٩٢٥) و الذي أشعل أوارد بعض المسلمين المتعصبين التواقين إلى عهد الخلفاء الذي قضى عليه الأتاتُرك، و كذلك نتيجة للإمتيازات الإقطاعية التي باتت مهددة بسبب الإصلاحات التي أجراها النظام الجمهوري. و تصور البعض ومن بينهم الأتاتُرك نفسه بأن هنالك يد تحرك هذه الإنتفاضات، و بالأخص في صالح المخططات المتعلقة بولاية الموصل. و على أثر ذلك أنشأت الحكومة التركية الجديدة(محاكم الإستقلال العرفية) و دفعت بأفراد الشعب إليها لشنقهم لأتفه الأسباب. فأجريت المحاكمات لقادة الثورة الكُردية في دياربكر، في أوائل شهر نيسان حتى حزيران (١٩٢٥). و صدرت أحكام الإعدام بحق ثلاث و خمسين شخصاً و نفذ فيهم الحكم على أساس أنهم حسب أقوال رئيس تلك المحكمة(إتحدوا جميعاً على شئ واحد، و هو تكوين كُردستان مستقلة).

و حدث عصيان آخر في آكري داغ(آرارات) بقيادة ضباط قديرين أعدوا له المستلزمات العسكرية و التقنيات الحربية. و جهزت قواتهم بأحدث المعدات و الأسلحة الضرورية من قِبل القيادة المركزية القومية(خويبون) الواعية المدركة للأهداف الواجبة تحقيقها. فحشدت الحكومة التركية لمحاربتهم فيلقين عسكريين في عام (١٩٣٠) تحت قيادة صالح

باشا. فأخذت تقصف النساء و الأطفال دون تمييز، الأمر الذي جعل إبداء أي نوع من المقاومة أمراً مستحيلاً. لذلك تقهقرت قيادة الحركة إلى الوراء نحو الأراضي الإيرانية. نشرت(السلطة التنفيذية الدولية الثانية) في (٣٠ آب ١٩٣٠)، على أثر الإجراءات المنافية للقيم الإنسانية، إحتجاجاً بناءاً على طلب المندوبين الأرمن في زيورخ تندد بالأساليب البربرية التي تمارس لإبادة الشعب الكُردي و التي تذكر بالأساليب التي إستعملها الكُرد لإبادة الأرمن. و لكن الأتراك إتهموا الإيرانيين بمساعدة الكُرد سراً. و تخيل الآخرون بأنه كان للورنس الشهير يد في مساعدتهم. و أخيراً أشار شخص يدعى آغا بيكوف إلى أن للسوفييت علاقة بتلك القضية و أنهم يمدون الثوار بالمساعدات. بينما أكد(خوند كاريان) عكس ذلك ذاكرين بأن السوفييت كانوا دوماً على إستعداد لمساعدة الأتراك في قمع الثورات الكُردية.

و مهما تكن الأوضاع فلقد سنت الحكومة التركية في (٥ مايس ١٩٣٢) ما يسمى (بقانون الإبعاد) الذي مُنح فيه وزير الداخلية صلاحية نقل الكُرد من مناطقهم إلى الأقاليم الغربية، على أساس تعلق القضية(بالأمور الصحية و الثقافية و السياسية و الإستراتيجية و الإنضباطية و المادية). و أصبح منذ ذلك الوقت فصاعداً، وفقاً للأنظمة التركية، لا وجود للكُرد في تُركيا، بل إنما هنالك مجرد أتراك جبليين.

و لكن سرعان ما دحضت ثورة درسيم في عام(١٩٣٧) بطلان هذه الإدعاءات، إذ إندلعت نارها العارمة تحت قيادة الشيخ رضا و بعنف أكثر من سابقاتها و كان الهدف منها مقاومة الإجراءات الإدارية، فإنتشرت الحركة و توسعت كثيراً فتدخل الجيش في مرحلتها العصيبة و أنهى العصيان بنصب المشانق في هذه المرة أيضاً. فحُكم على أربعين شخصاً بالإعدام من قِبل محكمة العزيز الجنائية بتأريخ(١٤ تشرين الأول ١٩٣٧). و نفذ فيهم الحكم في اليوم التالي. و فوق كل ذلك أزيل إسم درسيم(المشؤوم!) من الخارطة و بُدلّ بـ(تونجيلي).

و منذ ذلك الوقت أصبحت كُردستان تركيا هادئة، الأمر الذي أدى بالمراسلين الأجانب أن يتخيلوا إنتهاء القومية الكُردية هناك. و لكن هذا الزعم قد خاب الآن الحركات المتعاقبة من بعد ذلك بددت تلك الأوهام و بعثرتها.

الكُرد في إيران

في وسع المرء أن يفهم أسباب ثورة الكُرد ضد الأتراك، و كذلك صراعهم مع العرب في العراق بإعتبار أنهم يرون في أنفسهم شعوباً أعلى مرتبة من الكُرد(٤)، و لكن تزداد الحيرة في تدهور علاقاتهم مع حكومة طهران. أليس الشعبان من أصل واحد(٥)، يتكلمان لغتين متقاربتين؟ ألم يتربيا على الأساطير التي ورثوها من نفس الأجداد؟ فمن المفروض على الشعبين أن يتحدا في كل شئ، حيث لا شك بان وضع كُرد إيران أحسن من إخوانهم بصورة عامة. فالحكومة الإيرانية تؤكد دائماً على المميزات و الصفات المشتركة بين القوميتين. و لكن من الضروري ذكر إثارة المشاعر التي تلهب الجذوات الكامنة تحت الرماد فتتأجج أحياناً لتحول التوترات الجماعية إلى إضرام نار الثورات و إراقة الدماء. و هكذا، خلال الحرب العالمية الأولى أراد إسماعيل آغا(سمكۆ) الإنشقاق عن إيران بالإعتماد على الترك أحياناً و على الفرس أنفسهم في أحايين أخرى. و لكي يخضع الإيرانيون هذا القائد المتمرد، قاموا بتعيينه حاكماً في بلدة(شنۆ) القريبة من بحيرة أورمية. و لكنهم غدروا به أخيراً فأغتالوه في آخر المطاف بالخيانة، و بنفس الطريقة التي إستعملها هو نفسه في قتل مار شمعون بنيامين، بطريرك الطائفة النسطورية في (٣ مارت ١٩١٨).

أخذ رضا شاه بهلوي يمارس سياسة شديدة تجاه الكُرد فأبعد رؤساء العشائر الكبيرة إلى طهران بعد أن نهب أموالهم و ممتلكاتهم. فجعل بذلك الفلاحين بمنأى عن حمايتهم و رعايتهم، فاصبحوا بلا حول و لا قوة يعانون من مساوئ الظلم و السياسة الوحشية التي يمارسها الموظفون الإيرانيون ضدهم. فيروي وقائع المأساة (ايگلتون) في كتاب نشره عن هذا الموضوع. و أدينت السياسة التعسفية هذه بكل شدة من قِبل القاضي الأمريكي(دوغلاس) الذي كان شاهد عيان لها بنفسه.

تم إحتلال إيران أثناء الحرب العالمية الثانية من قِبل الروس في مناطقها الشمالية. و من قِبل البريطانيين في المناطق الجنوبية، فأصبحت كُردستان من جراء هذا الوضع منحصرة في أرض لا وجود لأي حكومة فيها، و أصبح من الممكن للكُرد العيش تقريباً بحرية، أو بالأحرى بعيداً عن مظالم طهران و قمعها. و بذلك سنحت لهم الفرصة لتشكيل حزب سياسي(كۆمەڵە) الذي كان محافظاً في إتجاهاته و وطنياً في مقاصده. وأخذ زمام

قيادته كُردي ينتمي إلى عائلة متدينة عريقة، و هو (قاضي محمد) الذي إستغل الوضع المناسب فأعلن في (٢٢ كانون الثاني ١٩٤٦) جمهورية مهاباد الكُردية، و ذلك في قلب جمهورية آذربيجان المستقلة دون إراقة قطرة واحدة من الدماء. و كانت جمهورية آذربيجان قد تأسست في تبريز على أثر الفوضى الناشبة في كيان الحكومة المركزية الإيرانية. كان قاضي محمد رجلاً شجاعاً نبيلاً، و لم يكن شيوعياً قط، بشهادة ما ذكره عنه أ. روزفلت(الإبن). و لم يكن مناوئاً لإيران أيضاً. و لكنه كان ينوي تحقيق إستقلال داخلي للكُرد في إطار الإمبراطورية الإيرانية. فإستطاع أن ينظم دولته الصغيرة، ففتح المدارس و المستشفيات و أصدر الصحف الكُردية. و بذل قصارى جهده للإسراع في تطوير الزراعة و التجارة و الصناعة و الشؤون الصحية. و ليس في كل هذه الإجراءات سمة للعصيان و التمرد. إلتحق به بعد ذلك الملا مصطفى البارزاني(الذي سنذكره فيما بعد) و كان لاجئاً عراقياً، أصبح خلال وقت قصير جنرالاً في جيش الجمهورية الفتية، الذي أُعد إعداداً صحيحاً. و لكن طهران إنتهزت فرصة إنسحاب الجيوش السوفييتية المساندة لجمهورية آذربيجان(و التي لم تكن تعاون جمهورية مهاباد)، فأطلقت عنانها لممارسة الظلم و الإنغماس في الأعمال الإنتقامية الدموية. فقامت بشنق أعضاء الحكومة الكُردية من أفراد عائلة قاضي محمد. إن تجربة الإستقلال هذه دامت زهاء سنة. إتجه من بعدها البارزاني إلى الإتحاد السوفييتي ليتخذها ملاذاً له، بعد أن قام بسلسلة من التضحيات و المغامرات التي تعتبر بحق من النوع الأسطوري. و أما المثوى الأخير لقاضي محمد فقد صار مزاراً لجماهير الكُرد.

و لم تفلح مثل هذه الممارسات القمعية الشديدة في حل المشكلة التي تحتاج إلى تروٍ أكثر و إدراك أصح لإزالة أسبابها، لأن الصراع تجدد في مناسبتين أخريين، بين عشيرة(جوانرِؤ) الساكنة بقرب كرمنشاه، و القوات الإيرانية في شهر أيلول(١٩٥٠)، و كذلك في شهر شباط(١٩٥٤). و تمثلت المشكلة هذه المرة في المسائل الإقتصادية، حيث إتهمت الحكومة الإيرانية العشيرة بالإمتناع عن دفع الضرائب، و الإحتفاظ بالأسلحة و زراعة الحشيشة. و إتهمت الحكومة الإيرانية الإتحاد السوفييتي أيضاً بتقديم المساعدات للمتمردين. و كان هذا القمع الإرهابي حسبما يرويه(ثي. رونِدوث) من أحد الأسباب الحقيقية التي أدت إلى عقد ميثاق بغداد في عام(١٩٥٥). و كان من أهدافه، بعد أن

حل محل ميثاق سعد آباد(١٩٣٧)، مساندة الأطراف المتعاقدة، أي إيران و أفغانستان و العراق و تركيا، عند وقوعها في المشاكل مع الكُرد الساكنين في هذه الدول.

و منذ إندلاع الإضرابات الأخيرة، بذلت الحكومة الإيرانية التواقة إلى تحقيق الإصلاحات الإجتماعية جهدها في كسب عطف الجماهير الكُردية و حتى الإستحواذ على تأييدها. فتم في طهران إصدار صحيفة إسبوعية بإسم (كُردستان) التي سرعان ما إنتشرت في الخارج بصورة واسعة، عندما خرج العدد الأول منها إلى الأسواق في شهر مايس(١٩٥٥) مزيناً بالمقالات القيمة عن الأدب و العلم و التأريخ و الدين، و السياسة أيضاً. و لكن مهما كانت طبيعة الأوضاع هنالك في إيران، فإن غياب الإستقرار عن كُردستان العراقية، يجعل من حكومة طهران في موقف إحتراس و ترقب دائمين.

الكُرد في العراق

ليست حياة كُرد العراق بأقل قلقاً و هياجاً من إخوانهم في تركيا و إيران، لأنهم عانوا أيضاً من مشاكل الإنتفاضات و الثورات. فعندما إستلمت بريطانيا العظمى في أوائل شهر مايس(١٩٢٠) العراق و فلسطين من عصبة الأمم على أساس الإنتداب، لم ينتظر الكُرد البريطانيين لإستلامهم تلك المهمة الرسمية، بل شرعوا مبكراً في إجراء الإتصالات معهم أثناء بسط سيطرتهم على كُردستان. حيث إحتلت بريطانيا المناطق الكُردية قبل إبرام معاهدة (مدروس). و كان بصحبة الإنكليز رجال أكفاء مثل الميجر سون و الميجر نويل اللذين كانا يقومان بتنفيذ تلك الإتصالات مع الكُرد. و كان الكُرد قد قدموا قبل ذلك عريضة بتوقيع زهاء أربعين من رؤساء العشائر إلى السير أرنولد ويلسن المندوب السامي آنذاك في شهر كانون الأول (١٩١٩). يطلبون فيها تشكيل حكومة كُردية تحت حماية بريطانيا العظمى و تكون متحدة مع العراق. فعُين عندئذ الشيخ محمود البرزنجي (١٨٨٠ ـ ١٩٥٦) حاكماً في مايس (١٩١٩). و عُين كذلك الأمير فيصل في (١١ مارت ١٩٢٠) ملكاً على سوريا في دمشق. و كان ذلك في الوقت الذي أثار فيه توقيع معاهدة سيفر مشاعر الرأي العام الكُردي. و لكن الملك فيصل دفع به الفرنسيون خارجاً من دمشق ليتم تنصيبه ملكاً على العراق في(٢٣ آب ١٩٢١). و بعد مرور سنة، و في (١١ أيلول ١٩٢٢) بالذات صدر أمر بإعادة الشيخ محمود إلى السليمانية من منفاه في الهند.

و لكن الشيخ محمود الذي كان الإنكليز يحاولون السيطرة عليه و يعرقلون حكمه، لم يكن يرضى بالخضوع و إتباع مشيئة بدوية. و رغم إظهار صداقته للإنكليز أعلن نفسه في (تشرين الأول ١٩٢٢) ملكاً على كُردستان (حكمدار). فشكل حكومة و أصدر طوابع بريدية و طوابع لجباية المال. يا ترى، هل كان للإنكليز يد في ذلك! فبغض النظر عن جميع الظروف، كان هنالك تصريح رسمي صدر بتأريخ (٢٤ كانون الأول ١٩٢٢) ينص على أن(تعترف كل من الحكومتين البريطانية و العراقية بحقوق الكُرد الساكنين ضمن الحدود العراقية بتشكيل حكومة ضمن هذه الحدود). و لكن بالرغم من ذلك، سرعان ما تطور سوء التفاهم بين الملك محمود و حماته الإنكليز إلى الإحتكاك و حدوث الإصطدامات، و أُجبر هذه المرة أيضاً على الهرب فذهب إلى پينجوين و مكث هناك حتى عام (١٩٣٠) و هو العام الذي إنتهى فيه الإنتداب البريطاني.

لم تكن الحماية البريطانية قد إنتهت حتى تصادمت الملكية الهاشمية مع الكُرد و الآثوريين(مذبحة سميل في آب/١٩٣٣) عندما خلقت الحكومة العراقية التوتر بفرضها الموظفين العرب على الكُرد و منعهم من إستعمال اللغة الكُردية في دوائر الدولة للمناطق الشمالية. فتطور التوتر إلى تمرد علني، ففتح الجنود العراقيون النار على الأهالي في مدينة السليمانية في (٦ أيلول ١٩٣٠) و رجع الشيخ محمود إلى الوطن و تبوأ قيادة الحركة الوطنية، مطالباً بالحكم الذاتي للكُرد ضمن الحكومة العراقية تحت حماية بريطانية. و برهن الجيش العراقي أنه قاصر لا يستطيع سحق الثورة الكُردية التي إستمرت تسعة شهور، الأمر الذي أدى بالقوة الجوية البريطانية إلى التدخل مرة أخرى لأجل فرض السيطرة. فسبب ذلك إثارة السخط و المعارضة الشديدين من قِبل الموظفين البريطانيين السابقين من ذوي الرتب العالية من أمثال ويلسن و الجنرال دوبس، اللذين صرحا بأنهما قد تنبئا بحدوث مثل هذه النتائج المؤسفة. و بعد هذه الحوادث، تمَّ فرض الإقامة الجبرية على الشيخ محمود في بغداد.

و لكن الهاشميين مازالو في مستهل مشاكلهم. حيث جدد الشيخ أحمد البارزاني إنتفاضاته أيضاً في تموز(١٩٣١) و في العامين(١٩٣٢ و ١٩٣٣)، و لكنه أُبعد إلى كركوك ثم السليمانية ليبقى هناك حتى عام ١٩٤٥.

فهدأت كُردستان العراقية منذ ذلك الوقت. و بعد مغامرة رشيد عالي الكيلاني في عام(١٩٤١) شجع البريطانيون الذين كانوا متمركزين بقوة في العراق، الكُرد للإنخراط في

الجيش البريطاني رغبة منهم في نيل ود الرأي العام الكُردي، مما دفع ببعض الإنكليز إلى إصدار تلميحات رسمية حول خلق (مناطق مستقلة) في كُردستان.

كان الملا مصطفى البارزاني يشكو في منفاه بمدينة السليمانية مع اخيه الشيخ أحمد عام (١٩٤٣) من وضع الطعام و سوء أحوال الأفراد المنفيين معه، لذلك حاول الهرب و أفلح في الوصول إلى منطقة بارزان بصحبة الشيخ لطيف نجل الشيخ محمود. و رفع هناك علم الثورة. و قد تدخل شخص كُردي كان وزيراً للدولة لمعالجة الأوضاع. فوافق البارزاني على وقف القتال بشرط إرسال شحنات من الغذاء إلى المناطق الكُردية بكميات أكبر و تعيين الكُرد عوضاً عن الموظفين العرب مع فتح المدارس و المستشفيات في كُردستان. وافق نوري سعيد الذي كان رئيساً للوزراء على هذه الشروط و لكن لم يكن الوصي عبدالإله راضياً عنها. فإندلعت نيران الثورة مرة أخرى في عام(١٩٤٥). و كانت هذه المرة أشد ضراوة من سابقاتها. وأصبح الأمر الآن خطيراً لأن الكُرد قد أحرزوا إنتصارات باهرة، و بجانب ذلك بلغت تكاليف القتال وفقاً لتصريح أدلى به أحد النواب، مليون دينار عراقي. فتدخلت القوة الجوية البريطانية هذه المرة أيضاً لإنقاذ العراق و العائلة الملكية الهاشمية. فإنتهت الحملة في نهاية شهر آب و إنسحب الملا مصطفى وتوجه إلى إيران مع قواته و مع ما حصل عليه من الغنائم. نفذ بعد ذلك حكم الإعدام في أربعة من ضباطه المخدوعين بوعود الأمان، و هم مصطفى خوشناو و عزت عبدالعزيز و محمد محمود و خيرالله عبدالكريم بعد أن صدر هذا الحكم عليهم في (١٩ حزيران ١٩٤٧). و لكن أعيد إليهم إعتبارهم بعد وقت طويل من قِبل الزعيم عبدالكريم قاسم عند إعلان الجمهورية العراقية.

و بعد أن طغى على الحوادث إستعمال القوة و البطش، لم يبق لدى الكُرد في العراق ما يفعلونه غير إتخاذ طريق النضال السري. و هذا ما قاموا به فعلاً، فشكلوا حزب كُردستان العراق الديمقراطي، ذا الميول اليسارية، و أصدروا نشرتين(آزادي) و (رزگارى). و طرحت رزگارى في عددها الثاني في(تشرين الأول ١٩٤٦) فكرة إنشاء إتحاد كُردي ـ أرمني، بحماس تام، الأمر الذي حار فيه الكولونيل الفستون، رئيس دائرة المخابرات(البريطانية ـ المترجم)، فيما إذا كانت هذه المحاولة ستؤدي إلى تشكيل جمهورية تابعة للإتحاد السوفييتي، لها مميزات كُردية أرمنية.

و بعد إستتباب الأمن بأية صورة، أراد الكُرد الإستفادة من الظروف المتاحة للعمل في المجالات الثقافية. فظهرت المطبوعات الأدبية و مجموعات شعرية و مقالات عن تأريخ كُردستان و سيرة مشاهير الكُرد السالفين. و أصبحت السليمانية مركزاً فعالاً لنشر الثقافة و بؤرة لتغذية الحركات الوطنية.

كان لسقوط الملكية الهاشمية الذي ساهم في تحقيقه الكُرد و إعلان الجمهورية العراقية في (١٤ تموز ١٩٥٨) تأثيراً كبيراً لإشراق عهد جديد على مسار العلاقات العربية الكُردية و ذلك بإدخال نص المادة الثالثة في الدستور المؤقت الذي يتمثل في كون الكُرد و العرب شركاء في الوطن. و كذلك نص الدستور على الحقوق الطبيعية للشعب الكُردي و إعترف بهم كعنصر قومي كامل. و منح قرار صادر في (٢ أيلول ١٩٥٨) عفواً عاماً أتاح للملا مصطفى الرجوع إلى العراق. ولكن مسألة تراجع قاسم عن تطبيق المادة الدستورية معروفة لدى الجميع، فأثار بذلك حفيظة الكُرد. ليثوروا مجدداً في (أيلول ١٩٦١)، الأمر الذي خلق صداماً عسكرياً إستمر حتى سقوطه، الذي كانت الثورة الكُردية سبباً مهماً فيه.

و بناءاً على ما نشره الكثيرون من الصحفيين في الغرب و الشهود العيان الذين واكبوا الأحداث، لم يكن الكُرد قط أكثر إتحاداً و أعظم بسالة و جرأةً مما كانوا عليه أثناء ثورتهم تلك للكفاح من أجل نيل مطالبهم القومية و جاء بعد قاسم حزب البعث مع عبدالسلام عارف. و إتضح بأن الأخير لم يستطع إستيعاب مدى الشعور الوطني و زخمه لدى الكُرد بصورة تامة، حيث جدد القتال بتأريخ(١٠ حزيران ١٩٦٣). و لكن بعد إنتصاره في إنقلابه الأخير على البعث أعلنت الهدنة التي كانت يتوق إليها عارف. و منذ ذلك الوقت دأب الطرفان على الإحتفاظ بالهدوء و السكينة، فمن الواجب إستخلاص العبرة من متانة الوشائج التي تتداخل في خلق وجود حقيقي للقومية الكُردية حتى يتسنى إيجاد حل عادل لهذه المشكلة التي بخلافه ستؤدي حتماً و لوقت طويل إلى تعكير الأمن و تخريب الأوضاع و التوازن في منطقة الشرق الأوسط.

ليكريي، لبنان ١٣ أيلول ١٩٦٤

الهوامش

الفصل الأول:

(١) و هي (أوستان كُردستان) أي محافظة كُردستان، و مركزها(سنندج) الحالية أو (سنة). و تشمل قسماً صغيراً من مساحة كُردستان الإيرانية.

(٢) توجد في كُردستان الآن مدن كبيرة يتجاوز سكان الواحدة منها مليون نسمة، منها السليمانية و أربيل و دياربكر. و سكان المدن مثل سنندج و كرمنشاه و كركوك و مهاباد و أرضروم و وان و بتليس يتجاوز عشرات الألوف. و هناك بجانب ذلك عدد من المدن الكبيرة الأخرى. و التقدير السكاني الموجود في هذا الكتاب لا يمكن أن يعبر عن واقع تلك المدن لهذه الأيام.

(٣) يقدر عدد السكان الحالي لمدينة السليمانية باكثر من مليون و ربع مليون نسمة.

(٤) قدرت لجنة تقصي الحقائق التي أوفدتها عصبة الأمم بعد الحرب العالمية الأولى نسبة الكُرد بثمانين في المائة من مجموع السكان المؤلفين من الكُرد و التركمان و الآثوريين و العرب.

(٥) ثمة محاولات دائبة للتقليل من العدد الإجمالي للكُرد ضمن العمل الدؤوب لمحاربة القومية الكُردية. و الجدير بالذكر، عندما كان التعداد السكاني للعراق ثلاثة ملايين في الثلاثينيات، كان نفوس الكُرد يعتبر عندئذ مليوناً واحداً، أي ثلث المجموع. و عند التقدير الحالي البالغ عشرين مليوناً لمجموع العراقيين، يستوجب تقدير الكُرد في العراق بستة ملايين و نصف مليون نسمة. و كانت الصحف التركية تشير في السبعينيات إلى التعداد السكاني لكُرد تركيا بأربعة عشر مليوناً، وبعد إنفجار الوعي القومي هناك، و المطالبة بحقوقهم المشروعة، اخذت السلطات التركية تشير إلى أرقام مبالغة في التخفيض. و على أثر إطلاع العالم على شؤون الكُرد، أصبحت التقديرات الصادرة من مختلف المصادر تذكر عدداً لا يقل عن ثلاثين مليوناً. و لكن هناك بعض المختصين الذين يرفعون ذلك الرقم إلى أربعين مليوناً في كثير من الأحوال.

الفصل الثاني:

(١) موليير: الإسم المسرحي لجان بابتست پوكولين. ولد في پاريس في (١٥ كانون الثاني ١٦٢٢) و توفي في (١٧ شباط ١٦٧٣). و هو الكاتب المسرحي و العبقري في أداء الأدوار الهزلية. ذاع صيته أخيراً كأحد أعظم كُتاب فرنسا. كان والده مغلفاً للأثاث، و لكنه حظي بقسط وافر من التعليم. ترك دار والده ليصبح ممثلاً، فساعد في تأليف شركة(الوستر المسرحية)، و لكن النجاح لم يحالفه إلا من بعده بطيئاً. قام موليير بالتجوال في المقاطعات الفرنسية خلال الأعوام(١٦٤٥ ـ ١٦٥٨) مع فرقة مسرحية كتب لها الروايات و قام بتمثيل الأدوار فيها. فكان نجاح مسرحيته (المهازل الثمينة) في عام (١٦٥٩) سبباً في تثبيت مكانته الأدبية، فأنشأ

مسرحاً دائمياً بعد ذلك. و قام بتأليف الروايات المسرحية للمتفرجين من البورجوازيين و حاشية القصر في باريس. و من أعماله الشهيرة(تارتف) الذي تم عرضه في (١٦٦٤) و (المخادع) الذي اغضب الأوساط الدينية فمنع عرضه و (مدرسة الزوجات) في (١٦٦٢) و (اللا إنساني) في (١٦٦٦) و البخيل في (١٧٣٣) و (الجنتلمان البورجوازي) في (١٦٧٠). و عندما كان موليير يقوم بأداء دوره في مسرحيته(المريض بالوهم) إنهار على المسرح و توفي في الليلة نفسها.

(٢) زاهلاك، أزدهاك أو اذدهاك

(٣) ثروميثيوس: نصف إلَه كما ورد في الأساطير اليونانية. صنع الإنسان من صلصال و سرق النار من معبد أولمبس، و علم الإنسان إستعمالها، كما علمه أيضاً شتى الفنون الأخرى. كبل زايوس(رئيس الآلهة) پروميپيوس و شده إلى الصخور في جبال قفقاس. و أما أولمبس فهو مثوى الآلهة في جبال تساليا.

(٤) الماترياركية: نظام وراثي يرجع وراثة النسب إلى الأم.

(٥) العهد الماوستيري: حقبة(پاليوليپيك) تم العثور عليها في كهف (ماوستر) بفرنسا.

و پاليوليپيك: العصر الحجري القديم.

(٦)السايكلوپي: طراز للبناء يتميز بإستعمال صخور غير متناسقة الأحجام، من غير إستعمال الملاط. و السايكلوب من العمالقة الذين يملك الفرد الواحد منهم عينا واحدة.

(٧)پيرەمگرون: جبل قريب من مدينة السليمانية، ذكر هنا لورود إسمه مع ملحمة گلگامش.

(٨) ميزوراين: الجنس البشري من النوع المتوسط. و ليبتوراين: الجنس من النوع النحيل الضعيف.

الفصل الرابع:

(١) لا يوجد حدث في التاريخ يؤكد مثل هذه الطريقة لإنتخاب الرئيس، بخلاف ما يورد في الحكايات و الأساطير الخيالية.

(٢) پياستر: قرش، قروش، نظام نقدي.

(٣) كان تقديم الخدمات و الطعام إلى القوات الثائرة(پێشمەرگە) يجري برحابة صدر من قِبل القرويين دون ممارسة الضغوط.

(٤) توافق الترجمة الإنكليزية و الكُردية إلى (حزب كُردستان الديمقراطي) بدلاً من الحزب الديمقراطي الكُردستاني الشائع لصحتها من الناحية اللغوية و عدم جواز إضافة الألف و اللام إلى كلمة كُردستان.

الفصل الخامس:

(١) إسم بطل لإحدى المنظومات الفرنسية

(٢) يورد ذكر الشارب الأحمر في الأغاني الكُردية للمسيحيين الكُرد و الآثوريين في شمال العراق، و الأشعار المرحة.

الفصل السادس:

(١) اڤيستا: التدوين الشرائعي للزرادشتية التي لا زال الپارسيون يعتبرونه كتاباً مقدساً. ألف زرادشت القسم الأول منه، و أضيف إليه في مسرى القرون. يتألف من(٢١) كتاباً للصلوات و الأغاني و المعتقدات و الشرائع و المفاهيم الأخلاقية. يعتقد أن الإسكندر الكبير أحرق الكتاب عندما دمر پرسيپوليس. فقام الساسانيون الفرس بجمع بقايا الكتاب في القرنين الثالث و الرابع، و جمعت الأجزاء الأخرى في القرنين الثالث عشر و الرابع عشر. و يعتبر (زند) من التعليقات على نصوص كتاب آڤيستا.

(٢) يحتفل بعيد نوروز (اليوم الجديد) في ٢١ آذار كما هو جار في كُردستان العراق.

(٣) أدونيز اندونيس: شاب جميل أحبته الآلهة ڤينوس.

الفصل السابع:

(١) مزاح شائع عند الكُرد أنفسهم دون أن يكون لفاعله وجود.

(٢) يدهش القارئ الكُردي وجود مثل هذه الممارسات أو إحتمال وجودها في عهد سابق.

الفصل الثامن:

(١) الميترائية: عبادة إله النور و حامي الحقيقة و عدو قوى الظلام.

(٢) مازدا: في الزرادشتية: المبادئ الخيرة في الديانة الفارسية القديمة.

(٣) من العجب ان يقع باحث قدير كتوما بوا في الخطأ بهذا الشكل المثير. فالشرائع الإسلامية و بضمنها الزكاة لا تحظى بالتطبيق و العناية الكاملتين في هذه الأيام. و إن طبقت بحذافيرها لا تزيد بالتأكيد من عدد المتسولين، بل إنما العكس هو الصحيح. إن كثرة أعداد المتسولين بهذا الشكل الكبير ترجع إلى الأوضاع الإقتصادية و الأسباب السياسية و عدم وجود الإستقرار و التأخر الزراعي و الصناعي......الخ.

(٤) إن القادة المذكورين من الكُرد كانوا يتمتعون بجانب نفوذهم الديني. بالسلطات الدنيوية. و كانوا يحسون كأي مواطن آخر بالشعور الوطني. فاصبحوا رواداً للحركات التحررية الكُردية نظراً لما كانوا يتمتعون به من المراكز القيادية العشائرية، معتبرين ما كانوا يؤمنون به واجباً دينياً وطنياً في السعي لإنقاذ أبناء جلدتهم من العبودية و الإستغلال الأجنبي.

(٥) التأهيل: إعادة الإعتبار إلى الشيطان بعد تمرده على الخالق.

الفصل التاسع:

(١) يعتبر الكرد من أكثر شعوب المنطقة تمسكاً بشعائر الديانة الإسلامية بصورة عامة.

(٢) الوَدَعة: صدفة صفراء تستعمل كنقود في البلاد الأفريقية.

(٣) الصخور الدولمنية: دولمن: ضريح من أضرحة ما قبل التأريخ، قوامه حجر كبير مسطح موضوع فوق عدد من الحجارة المنصوبة.

الفصل العاشر:

(١) إندو أوروبي: أو إندو جرماني: مجموعة من اللغات السائدة في القسم الأعظم من أوروبا و آسيا، وصولاً إلى شمال الهند، و يتفرع منها الإندو ايرانية التي تشمل اللغات السائدة في الهند و إيران.

(٢) المقصود هو اللغات الإندو إيرانية و ليس اللغة الفارسية.

(٣) إشارة توضع تحت الحرف.

(٤) الأبجدية السيريليكية تستعمل من قِبل الشعوب السلافية من أتباع الكنيسة الشرقية.

(٥) غراب أبيض طويل الذيل.

(٦) قد يكون مجرد صوت لصنع قافية.

(٧) لاڤونتين: جان دي لاڤونتين: الكاتب الفرنسي في القرن السابع عشر، إشتهر برواياته التي تعتبر من أروع ما أنتجه الأدب الفرنسي، كان يكتب معلقاً على الأسس الأخلاقية و إسلوب معالجتها و تعليمها بالتعمق و الحكمة و النضوج. لذلك أصبحت رواياته جزءاً من ثقافة الفرد الفرنسي بين الطلاب و صفوف الأدباء من أمثال(أندريي جيد) و (پول ڤاليرى) و (جان گيرودو) الذين ساهموا في إيقاد نار شهرة لاظونتين في القرن العشرين. ولد في عام (١٦٢١)، في(شاتو تيري) الواقعة في مقاطعة(شامپين) من عائلة بورجوازية. عاش في باريس و كتب فيها رواياته الشهيرة. إنتُخب في عام(١٦٨٣) عضواً في الأكاديمية الفرنسية برغم معارضة الملك لذلك نظراً لغرابة شخصيته غير العادية و عدم إكتراثه بالمفاهيم الدينية. لم يكن لاڤونتين يخترع مادة لرواياته، بل إستقاها من التقليد و الحكايات الشرقية. فألف الكوميديات القصيرة الملذة و الأعمال الدرامية. و وصف الجمال الأزلي للطبيعة بشكل معبر للغاية و كانت أشعاره المؤلفة من(٢٤٠ قطعة) تحوي الأنواع المختلفة من المواضيع التي عالجها بشكل مذهل، لتكون مرآةً تعكس حالة المجتمع الأرستقراطي في عهده. و كان ينتابه بين حين و آخر ميل إلى السخرية، و يتطرق أحياناً إلى المواضيع السياسية السائدة في زمانه. فكان البسطاء من عامة الناس و الأبطال من الأساطير الإغريقية و الحيوانات يشتركون في أدوار رواياته الهزلية، لتعرض أحوال الناس في جميع الأزمان. فكانت الحيوانات هذه تعكس صوراً من النماذج الإنسانية، مؤشرةً بذلك إلى الطبائع المشتركة بينها و بين الإنسان. كان لاڤونتين يعتقد بوجود طابع مرح حتى في

أكثر المواضيع جدية. نشرت مجموعة من رواياته القصيرة في عام(١٦٦٤) بعد وفاته، حيث إستقى معظمها من المصادر الإيطالية و بالأخص من(بوكاچيو). أثرت أساطيره على موليير و جان راسين و غيرهما. توفي في باريس في(١٣ نيسان ١٦٩٥). و من أشهر أعماله (غراميات دي پيش و دي كوپيدون) و (الحكايات و الروايات) في قصائد شعرية، و غيرها من الأعمال الكثيرة.

(٨) رونسارد: پيير دي رونسارد، الشاعر الفرنسي أو أمير الشعراء كما كان يدعى من قبل جيله المعاصر. ولد في مقاطعة(ڤين دي موا)في (تشرين الأول ١٥٢٤). يقال بأن عائلته نزحت من المقاطعات السلافية. و كان والده لويس خادماً في الفندق الملكي أبان حكم فرنسيس الأول. تلقى التعليم في كلية (ناڤار) ، و لكن الحياة الخشنة السائدة في مدارس القرون الوسطى لم تكن تلائمه، فتركها ليعين خادماً لدى إبن الملك. و عندما تزوج الملك جيمس الخامس من أميرة فرنسية، أرسل رونسارد معها، فقضى ثلاث سنوات في بريطانيا. و عاد بعد ذلك إلى خدمته السابقة في فرنسا، و عين في السلك الدبلوماسي، و لكنه إضطر إلى تركه بعد إصابته بمرض أفقده حاسة السمع.و من اعماله (عرض في اللغة الفرنسية) ظهر في (١٥٤٩) و (پليد) و (نشيد فرنسا) و (نشيد السلام)و(غراميات كاساندر). اثارت هذه الكُتب موجة من المشاحنات الأدبية لإحتوائها على النقد اللاذع لأساليب القرون الوسطى حيث كان ينصح بإتباع إسلوب الكلاسيكيين، و بذلك كان يقف ضد النظرية المتبعة آنذاك من قِبل أنصار(مارو). و (١٥٦٥) صدر كتابه المهم الشيق (مختصر من الشعر الفرنسي). أكرمه شارل التاسع و أسكنه في القصر و إعتبره أستاذاً في الشعر، و كان الملك نفسه شاعراً لا يستهان بملكاته. فأثار ذلك غضب مناوئيه، فكتبوا ضده و حاولوا حتى قتله. و بعد موت شارل ترك حياة القصر و عاش أيامه الأخيرة في ڤيندوم أو في باريس ليحظى بالتكريم من قِبل الملكة أليزابيث البريطانية و الملكة ماري السكوتلندية. توفي في (كانون الأول ١٥٨٥). و ظهر إسمه مجدداً في العصر الرومانسي نظراً لجودة الأوزان و القوافي في أشعاره، و كذلك ربطه خصوصيات العصر الكلاسيكي بالأنماط السائدة في القرون الوسطى. و ظهرت شهرته الكاملة بسبب نتاجه المبدع المتسم بالنقد في كتابه(موسوعة الأدب الفرنسي للقرن السادس عشر) الذي خلق له مكانة في الأدب الفرنسي. كان رونسارد متفوقاً بصورة عامة في أشعاره الغزلية، كأغاني(كاساندر) و (ماري) و (جنيڤر) و (هيلين)، و كذلك في وصف الريف في أشعاره(ينبوع بيليري) و (غابة گاستين) التي تتسم بجمال غريب و رقة لا متناهية. إستطاع رونسارد أن يبرز جاذبية الأشعار في القرون الوسطى، مع عظمة تعبيرها اللغوي و التصوير و الإبداع في تنوع القوافي و الأوزان.

(٩) أغاني قديمة من أصل فرنسي.

(١٠) معتقد يقول بأن وجود الله و أصل الكون أمران لا سبيل إلى معرفتهما.

(١١) ڤيرلين: پول ڤيرلين(١٨٤٤ ـ ١٨٩٦): الشاعر الفرنسي الغنائي، ولد في ميتز في (٣٠ مارت ١٨٤٤). كان إبناً لأحد جنود نابليون و الذي أصبح مهندساً عقيداً في جيشه. نال ڤيرلين ثقافته في باريس و عين كاتباً في شركة للتأمين. و كان عضواً في الجمعية المعروفة (بالپارناس) مع أدباء آخرين. نشر أول مجموعة من أشعاره في عام (١٨٦٦)، و بعد ذلك مجموعة (الأناشيد الجيدة) في عام(١٨٧٠). و إضطر أن يترك فرنسا نظراً للمشاكل التي تورط فيها مع الحكومة لإيوائه الأصدقاء المناوئين للسلطة. تداخل الشاعر الشاب جان آرثر ريموند عام(١٨٧١) في حياته، فأصبحت معاقرة الخمر ملازمة له. أخذ ڤيرلين يسرح مع هذا القرين في فرنسا و بلجيكا و إنكلترة، فحكم عليه بالحبس مدة سنتين عندما أطلق النار على مرافقه، فأخطأ التهديف لحسن الحظ. غيرت حياة الوحدة في الزنزانات من معتقداته الوثنية، فأصبح كاثوليكياً دون أن يغير ما كان يتحلى به من الحب للمشاعر الإنسانية. و بعد هدوء دام سنين نشر في عام(١٨٨١) مجموعة من الأشعار الدينية التي تعتبر في مصاف أجود الأشعار في هذا الموضوع لما كان يحتويها من الإيمان المملوء بالعواطف و الجمال الشعري الأصيل. و أما أشعاره (الرومانسية دون الإفصاح) التي نظمها أثناء تجواله في (١٨٧٤) تبين ڤيرلين في أبدع لحظاته الفنية مع كمال السيطرة على الذات ، ذلك قبل عثور الشاعر على ما كان في قرارة نفسه من جودة الإبداع. رجع إلى فرنسا في عام(١٨٧٥) و هناك تركته زوجته فعاد إلى إنكلترة، و أصبح مدرساً للغة الفرنسية هناك. و بعد ذلك بسنتين رجع إلى فرنسا ، و أخذ يمارس مهنة التدريس، و بعد موت والدته التي كان يرتبط معها بوشائج المحبة الشديدة، تحرر من المجتمعات (المحترمة)، فعاش بقية حياته معدماً يرقد غالباً في المستشفيات. و لكنه رغم ذلك لم يفقد ما كان يتسم به من مرح الحياة و اللامبالاة الملازمة له كالأطفال. و بعد نسيان طويل، و حينما كان يعرفه شلة من الأصدقاء في الحي اللاتيني فقط، و يقضي أوقاته في مقاهيها ليل نهار، أصبح ڤيرلين أخيراً يتمتع بالشهرة و المجد في جميع أوروبا. سافر في عام(١٨٩٤) مرة أخرى إلى إنكلترة متمتعاً بذياع الصيت كشاعر ممتاز. مات في باريس في (٨ كانون الثاني ١٨٩٦)، و من أعماله الشهيرة (الحب ١٨٨٨) و (البولمان ١٨٨٩)و(الساعات السعيدة ١٨٩١) مع أعمال أخرى كثيرة جداً.

(١٢) ديروليد: و هو پول ديروليد(١٨٤٦ ـ ١٩١٤)، الكاتب و السياسي الفرنسي المولود في باريس. ظهرت أشعاره للمرة الأولى في (ريڤوناشنال) تحت إسم مستعار(جان ربييل). و أنتج في (١٨٦٩) تمثيلية مكونة من فصل واحد على (المسرح الفرنسي) بعنوان (جوان سترينير). جرح في الحرب الفرنسية ـ البروسية و أسر، فأرسل إلى (برسلاو) و لكنه إستطاع الهرب ، فرفع إلى رتبة الملازم. بعد ذلك تقاعد على اثر حادث. و نشر في (١٨٧٢) عدداً من

الأشعار الوطنية بعنوان(شانت دو سولدات) أي أغاني الجنود و التي إكتسبت شهرة واسعة جداً. و بعد ذلك نشر في (١٨٧٥) مجموعة أخرى(نوفو شانت دو سوارات) أي الأشعار الجديدة للجنود. و كتب في (١٨٧٨)(ڤيڤ لافرانس) تعيش فرنسا فلحنها له الموسيقار(گوتو). و في ١٨٨٢ أسس (عصبة الوطنيين) لحث الفرنسيين على الإنتقام من الألمان. و كان يشجع التحالف بين الفرنسيين و الروس لتحقيق تلك الغاية. و عند إنقلاب الجنرال(بولانجي) في (١٨٨٩) أغلقت الجمعية من قِبل الحكومة الجديدة. و رغم ذلك إنتخب في (١٨٩٠) نائباً و لكنه طرد لكثرة مقاطعته المتكلمين أثناء جلسات المجلس. إنتخب مرة أخرى في (١٨٩٨) فألقي القبض عليه لمحاولته إقناع الجنرال (روجي) بالهجوم على قصر (الإيليزيه)، و لكن المحكمة برأت ساحته. و أدخل السجن مرة أخرى مع معاصريه(أندري بوفي) و (جول گويرين) بتهمة المؤامرة ضد الحكومة. و بعد إجراء محاكمات طويلة حكم عليه بالإبعاد مدة عشر سنوات، و لكن العفو العام الصادر في (١٩٠٥) أتاح له الرجوع إلى فرنسا، فتوفي في(كانون الثاني ١٩١٤) بقرب مدينة (نيس). و بجانب ما ذكرناه من الأعمال قام (ديروليد) بنشر المسرحيات و أعمال أخرى كثيرة تتسم جميعها بطابع الوطنية.

الفصل الحادي عشر:

(١) يقصد الإستخبارات البريطانية.

(٢) معاهدة (سيفر عام ١٩٢٠) المعقودة بين الحلفاء المنتصرين و الأتراك بعد نهاية الحرب العالمية الأولى، و التي تنص على تأسيس دولة كُردية في المناطق المسكونة من قِبل الكُرد.

(٣) تعترف الأوساط الرسمية التركية و التي تحاول دائماً التقليل من عدد نفوس الكُرد، بوجود إثني عشر مليوناً، و لكن العدد يفوق ذلك كثيراً.

(٤) هذا مجرد زعم لا يفكر فيه الكُرد الذين يرون العدالة في الحقوق المشروعة للطرفين.

(٥) لا يمكن لوجود أصل مشترك منع المنازعات و الحروب بين شعبين، إذ حارب الألمان الإنكليز في حربين عالميتين، برغم إنتمائهما إلى العرق(الجرماني). و الواقع، إن ما يخلق النزاع محاولة القوى للسيطرة على الشعوب الضعيفة و هدر حقوقها.

المراجع

للحصول على المراجع الكاملة، أرشد القارئ إلى النصوص و الملاحظات الكثيرة و المقالات المختلفة التي نشرتها. فأدرج مقتطفات لمن يرغب الإطلاع عليها، حول مصادر المعلومات عن الكُرد، و لا يمكن الإستغناء عن الأعمال التالية بهذا الصدد:

١ـ ڤي. مينورسكي: مقالات، الكُرد وكُردستان في الإنسايكلوبيديا الإسلامية.

٢ـ بي. نيكيتين: الكُرد: دراسات تأريخية و سايكولوجية، باريس ١٩٥٦ (فرنسي).

٣ـ سي. جي. أدموندز: الكُرد و الأتراك و العرب، أوكسفورد ١٩٥٧

٤ـ أي. إم. هاملتون: طريق خلال كُردستان، لندن، الطبعة الخامسة ١٩٥٨

و هناك دراسات إضافية و مقالات توضيحية، لإسناد الفصول المختلفة.

الفصل الثاني:

١ـ ڤي. مينورسكي: أصل الكُرد، بروكسل ١٩٣٨، المؤتمر الدولي العشرون للإستشراق، بروكسل ١٩٣٨ (فرنسي).

٢ـ آر. جي. برايدود: إستكشاف عما قبل التأريخ في كُردستان العراق، شيكاغو ١٩٦٠.

٣ـ إج. فيلد: علم الإنسان في العراق، القسم الثاني، جامعة هارڤارد ١٩٥١، ١٩٥٢، ١٩٦٠.

الفصل الثالث:

١ـ ك. بدرخان: المرأة الكُردية، هاوار، العدد ١٩، ١٩٣٨

٢ـ إف. بارت: مبادئ المنظمات الإجتماعية في كُردستان الجنوبية، أوسلو ١٩٥٣.

٣ـ إض. إض. هانسن: حياة المرأة الكُردية، كوبنهاگن ١٩٦١.

٤ـ م. موكرى: الموقد الكُردي، إيثنوگرافي ١٩٦١، (فرنسي).

الفصل الرابع:

١ـ بي. نيكيتين: إقطاعية الكُرد ١٩٢٥ (فرنسي).

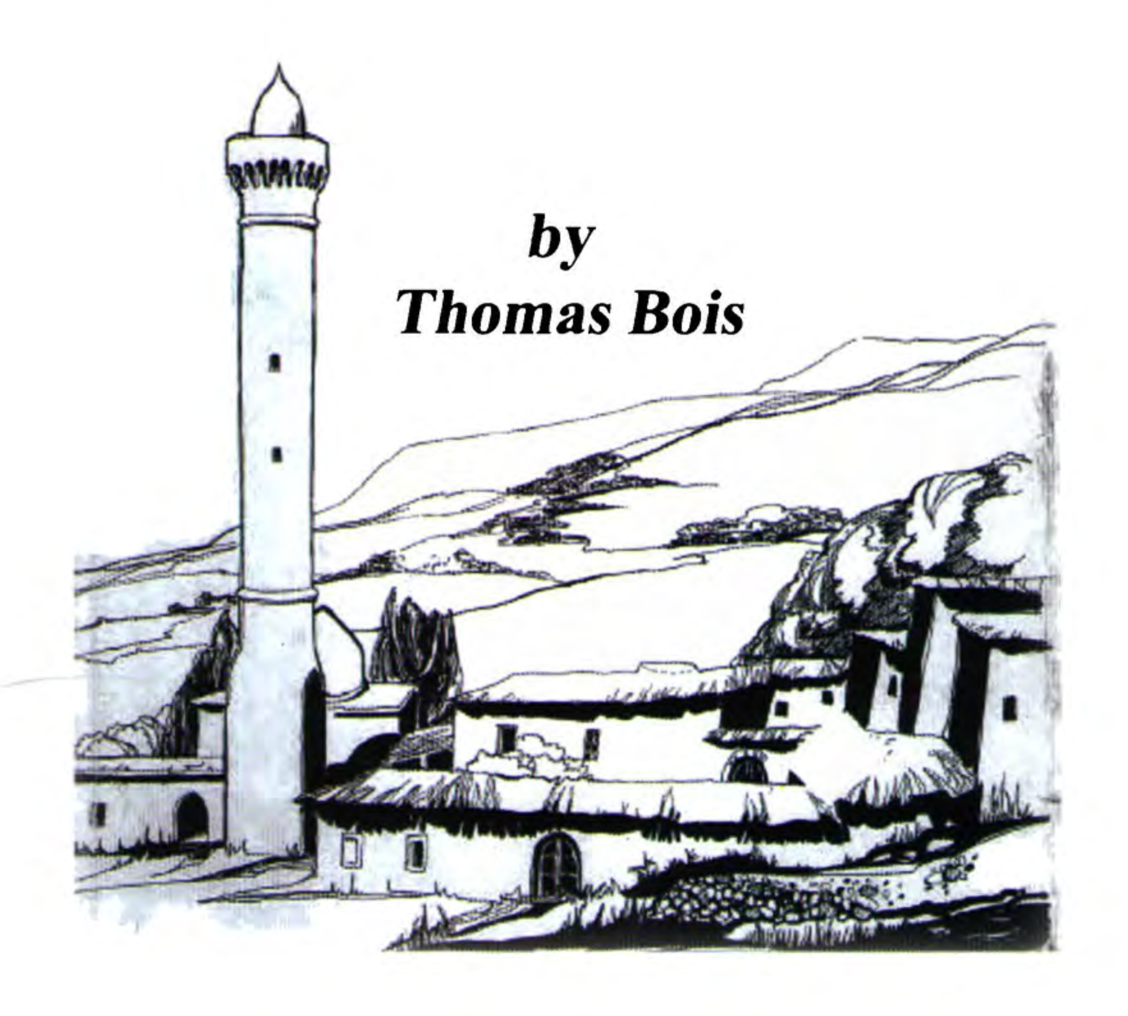
٢ـ پي. رونـدوت: العشائر الجبلية في آسيا الوسطى، بعض الأوجه السكانية للكُرد الآثوريين، دمشق ١٩٣٧(فرنسي).

الفصل الخامس:

١ـ تاوزباري: الزواج عند الكُرد، هاوار، العدد٤٢، ١٩٤٢.

٢ـ م. موكري: الزواج عند الكُرد، إيثنوكَرافي ١٩٤٢(فرنسي).
الفصل السادس:
١ـ تاوزباري: شباب الكُرد، هاوار، العدد٤٢، ١٩٤٢.
٢ـ توفيق وهبي: صخرة كهوف كندول، مجلة سومر١٩٤٢.
الفصلان الثامن و التاسع:
١ـ ج. آر. درايفر: ديانة الكُرد(فرنسي).
٢ـ بي. نيكيتين: دفاع كُردي عن المذهب السني(فرنسي).
٣ـ آر. ليكوت: البحث عن اليزيديين في سوريا و جبل سنجار، بيروت ١٩٥٨ (فرنسي).
٤ـ ئي. إس. دراور: الطاووس و الملائكة، سرد عن نذور طائفة سرية و عن مزاراتهم، لندن ١٩٤١.
الفصل العاشر:
١ـ كامران بدرخان: ملاحظات حول الأدب و العادات والتقاليد الكُردية، هاوار، العدد الأول و الأعداد التالية ١٩٣٢.
٢ـ أي. ليكوت: النصوص الكُردية، باريس ١٩٤٠، بيروت ١٩٤٢ (فرنسي).
٣ـ دي. إن. مكنزي: دراسات في اللهجات الكُردية، أوكسفورد١٩٦١، ١٩٦٢.
الفصل الحادي عشر:
١ـ آر. روندو: الشعب الكُردي في وجه الحركات العربية، أوريانت العدد٧، ١٩٥٨ (فرنسي).
٢ـ أي. إل. وينر: الصراع الكُردي العربي في العراق، مجلة الشرق الأوسط ١٩٦٣، الصفحات ٦٨ ـ ٨٢.
٣ـ بلاو: المشكلة الكُردية، مقالات إجتماعية و تأريخية، بروكسل ١٩٦٣،(فرنسي).
٤ـ دانا شميدت: سفرة بين الرجال الشجعان، بوستن ١٩٦٤.
٥ـ دي. أدمسون: الحرب الكُردية، لندن ١٩٦٤.
٦ـ دي. كينان: الكُرد و كُردستان، أوكسفورد ١٩٦٤.

The Kurds



by
Thomas Bois

KURDOLOGY CENTER
SULAIMANI